

www.kotobarabia.com
رواية
حقول الرماد
أحمد ابراهيم الفقيه
www.kotobarabia.com

رواية

حقول الرماد

أحمد إبراهيم الفقيه

حقول الرماد

المقدمة

" عذبنى الرحيل عبر المسافات الطويلة الشاقة، خضت الأودية المستنقعات، واجتزت الجبال العالية الوعرة. وقطعت صحراء القيظ والعطش سيرا على الأقدام أسابق حركة الليل والنهار، وأغافل العسس وحراس الحدود ؛ كى أنقـل هـذه الرسالة الخطيرة التى اؤتمنت على حملها إليكم .

وعندما وصلت وجدت أنها تمزقت بداخل الجيب الذى خبأتها فيه .. تفككت حروفها، وذاب حبرها، ولم تعد تصلح للقراءة "

(١)

الذاهب من طرابلس إلى " قرن الغزال " على أطراف الصحراء سيدهشه أن يرى طريقاً يواصـل الصـعود دون انحدار، وجبلاً يفضى إلى جبل فوقه كأنها سلالم تقود إلـى السماء، هذا ما أحس به أعضاء البعثة العلمية عندما وصلوا بسيارتهم إلى منطقة الجبـال، رأوا طريقـاً يصـعد الجبـل فسلكوه، وانتظروا أن يعقب الجبل سفح فى الجانب المقابـل ولكن الجبل لا سفح له، بدلاً من ذلك أسلمهم إلى مرتفعـات

أخرى، ثم فى خط صاعد وجدوا أنفسهم يجتـازون القـرى الجبلية ببساتينها وحقولها ويصلون إلى ذروة الجبـل التـى انبسطت وامتدت وأصبحت أرضاً فسيحة واسـعة برحابـة الأفق، كالحة جرداء، تتناثر فيها بعض النبتات الصـحراوية التى أصفرّ لونها وأذابت شمس الصيف أوراقها مثل الشـيح والزعتر والرتم والعجرم، وتنبثق بين الحين والآخر شـجرة سدر أو أثل أو بطم .

اختفى البشر والعمران، واختفت البسـاتين والحقـول وران الصمت والوجوم فوق فضاء يمتد ويملأ القلب وحشة، كأنه ليس بعده شىء، وليس قبله شىء، إذ به بدأ الكون، وبه سوف ينتهى، وطريق أسـفلتى، ضـيق، متعـرج، ملـىء بالمطبات، شاهد وحيد على أن حضارة العصر قد مرت من هذا المكان، لا يتسع الطريق لغير سيارة واحدة، فإذا حـدث وجاءت سيارة من الاتجاه المقابـل، تقاسـم السـائق معهـا الطريق وحاد بنصف سيارته إلى التراب مثيراً زوبعة مـن الغبار تملأ الأفواه والعيون، فيغلقون زجاج النوافذ ثم يعيدون فتحه مرة أخرى بحثاً عن نسمة هواء تبدد القيظ والاختناق، وعلى امتداد الطريق رأوا أنفسهم يجتازون أودية فى شـكل

مسارب صغيرة صنعتها السيول، تلوح بين الحين والآخـر خيمة سوداء نصبت على ضفافها، أو قطعان من شياه الماعز تدس رؤوسها بين أحجارها بحثاً عن الأعشاب التى أيبسـتها الأشهر التى مضت من هذا الصيف. والبون الصحراوى يمتد ويتسع، وسيارتهم ترتفع بها الأرض وتنخفض ثم ترتفع مرة أخرى وهى تجتاز تلاً صغيراً، لينشق الأفـق عـن مشـهد البطاح التى تلوح بعيداً بلونها الضارب إلى السمرة، عارية، صخرية، تغطيها غلالةً رقيقةً من أبخرة الشـمس، تجمعـت تحت أقدامها كثبان من الرمال التى صنعت خطاً بلون الذهب يمتد بامتداد الأفق ويذوب فى أطراف السماء التـى أطبقـت على الأرض، ووسط السمرة والذهب ولون السماء انبثقـت دائرة خضراء من أشجار النخيل، تعلوها ثلاثة أبراج طويلة سوداء تغرس رؤوسها فى السماء وتتخلل ذلك كلـه نقـاط بيضاء هى قباب المسجد والضريح وقصر الحكومة، لوحـة متعددة الألوان، متنوعة فى ضوء الشمس، معلقة بين السماء والأرض، وتستند على حافة الأفق، تلك هـى بلـدة " قـرن الغزال ".

(٢)

ما إن وصل أعضاء البعثة العلمية التى يرأسها خبير أمريكى إلى القرية، حتى أدركوا أن مظاهر الأشياء لا تنبئ بجوهرها، وأن تلك اللوحة التى بدت فيها القرية صبية فى ثياب العرس تهجع غافية فى أحضان الجبال، ليست إلا واجهة خادعة لمجموعة من البيوت القميئة الملتصقة بالأرض والدكاكين الفارغة وحظائر الدجاج وسحب الذباب والأتربة ورائحة الفقر التى تنبعث من كل مكان. عرف أهل القرية بوصول أعضاء البعثة فصاروا يعقدون زحاماً حولهم أينما وقفوا، ويجرى الأطفال بأقدامهم الحافية وقمصانهم الممزقة وراء سيارتهم أينما ذهبوا، وأقام لهم الشيخ مسعود وليمة فى بيته دعا إليها المتصرف وبعض رجال القرية حيث دار الحديث حول مصنع الزجاج الذى اعتزمت الحكومة إقامته فى »قرن الغزال« والذى ما جاءت هذه البعثة إلا لوضع المخطط النهائى لإنشائه ومعاينة المكان الذى سيقام فوقه البناء. أنبأهم الخبير أن التجارب العلمية أثبتت أن رمال قريتهم تصلح بطبيعتها المتميزة لصناعة أفخر أنواع الزجاج، واتخذ المتصرف هيئة الرجل الذى يقف وراء هذا الإنجاز

قائلاً إنه سيكون مصنعاً عملاقاً يغطى حاجة الـبلاد وينـتج فائضاً للتصدير ويستوعب فى تشغيله أهـل القريـة وأبنـاء المديريات الصحراوية التابعة للمتصرفية ممـن يحتـاجون للعمل، تواترت كلمات الحمد والشكر والتهليل والثناء من كل الجالسين من أهل القرية، لقد صلوا أكثر من مـرة صـلاة الاستسقاء طلباً للّه أن يرزقهم بالغيث، ولكن للّه حكمته التى لا يدركها البشر، فها هى السماء تمطر بدل المـاء زجاجـاً، وقال الخبير الأمريكى عن طريق المترجم أن أناساً كثيـرين فى العالم سوف يعرفون هذه القرية عنـدما يشـربون فـى أكواب ويتناولون طعامهم فى صحاف كتـب فوقهـا باللغـة الإنجليزية »صنعت فى قرن الغزال«، ونطق الاسم محرفـاً فتساءل الشيخ مسعود منزعجاً لماذا لا تكتب »قرن الغزال« بالإنجليرية بمثل ما ينطقها أهلها دون تحريـف أو تبـديل، فأخبره الرجل بأنهم لا يملكون فى الإنجليزية حروفـاً مثـل القاف والغين، وأضاف المترجم قائلاً إنهم لا يملكون أيضـاً الخاء والعين والحاء والصاد والضاد والظاء والطاء، فأدهشه أن تكون لغة مشهورة مثل الإنجليزية فقيرة إلى هذا الحـد، وأدرك أن اللغة العربية أكثر شرفاً وغنىّ ولهذا اختارها اللّه

لتكون لغة الوحى ولسان أهل الجنة، ونظر الحاضرون من أهل القرية بعضهم إلى بعض بحسرة وأسى لأن العالم سوف يقرأ اسم قريتهم ممسوخاً وقد يظنها قرية أخرى، وشرحوا للخبير معنى الاسم فقال ضاحكاً:

- ولكننى لا أرى غزلاناً فى القرية.

نقل المترجم كلامه ضاحكاً مثل ضحكته، فأخبروهما أن ذلك كان فى أزمنة غابرة عندما كانت هذه الأرض مرتعاً للظباء والغزلان، تجرى أوديتها أيام الشتاء بالماء كالأنهار، لقد بنيت لتكون محطة للقوافل الغنية القادمة من البلاد الإفريقية محملة بالعاج والذهب وخشب الإبنوس وريش النعام، ثم انتهى ذلك العهد لتبقى مركزاً تجارياً لبدو الصحراء، مصدراً للمؤن والغلال، وحلقة وصل بينهم وبين العمران، وها قد جاءت أعوام الجفاف فأمحلت الآبار والعيون وهجرت أرضها الغزلان والطيور، وسكتوا متحرجين من ذكر الأسباب الأخرى لمشاكلهم، فأكمل »ضوء الهلال« وهو رجل لم يدعه أحد لهذه الوليمة، ولكنه يفرض نفسه فرضاً على كل اجتماع، معتبراً نفسه من أعيان القرية ورجالها الكبار:

- ثم جاءت نكبة اكتشاف النفط.

نظر الشيخ مسعود نظرة غاضبة إلى ضوء الهـلال، وقال يمنعه من مواصلة الكلام، ومعتذراً للضيوف عما قال:

- ما النفط إلا نعمة من اللّه على أبناء هذا الوطن.

ولكن ضوء الهلال خشى أن يميع الموقـف وتضـيع فرصة أن يعرف هؤلاء الضيوف الكبار المحنة الحقيقية التى تمر بها القرية فانتقل ليجلس مقرفصاً أمام الخبير الأمريكـى ومضى يشرح بأسلوبه العصبى إشارات يديه التـى صـار الخبير يتفاداها خوفاً من أن تصل إلـى وجهـه، المفارقـة العجيبة التى تعيشها »قرن الغزال«، فمـا أن جـاء الـنفط وازدهرت أحوال المدن والقرى الأخرى حتى نكبت »قـرن الغزال«، نضبت الصحراء التى حولها من البدو الذين باعوا أغنامهم وطووا خيامهم وهرولوا للعمـل أجـراء بشـركات النفط، وتركوا هذه البلدة التى لم تبن إلاّ من أجـل خـدمتهم تعانى الفقر والبطالة وتمتلئ بالدكاكين الفارغة التى تغرد فيها الرياح، خلع الخبير نظارته يمسح آثار الأبخرة التى صنعتها أنفاس ضوء الهلال فوق زجاجها وجلس صامتاً يستمع إلـى الترجمة.

وجاء صوت الحكمة على لسان المتصرف يقول:

- إنه بأموال النفط سوف تبنـى الحكومـة مصـنعاً للزجاج تباهى به القرية المدن الكبيرة.

وشارك عامر اليتيم فى الحديث قائلاً:

- وسوف تصبح »قرن الغزال« نفسها مدينـة كبيـرة بإذن اللّه.

عاد ضوء الهلال إلى مكانه ولم يقل شيئاً، فهو يعرف أنه لم يبقَ من الوقت ما يكفى لبناء المصنع، لأن حرباً كونية سوف تقوم وسوف يجد العالم نفسه فى صراع ضروس لـن يبقى فيه إلا من ملك الشجاعة والقدرة على احتمال الأهوال. رآه الشيخ مسعود صامتاً فحمد اللّه أنه لم يبدأ حديث الحرب التى ينذر أهل القرية كل يوم بقرب قيامها. انتهـى الغـداء، فخرج الشيخ مسعود ورفاقه يقودون أعضاء البعثة العلمية فى جولة عبر شوارع القرية ومعالمها، فاجأهم الخبير الأجنبـى عندما أخرج خريطة كبيرة زاهيـة الألـوان رسـمت بهـا تضاريس القرية ومعالمها، نشر الخريطة أمام وجهه ليحـدد المكان الذى ينطلقون منه، مدوا أعناقهم يتأملونها بانـدهاش،

وقد أفرحهم أن تكون قريتهم من الأهمية بحيث يتعب الخبراء أنفسهم فى رسم خرائطها وتلاوينها.

كانت آثار الجفاف وزحف الصحراء بادية فـى كـل مكان يمرون به، آبار كثيرة مهجورة بعد أن جـف ماؤهـا وتحولت المزارع من حولها إلى خلاء، وجوه الأطفال الذين يتحلقون حولهم مريضة متيبسة هربت منها الدماء، البيـوت واطئة وخالية من أى جمال، مسقوفة بجذوع أشجار النخيـل ومطلية بالجير الذى تحول بياضه إلى سواد، لا تملك نوافـذ وإنما كوى صغيرة بأعلى الجدران، سأل الخبير عن السبب، فأبلغوه أن النوافذ تفتح غالباً على صـحن البيـت الـداخلى المكشوف صوناً للحرمات من أعين المتطفلين، أما مكانتهـا كمركز تجارى انتهى زمانه، فقد بدا له واضحاً من رؤيتـه لهذه الحوانيت التى لا تُحصى، صفان طويلان من الحوانيت وبينهما ساحة كبيرة مليئة بالأوساخ والأتربة أخبروه بأنهـا مكان انعقاد السوق يوم الجمعة، تتوسطه شـجرة اثـل لهـا عروق ظهرت فوق الأرض وامتدت تغطى مساحة كبيرة من ساحة السوق، وحوانيت تفضى إلى حوانيت بعـدها خاويـة كلها، لا بيع ولا شراء، أرففها خالية إلا من بعض المقتنيات

البسيطة التى يصنعها أهـل القريـة مـن سـعف النخيـل، وصناديق البلح والرطب التى لا يشتريها أحد حتـى فسـدت وصارت تلوث برائحتها المكان، وقميص هنا وحذاء هنـاك كأنها معلقة من أجل الزينة، أما أصحاب الدكاكين فقد أخرج كل واحد منهم حصيراً افترشه فى ظل الحائط أمام الدكان أو ظل الحائط المقابل واتكأ عليه يطارد الذباب ويفرغ غلّه فـى حبات المسبحة التى فى يده، كان الخبير يتأملهم بنظرة تمتلئ فضولاً واندهاشاً وكأنه يشاهد مشهداً فى مسرحية تتحدث عن عبث الحياة، سأل باستغراب وهو يرى هذا كله:

- إذن كيف تعيشون؟

هذه هى المعضلة التى لا يمكن لأحد منهم أن يجد لها جواباً، إنهم يعيشون، أما كيـف يعيشـون فهـم أنفسـهم لا يعلمون، وأسرع عامر اليتيم الذى كان يـرافقهم فـى هـذه الجولة قائلاً جملته الشهيرة:

- لا حول لا قوة إلا باللّه.

وابتسم لنفسه فقد ذكره سؤال الخبير بالأحاجى الشعبية، وتمنى لو استطاع أن يقول على أسـاليب تلـك الأحـاجى سأمنحك مدينة لو قلت لى أنت الجواب، ولكنـه تـذكر مـا

أصابه من خير أنجاه من البؤس الذى يعيشه كثيرون من أهل القرية فصمت عن الكلام، سمع الشيخ مسعود يقول:

- إننا لا نعيش.

قالها الشيخ وهو ما يزال يقلب السؤال فى رأسه، ثـم سرعان ما أدرك أنه لم يقلها إلا مكراً وابتـزازاً، لعواطـف الرجل، إنه يعلم أن اللّه لم يقفل الدنيا فى وجوههم إلى هـذا الحد، لاشك أن هذا الأمريكى لا يعرف أنه لا يزال هناك فى الدنيا من يستطيع أن يعيش على حفنة من التمر أو رغيـف من الخبز مع طاسة الشاى، وهى أشياء لا يعجز عن تدبيرها أحد، إذ ليس فى القرية إلا عدد قليل ممن لا يحتفظون ببضع شياه يعهدون بها لأحد الرعاة بأطراف القرية، تفيـدهم فـى مواسم الأفراح وضحايا العيد وتعينهم على مواجهة ظـرف طارئ مثل الذى واجهه اليوم عنـدما رأى مـن واجبـه أن يستضيف أعضاء هذه البعثة، وقد يطارد الواحد مـنهم فـى مواسم الحرث سحابة أمطرت فيزرع حفنة من الشعير وقـد يكون له صبى بعث به للعمل بالمدينة أو ولد كبيـر أصـبح جندياً فى الجيش يرسل له مالاً كل شهر، وقد تواتيه إحـدى ضربات الحظ الحكومية ويصبح ضمن قوائم المستفيدين من

أجور الحكومة ومرتباتها. أما مصدر الأمان والبركة فسيقى دائماً كما كان فى كل أوقات الشدة والمحن وأيـام الحـروب والمعارك التى تمتد لأعوام طويلـة عنـدما تقفـل الطـرق وتنضب موارد الرزق الأخرى، هو شجرة النخيل المباركـة التى جاء على ذكرها القرآن وكانت ثمارها طعاماً للأنبيـاء، والتى تمنحهم خيراً يكفيهم طوال العام، ولا تطلب منهم شيئاً، ولا تقتضى عملاً أو جهداً، تحمل الريح إليهـا اللقـاح فـى موسمه ويجنون ثمارها دون أن تكلفهم عناء ريها أو تسميدها أو تلقيحها أو تقليب أرضها. تذكر الشيخ مسعود كـل هـذا فشكر اللّه على نعمته وكتم الأمـر عـن الرجـل الغريـب مستغفراً اللّه فى سره لأنه خالف الآية التى تقول: وأما بنعمة ربك فحدث، ملتمساً العذر فى أن دين الرجل يختلـف عـن دينه، وقد يعدل عن بناء المصنع إذا عرف سر بقاء القريـة وصمودها. قال يحرضه على الإسراع فى إنجاز المصنع:

- البركة فيكم وفى الحكومة، فلا حياة لقريتنا بغير هذا المصنع.

أخذوا الخبير إلى ركن قديم بالقرية لكى يشاهد مـآثر أجدادهم حيث تنتصب تلك الأبراج الثلاثة التى كانـت ذات

يوم حصوناً لسد الغارات على القرية، طويلة سوداء، مليئـة بالثقوب التى يكفى الواحد منها لإخراج ماسـورة البندقيـة، تهدمت من حولها الأبنية الأخرى، وانتهى عصر الغـارات وقراصنة الصحراء وظلت هى واقفـة تتحـدى العواصـف وتحمل فوق حجارتها صدأ السنين.

أثار منظرها فضول الرجل الأمريكى فسأل عمن بناها وكيف بنيت، لكن الشيخ مسعود رأى من الأدب إلاّ يخبره بما يعلم، لأن الذى بناها كان خبيراً أجنبياً مثله جـاء مـن وراء البحر، اكتراه أهل القرية لبنائها، وبعد أن أكمـل إنجازهـا دفعوا به من فوق برج النعام، وهو أعلى هذه الأبراج، ليلقى مصرعه خوفاً من أن يذهب إلى خصومهم فيبنى لهم حصوناً مثلها. تناسى سؤاله وحدثه عن شهرة القرية قديماً فى صناعة البارود وأهميتها العسكرية منذ عهد الرومان الذين بنوا بهـا قلاعاً لا تزال أطلالها قائمةً بأطراف القرية، فأخبره الرجـل الأجنبى بأن ذلك أيضاً مرسوم بالخريطة التى يحملها، أبدى إعجابه بما رأى وخلع عن عنقه آلة التصوير والتقط الصور للأبراج والأطفال ولمن كان معه من أهل القرية، أكـد لهـم بأنه سوف لا تمضى سوى أيام قليلة حتى تصـلهم الأخبـار

التى تفرحهم، ثم ركب سيارته مع أعضاء البعثـة يـرافقهم المتصرف لإكمال جولتهم ومعاينة الأماكن التى تصلح لبناء المصنع، وفى الليل أقاموا لهم حفلاً كبيراً بسـاحة السـوق، شارك فيه أهل القرية بالغناء الجمـاعى وجـاء المتصـرف بالزنوج الثلاثة الذين يحيون أعراس القرية وحفلات ختانهـا بالرقص وضرب الطبول والعزف على النـاى والمقرونـة، فقدموا عرضاً استمر إلى ساعة متأخرة من الليل، ولا يدرى أحد كيف وصلت إلى الخبير جرّة من خمر النخيل (اللاقبى) فكان يسكب منها فى كأس أمامه ويطلق الصيحات الجـذلى معبراً عن امتنانه بما سمع وما رأى، وفى الصباح سافر مع رفاقه تاركاً أهل القرية يحلمون باليوم الذى يشـاهدون فيـه الصحون والأكواب والتحف والتماثيل الزجاجية التى كتـب فوقها »صنع فى قرن الغزال«.

(٣)

- من كان يظن يا أهل الخير أن هذه الرمـال التـى تذروها الرياح فى عيوننا تصبح مصدراً لخير بلادتنا وموردا للثروة التى سوف تهبط علينا؟.

- وتصير قرن الغزال التى لم يسمع بها أحد، حديث الناس فى العالم، ويأتى على ذكرها المطربون الذين يتغنون بمنجزات الحكومة.

- سوف تمتلئ بالسائحات الأجنبيات الراغبات فى التعرف إلينا واقتناء تماثيل الغزلان المصنوعة من زجاج مصنعنا.

- لقد انتشى ذلك الرومى من خمر نخلنا وسوف لا يطول غيابه عنا، سوف يأتى محملاً بآلاته وأفرانه ومداخنه لينصبها بيننا ويقيم معنا ليلتقط لنا الصور ونحن نرتدى ثياب العمل الجديد.

- لا أظن أن الذى دبر له جرة الخمر إلاّ عامر اليتيم، فقد أبدى نهماً شديداً لعقد صداقة معه.

- لو أنه عزمه فى بيته وأراه جمال ابنته لما غادر القرية أبداً.

لقد أنستهم أخبار المصنع أحاديثهم عن عامر اليتيم الذى لم يعد يأتى ذكره أو ذكر ابنته على ألسنتهم إلا لماماً، فها هو حدثٌ كبير يأتى ليحدث تحولاً هائلاً فى حياتهم وحياة قريتهم وها هى الحكومة التى أهملتهم وأخذت أموال النفط

لتنفقها بعيداً عنهم تذكر الآن المحنة التى جاءتهم بسبب النفط وتختار قريتهم لتكون موقعاً لهذه القلعة الصناعية الجديـدة. انتظروا لأيام طويلة أن تأتى الشاحنات تحمل عصراً جديـداً إلى القرية وتقضى على ثقل ورتابة الحياة فيها، كان الخبيـر قد جاء مع أواخر الصيف، انقضى الصيف وانقضت بعـده أشهر الشتاء، والعصر الجديد لا يأتى والحياة لا تفقد رتابتها ولا فقرها فيطوون قلوبهم على الحلم الجميل الذى قد يتحقق ذات يوم ويعودون لمراقبة التحولات التى طرأت على عامر اليتيم.

فمنذ وقت مضى صاروا يلاحظون أن عـامر اليتـيم يضيف جملاً أخرى يشارك بها فى الحـديث غيـر جملتـه المعهودة التى لم يكن يفتح اللّه عليه بغيرها وهى «لا حـول ولا قوة إلا باللّه» والأدهى من ذلك أنه صـار الآن جليسـاً للمتصرف والشيخ مسعود وإمام المسجد، وعنـدما جـاءت البعثة العلمية كان يسير كتفاً لكتف مـع الخبيـر الأجنبـى ويشارك فى الحديث والنقاش.

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

كان هذا هو تعليقه الوحيد على كل ما يسمعه، خيـراً كان أو شراً، يلونها بحسب المناسبة، يقولها ضاحكاً سـعيداً معبراً عن رضاه أو عابساً حزيناً معبراً عن غضبه بـل إن انفعالات مثل الغضب والحزن والفرح لا تزوره إلا لمامـاً، فهو يمشى كأنه غائب عن الدنيا، ولكنه يقولها إذا طلب منـه رأى، وعادة لا أحد يطلبه إلاّ إذا كان مازحاً، لا يضيف إليها شيئاً ولا ينقص منها شيئاً. يأتى إلى المجـالس التـى تعقـد بساحة القرية ليلاً أو يمر بالمقهى يستمع بفضول إلى الحديث الذى يدور ودون أن يقول شيئاً يمضى إلى مستودع سيارات الحكومة الذى يشتغل به حارساً ليلياً، فلا يحس أحد بمجيئـه أو ذهابه، لا يهتم أحد بدعوته إلى حفل أو مأدبة أو اجتمـاع اللهم إلاّ إذا جاء ذلك عرضاً، ولكن لا أحد ينتبه إلى حضوره أو عدمه، يمر بالناس ويمرون به وأقصى ما يمكن أن يدور بينهم من كلام هو إلقاء التحية أو تعليق ساخر يـرد عليـه بجملته المعهودة، ويمضى، نادراً ما كان يناديه الناس باسمه كأنه ليس لعامر اليتيم اسم، يمر فى الطرقات يدلدل ذراعيـه ويجر قدميه جراً ويسدل فى انطفاء ملامح وجهه التى تبـدو مائلة نحو الشمال كأن تشويهاً قد لحق بها، لا يؤذى أحداً ولا

يتعرض له أحد بالأذى، مثله مثل آخرين فى القريـة ممـن ارتضوا الحياة على هامش الدنيا قانعين باللقمة التى يحصلون عليها. ولكن شيئاً فى بيت عامر اليتيم كان ينمو ويكبر ويتهيأ لأن يحدث انقلاباً فى حياته، كان هـذا الشـىء هـو ابنتـه »جميلة«. فقد أكملت ابنته المدرسة الابتدائية وجلست ثـلاث سنوات فى البيت لأنه ليس هناك بعد الابتدائية مدرسة للبنات تواصل بها تعليمها، إلى أن جاء المتصرف الجديد بابنته التى حصلت هى أيضاً على الشهادة الابتدائية، فأنشأ لهـا فصـلاً جديداً ألحقه بمبنى ابتدائية البنات وجعله نواة لمعهد المعلمات ونقل للتدريس به مدرساً مصرياً وزوجته، وبحث عن البنات اللاتى فى مستواها الدراسى، فكان أن التحقت ابنة اليتيم مع خمس فتيات أخريات لإكمال دراستها، وعندما عرف رجـال القرية بأنه أرسل ابنته إلى المدرسة الجديدة سافرة الوجه مثل ابنة المتصرف وضابط الشرطة وبنات الممرض الذى جـاء حديثاً إلى القرية، لا تختلف عنهن فى شىء إلاّ أنها ترتـدى جلباباً طويلاً وتضع فوق رأسها منديلاً، لم يثوروا فى وجهه أو يغضبوا لأنه اخترق تقاليد القرية وقلّد هؤلاء الوافدين، ولم يدخل معارك مع أحد كما فعل ضوء الهلال عنـدما سـمح

لابنته بأن تذهب فى ثياب الممرضات لتشتغل بالمستوصـف ممرضة للنساء والأطفال، لأنهم يعرفون أن اليتيم لا يعى ما يفعله ولا يملك مدارك يميز بها بين الخطأ والصواب وإنـه جاء إلى الدنيا يتيماً لا أهل له يضيرهم عمله، فتركوه إلـى حاله وأسقطوه من حسابهم ولم يهتم بأمره أو أمر ابنته أحد.

ولم تمضِ سوى أشهر قليلة على ذهابها إلى المدرسـة حتى انتبه الناس إلى جمالها، وصـاروا يلهجـون باسـمها مصحوباً بكلمات مثل »ما شاء اللّه« و »ما أبدع مـا خلـق اللّه«، فى الحق هم لا يلهجون باسمها، ففى القريـة مـازال الحديث عن أسماء النساء يثير الـتحفظ والخجـل، ولكـنهم يقولون »ابنة اليتيم«، فقد صار معروفاً أن لابنة اليتيم جمالاً لم تعهد البلادة مثله من قبل، وتدريجياً بدأ الناس ينتبهون إلى وجود والدها بالمجالس، وصار شيئاً فشـيئاً يـدخل دائـرة اهتمامهم ويحظى منهم بمعاملة تختلف عن المعاملة السابقة، بدأ الأمر بالمدرسين الشبان الذين لم يتزوجوا بعد، فهـم أول من اهتدى إلى الثروة التى يضمها بيت اليتيم، وهم أول مـن بدأ التودد إليه وعقد الصداقات معه ويستعيرون تعبيره تقرباً

إليه، فيبادرونه قائلين بمرح وابتهاج: - لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

فيرد عليهم بمثلها ضاحكاً وينادونه بعمى اليتيم فيفرح بندائهم، ويرسلون أمهاتهم إلى معسكر الطليان القديم، الـذى تحولت بيوته إلى خرائب تسكنها العائلات الفقيـرة بالقريـة حيث يسكن أيضاً عامر اليتيم، محمـلات بالشـاى والسـكر واللوز والبسكويت عقداً للصلة التى قد تأتى بنتائجهـا عنـد التفكير فى الزواج، ولأن حلم الزواج بامرأة أخرى يصلح به الرجل خطأ الزواج من المـرأة الأولـى هـو حلـم كـل المتزوجين. فقد بدأ الرجال عزاباً ومتزوجين، حتـى كبـار السن منهم، يهتمون بعامر اليتيم ويتوددون إليه ويدعونه إلى المناسبات التى تشهدها القرية، بدأ أطفالـه فـى المدرسـة الابتدائية فجأة ينقلبون إلى تلاميذ أذكياء يعودون كـل يـوم بالجوائز التى يمنحها لهم المدرسون تزلفاً وتملقـاً لوالـدهم، ويأتون الواحد بعد الآخـر يسـتأذنون فـى تقـديم دروس خصوصية لهم، فكانت زوجته تشير عليه بأن يقبل عرضهم وأن يبعث بالأطفال إلى بيوتهم ويعتذر عن اسـتقبالهم فـى البيت لأنه لا يليق بالمقام، وكان أصحاب الحوانيـت، رغـم

كساد تجارتهم، أو بسبب كساد تجارتهم، هـم أكثـر النـاس منافسة للمدرسين فى محاباتهم لليتيم، تختفى البضـاعة مـن أسواق القرية لمجىء عيد أو مناسبة دينية ولكن حق عـامر اليتيم يبقى دائماً محفوظاً، وينتهى لحم الماعز أو الجمل مـن دكان الجزار فى أيام المواسم، ولكن الجزار يـأتى هامسـاً لليتيم بأن نصيبه موجود، وكلما جاءت من المدينـة سـيارة شحن محملة بالفاكهة أو الخضار جاء أحد الناس يطرق بابه حاملاً بعض الغلال قائلا بأن واجب الجوار اقتضاه أن يأتى بهذه الهدية للأطفال، وكان لابد أن يصل الأمر إلى أسـماع الحكومة، وأن تدخل بكل ثقلها للفوز برضا اليتيم، فهـو لـم يكن يحلم يوماً بأنه سيكون على قائمة المرشحين لاستلام أحد البيوت العشرة الجديدة التى بنتها الحكومة، فمـازال نصـف سكان القرية ممن هم أكثر منه نفوذاً وعلماً وخبرة بـالأمور يسكنون بيوتاً قديمة توشك على السقوط، ويبذلون مسـاعيهم للحصول على بيت حكومى، ولكنه وجد نفسه فجأة يتصـدر قائمة الناس الذين وقع عليهم الاختيـار للفـوز بأحـد هـذه البيوت، دون أن يقدم بذلك التماساً أو يأتى من شيخ القريـة بشهادة تثبت أحقيته لمثل هذا البيت كما فعل مئات غيره من

أهل القرية، وعرف أن المتصرف بنفسه هو الـذى وضـع اسمه على رأس القائمة، وأكثر من ذلك فقد جاء من يسـعى إليه مستعطفاً أن يتوسط لدى المتصرف من أجل الحصـول على بيت مثله، ولم يدر عامر اليتيم ماذا يقول أكثر مـن »لا حول ولا قولة إلا باللّه«، دون أن يعرف صاحب الطلـب إذا كانت هذه العبارة تعنى قبوله بالتوسط أو رفضه له، وهو فى الحقيقة لم يقبل ولم يرفض كل ما فى الأمر إنه يعبـر عـن اندهاشه من هذه الدورة الكبيرة التى تدورها الأفلاك فترفـع أقداراً وتهبط بأخرى. واكتشفوا فى مستودع السـيارات أنـه موهبة أسىء فهمها وأن الأمد قد طال به فى الخدمة دون أن ينال ترقية فإذا بهم ينقلونه من الحراسة الليلية ويمنحونه لقباً مهيباً هو »مشرف تشغيل«، كان سعيداً بالترقيـة والعـلاوة التى تأتى معها، ورغم أنه لم يكن يشرف على شىء، ولـم يكن يهمه أن يشرف على شىء، فقد صار الآن بإمكانـه أن ينام فى بيته وأن يأتى للعمل متأخراً دون أن يحاسـبه أحـد ويخرج دون أن يستأذن من أحد، وجد مكانته فى القرية تتأكد يوماً بعد يوم، ثم تدريجياً بدأ يكتشف أن اللّه قد حـل عقـدة لسانه وبعث الحياة فى هذا العضو العضلى الذى يرقد فى قاع

الفم فصار يتحرك بالكلام كألسنة النـاس، غمرتـه نشـوة الاكتشاف وأقبل وسط اندهاش الناس جميعـاً يشـارك فـى الحديث بشهية عظيمة، شهية رجل حرم من الكـلام طـوال عمره، دون أن يعبأ بما يصيبه من تعثر فى نطـق بعـض الكلمات مما يجعل الناس يضحكون أحياناً من كلامه، وصار يجد نفسه يقتحم مجالس الرجال الكبار الذين لم يجرؤ يومـاً على أن يرفع إليهم عينيه، فيعاملونه كأنه واحد منهم، وهـو الرجل البسيط الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة ولا يعرف أهلاً ولا قبيلة، تربى يتيماً على الإحسان إلى أن التصق اليتم بـه وصار اسمه، فيحمد اللّه على نعمته ويتمنى لو كانـت أمـه على قيد الحياة لترى المكانة التى وصل إليها، ويستقبل حياته الجديدة بفرح وحب غامرين.

وصار إذا ما قام حفل فى القرية ولم يحضره عـامر اليتيم فإن أكثر من رجل يتفقده ويسأل عن سبب غيابه ويجد فى ذلك مبرراً لأن يذهب إلى بيته حالماً بأن تفتح له جميلـة الباب، ليسألها عن غيبته راجياً أن يكون المانع خيراً، بل إن الجملة الوحيدة التى كان يقولها صاروا الآن ينظرون إليهـا فى ضوء جديد، لقد بدت وكأنها تعليق ناجز مختصر علـى

كل المواقف فى الحياة وتحمل فلسفة عميقة لم ينتبهوا إليها إلاّ الآن، ويجدون سعادة فى ترديدها سواء كان ذلك فى حضوره أو غيابه. ولا شك أن دافع الزواج لم يكن وحده سـبب كـل هذا الاحتفاء بدليل أنه مرت أكثر من ثلاث سـنوات وهـى تخطر أمامهم فى طريقها إلى المعهـد دون أن يتقـدم أحـد لخطبتها قائلين بأن والدها لن يسمح بزواجها قبل أن تنتهـى من تعليمها، ويلتمسون بهذا القول عذراً عن عدم الذهاب إليه وطلب يدها، كان واضحاً أنهم بقدر ما يتعلقون بجمالها النادر الغريب فهم أيضاً يرهبونه ويرهبون كونها امـرأة متعلمـة ستفوز قريباً بشهادة التدريس، فمن يجرؤ على ترويض امرأة تحمل شهادة مثلها، خصوصاً وأنها تعودت علـى الخـروج سافرة الوجه مثل نساء المدينة. ليس حلم الزواج وحـده إذن وإنما شىء آخر غامض لا يجدون له تفسيراً يجعلهم جميعـاً يحتفلون به، كأن مجىء ابنة من صلبه لها كل هذا الجمـال يجعله متميزاً عن الآخرين، ويجعلهم جميعاً يوقنـون بأنـه يحتوى على معدن نادر أهملوه طويلاً وحان الآن أن يـردوا له اعتباره.

ولم يكن عامر اليتيم على يقين من السبب الذى يجعله على مدى هذه السنوات الأخيرة يصبح صاحب حظوة لـدى الناس، كان فى جزء من عقله يدرك أن لجمال ابنته علاقـة بالموضوع ولكنه يأبى أن يصدق ذلك، كان يريد أن يثبـت لنفسه أن الأمر يعود إلى قيمة يحملها فى ذاته، قيمة تميز بها وحده وغفل هو عنها كما غفل عنها بقية الناس، وكان يقلقـه أحياناً جمال ابنته واهتمام الناس بها وحديثهم عنها، ويجد فى ذلك شيئاً يثير فى قلبه الخوف، ويفكر أحياناً أن يعيدها إلـى حجابها مرة أخرى، ولكن الوقت تأخر الآن، ثم إنـه لـيس أفضل من حكام القرية ورجالها الكبار الذين يرسلون بنـاتهم للدراسة سافرات مثلها، بل هن أكثر سفوراً منها لا يرتـدين مثلها الملابس التى تجر فى الأرض أو يضعن مثلها مناديـل تغطى الشعر، فلماذا الخوف وابنته ستكون بعد أشهر قليلـة معلمة مثلها مثل بنات هذه العائلات الكبيرة.

كان اليتيم قد رمى إلى غير رجعـة ذلـك المعطـف المهترئ القديم الذى كان يرتديه حتى فى أكثر أيام الصـيف قيظاً ويرتدى بدلاً منه ألبسه نظيفة وعباءة جديـدة، وصـار يبسط وجهه المتجهم الملىء بظـلال وتجاعيـد لـم تكـن

الشيخوخة سبباً لها، بل إن الظلال ذاتها صارت تختفى مـن وجهه وتجرى فيه نضارة جديدة حتـى إن ذلـك التشـويه الخفيف فى ملامحه اختفى ولا يراه إلا من يدقق النظر إليه. لم تسقط من حديثه عبارة »لا حول ولا قوة إلا باللّـه« لقـد احتفظ بها وصار يضيف إليها كلاماً لـه معنـى، ويطلـق الدعابات ويقول رأيه فى أمور القرية ويـأتى علـى سـيرة الرجال الذين يديرون أمورها باعتبارهم أصـحابه، وسـط عيون مفتوحة على آخرها، اندهاشاً واستغراباً لهذا الانقلاب الذى طرأ عليه، وما أن يغادر مجلساً من مجالس أهل القرية، حتى يبادر أحدهم معبراً عن دهشته من عامر اليتيم الذى لا يعرف كيف يقول السلام عليكم فأصـبح صـاحب فصـاحة وفتاوى ونداً للشيوخ والمدراء والمتصرفين، ويضرب كفـاً بكف قائلاً وهو يقلد لهجة اليتيم:

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

فيضحك الجالسون.

وعندما رأوه ذلك اليوم الذى جاءت فيه البعثة العلميـة يسير بصحبة الخبير الأمريكى يمازحه ويضحك معـه كمـا يفعل المتصرف والشيخ تأكد لهم أن اليتيم سيكون لـه شـأن

كبير فى مستقبل الأيام وأن له من الدهاء ما يجعله يقنع ذلك الخبير بأن يعينه مسؤولاً محلياً للمصنع ورئيساً لكل العمال.

(٤)

جاء الانتقال إلى البيت الجديد مناسبة يختبر بها عامر اليتيم مدى ما وصل إليه من جاه ونفوذ، أشاد خيمـة كبيـرة أمام البيت وزين مدخله بسعف النخيل وعلق حذوة حصـان فوق الباب جلباً للفأل الطيب، ومد الخيوط التى تدلت منهـا المصابيح المصبوغة بمختلف الألوان، وحضر من يسـاعده فى نحر الخراف وشياه الماعز التى جاءته هدية مـن أهـل القرية وأقام للرجال وليمة كبيرة حضرها المتصرف والشيخ مسعود نصر الدين وضابط الشرطة ومدير التعليم وجاء من المدينة الحاج عبد الجليل ممثل المنطقة فى مجلس النواب كما جاء بعض مدراء النواحى حيث أجلسهم على بساط نضـت فوقه الوسائد بوسط الخيمة فى حين جلس بقية أهل القرية فى أطرافها الأخرى وفوق الحصائر التى مدت خارجها وارتدى هو الجريدى والزبون لأول مرة فى حياته، كما ارتدى طاقية حمراء لها زر طويل كتاك التى يظهر بها الملك فى الصور

الرسمية، قام على خدمة ضيوفه حتى انتهى الطعام، وجـاء موعد السهر فجلس بينهم يرحب بهم، سعيداً لأنه جمع فـى مجلس واحد كل هؤلاء المسؤولين الذين لا يلتقون مثل هـذا اللقاء إلا نادراً، دار الحديث عن همـوم القريـة ومشـاكلها ومصنع الزجاج الذى تأخر إنجازه، أخبـرهم الحـاج عبـد الجليل أن مسائل مثل هذه لا تتم فى شـهر أو شـهرين وأن إعدادها يحتاج إلى عام أو عامين وطمأنهم بأن ميزانية كبيرة سوف يرصدها مجلس النواب للمشروع وأنه لن يترك الأمر حتى يرى المصنع قد خـرج إلـى حيـز التنفيـذ، خشـى المتصرف أن يذهب الثناء كله إلى الحاج عبد الجليل فتدخل بالحديث قائلاً بأن المياه الى يحتاجها المصنع لن تكون مشكلة كما صورها البعض كل ما فـى الأمـر أنهـم يحتـاجون لاستخراجها من أعماق بعيدة كما حدث مع البئر الذى تشرب منه القرية. رأى عامر اليتيم ضوء الهلال ينتقل إلى مجلسهم ويهم بالتدخل فى الحديث فخشى أن يفسد جمال هذه الجلسـة ويغضب هؤلاء الضيوف بحماقته وعصبيته فقام من فـوره يأخذه إلى مجلس خارج الخيمة بحجة أن بين الرجال هنـاك من يود الحديث إليه، ثم عاد يلهج بالثناء على جهود النائـب

المحترم والسيد المتصرف وقد صار يقيناً فى ذهنـه أنهـم جميعاً قد اعترفوا به وجيهاً من وجهاء البلدة وواحـداً مـن أعيانها.

وأقامت زوجته فى الليلة التالية حفلاً لنساء القرية لـم تتخلف عنه حتى العجائز الطاعنات فى السن، جئن جميعهن مدفوعات بفضول عظيم للتعرف على هذه الفتاة التى صارت مصدر غواية للرجال وحديث أهل القرية صـغاراً وكبـاراً، تأملتها وهى تقوم صامتة على خدمتهن، خضـبت بالحنـاء أصابع يديها وقدميها وعلقت فى أذنيها أقراطاً وفـى عنقهـا قلادة من العقيق وارتدت احتفالاً بهذه المناسـبة رداء تـزين حواشيه خيوط الفضة ومن تحته فستان له ألوان زاهية ممن ترتديه نساء القرية فى الأعراس، بدا جمالها باهراً كجمـال الأميرات فى الأساطير الشعبية، فكن يعلقن أنظـارهن بهـا مندهشات كيف لامرأة عمشاء مثل أمها، منخـورة الأسـنان وداكنة السمرة كالزنجيات، أن تلد ابنة لها وجه كفلقة القمـر وعيون كعيون الظباء، وتبحث الواحدة منهن عن نقـص أو عيب فى جمال الصبية يمكن أن تنتقده فلا تجد شيئاً، ولكنها تأبى التسليم وتدس رأسها فى رأس المرأة التى بجوارها وقد

أدركت أنها عثرت على موطن الضعف فى شخصيتها قائلـة بلهجة متآمرة هامسة بأن جمال الفتاة كجمال التصاوير، حياة بلا روح، وأن المسكينة قد ورثت عن والدها عـدم القـدرة على النطق السوى، فهى صامتة لا تقول شيئاً وإن قالت فهما مجرد كلمتين، تفضلى وشكراً، لا تستطيع أن تقول غيرهما، وترتاح لاكتشافها وتتمنى على اللّه أن يكون كلامها صحيحاً فلا يخيب ظنها وإلا خرجت من هذا البيت بداء »الفدة«، ثـم بدأ الحفل وضج المكان بالعزف والرقص والغناء، أخـذتهن الزنجية العجوز أمى سعيدة بغنائها فى رحلة حنين إلى الأيام البهيجة القديمة عندما كانت تحيى أعراس القريـة بأغانيهـا وعزفها على الطبلة، لقد اعتزلت الغناء منذ أعوام طويلـة، ولكنها إكراماً للعلاقة التى تربطها ببيت اليتيم جاءت وغنـت هذه الليلة، وبرغم صوتها الذى زحفت عليه الشيخوخة وفقد طلاوته، فقد طربن لغنائها، وأعادت إلى أذهان المتزوجـات منهن اللاتى غنت أمى سعيدة فى أعراسهن سحر تلك الأيام الخوالى التى لن تعود، وتوالت النداءات التى تـدعو جميلـة للمشاركة فى إحياء هذه الليلة وسحبها من يدها لكى تنضـم للرقص مع بقية البنات، رأينها تمتنع وتعتـذر قائلـة بأنهـا

مشغولة بخدمة الضيوف، فازددن يقيناً بأنها مجرد مظهر ساحر الجمال لامرأة خاملة الروح وخالية من المرح والدعابة، ولكن جميلة قبل ختام الحفل بقليل جاءت تخيب ظنهن وتمنحهن سبباً آخر للحسد والغيرة، رأت الحفل قد دب فيه الفتور فلبت أول دعوة جاءت تدعوها لأن تغنى، فكرت فيما يمكن أن تغنيه، لأنها لا تحفظ شيئاً من أغانى الأعراس ولا تعرف إلا الأغانى التى تسمعها عن طريق المذياع فأعجبت بها وكانت ترددها بينها وبين نفسها، قررت أن تغنيها لنساء الحفل، كانت أغان جديدة على أسماعهن، فلم يستطعن مشاركتها الغناء، وإنما بقين يستمعن إليها وهى تغنى بمفردها مبهورات بصوتها وعذوبة غنائها وجمال الألحان التى تحفظها، وما أن تنتهى من أغنية حتى يطالبنها بأغنية أخرى فيتدفق صوتها يبعث فى القلوب البهجة والحسرة والفرحة والشجن فى وقت واحد، وسرت فى الحفل روح جديدة ودب الحماس والنشاط بين الفتيات فعدن مرة أخرى للرقص، وقلعت جميلة الرداء الثقيل الذى يعوقها عن الحركة وفكت المنديل الذى يربط شعرها ورقصت مع بقية البنات فتطاير الشعر الأسود الطويل فى الهواء وتمايل الجسم

الذى يشبه جداول الماء انثنى مع الإيقاع والتوى، ثم أسـرع الإيقاع فانتفض الجسم الجميل كلهب النار يشعل قلوب النساء حرقة وحسداً وغيظاً من تصاريف الأقدار التى تمـنح هـذا الجمال النادر لابنة رجل معتوه وامرأة عمشاء وتمنعه عـن بنات آباء وأمهات أكثر وسامة وعراقة، وبدا لهـن أن ذلـك شىء لا يتفق مع طبيعة الأشياء ونواميس الكون وأن جمالها الذى يشبه جمال الجنيات سوف يوقظ الفتنة ويشعل الحرائق فى »قرن الغزال«، وتوالت برغم ذلك التعليقات التى تشـيد ببراعتها فى الرقص والغناء، فوقفت إحدى النساء وقد فاض بها الكيل ولم تستطع أن تدارى غيظها، وردت علـى هـذه التعليقات بصوت عال كأنها أرادت أن تسمعه جميلة وأمهـا وبقية النساء:

- وماذا يعلموهن فى المدارس غير التهتك والخلاعة، حفظنا اللّه وأسبل علينا ستره.

سمعت أمى سعيدة ترد بغضب على كلماتها وتسـألها أن تقفل فمها فارتدت بسرعة لحافها، وصرخت فـى غـيظ تنادى ابنتها، فخرجت من وسـط الزحـام صـبية تلتصـق الأرض، خالية من أى جمال أو أنوثة، شـدت علـى يـدها

تسحبها بقوة وعنف وراءها، وخرجت تغمغم باللعنة على هذا البيت الذى يمتلئ تهتكاً وفجوراً.

(٥)

بالغت أم جميلة فى الاعتناء بابنتها حتى صار هذا الاعتناء حصاراً، أدركت الأم أن هذا الخير الذى أصابهم والبيت الجديد الذى منح لهم ليس إلا بسبب جمال ابنتها، فذهب فى يقينها أن أعين الحساد لن تتركها ولن تترك النعمة التى جاءتهم بسببها دون أن تفعل فعلها وتحاول أن تلحق الأذى بجميلة وأهلها، وخائفة صارت تلهج بالدعاء وتكثر من إحراق البخور داخل البيت، وتذهب كل يوم جمعة إلى ضريح سيدى أبو قنديل توقد له الشموع وتسأله أن يحفظ ابنتها من العين وتعود بصرة من تراب الضريح تنشرها على عتبة البيت، ولم تعد تترك جميلة تذهب إلا بصحبة أحد الأطفال من إخوتها، يتولى حراستها، وأحياناً تقوم هى بمرافقتها، ترتدى لحافها وتصحبها إلى المدرسة وتنتظرها أثناء العودة منها، وهى خائفة من أن يلحق الناس شراً بابنتها، وبرغم أن أحداً من رجال القرية أو شبابها لم يجرؤ يوماً على الاقتراب منها أو محاولة التحدث إليها، إلا أن جواً

غريباً كانت جميلة تحس به يغمر الدنيا من حولها، وتعـرف أن عيون الناس وإن لم تحدق مباشرة بها إلا أنها تتناولها من بعيد كأنها عدسات سرية مبثوثة فى كـل مكـان تراقبهـا، وتدرك أن لديها شيئاً تتميز به عن بقية البنات ممـا يجعلهـا تواجه غيرتهن منها بشىء من الاعتزاز والكبرياء فينعتنهـا بالغرور ويفتعلن الخصومة معها، وكانت علامات الصـحة والعافية والتورد فى وجهها مثاراً لاستغراب نسـاء القريـة اللاتى يجدن بناتهن ضعيفات نحيفات لا تورد فى وجـوههن ولا اكتناز فى أجسامهن مع أنهن نشأن فى بيوت أفضل مـن تلك الخرابة التى كان يسكنها اليتيم ويتناولن طعاماً أفضل من الطعام الذى يوفره لابنته وهو الذى لا يملك نخلاً ولا غنماً، فيدعين بأن السر فى ذلك هو أن أمها كانـت تسـقيها منـذ طفولتها لبن الحمير والعياذ بالله، وبينهن مـن تقسـم بأنهـا شاهدت أم جميلة تقوم بحلب الحمارة التى كان يجلب عليهـا اليتيم الحطب إلى بيته قبل أن يشترى موقد الغاز، حتى صار حلب الحمير سراً وسقى حليبها للبنات هوايـة كثيـر مـن الأمهات، ويذهب بعض أهل القرية إلى التأكيـد بـأن تلـك الأمطار الغزيرة التى هطلت منذ ثمانية عشرة عاماً وصنعت

سيولاً أهلكت الأغنام إنما حدثت يوم مولدها ثم أعقب ذلـك الجفاف وزحف الصحراء فعقمت السماء وأمحلـت العيـون التى تدر الماء واختفت الأشـجار والظبـاء والطيـور، وأن جميلة إنما هى فتاة تحتوى على عنصر عجيب وأنها نطفـة غريبة تنتمى إلى تلك القوى الخفية المجهولة التى تعيش معنا ولا نراها، وتسمع جميلة أطرافاً من هذا الكلام الـذى يقـال عنها، تديره فى عقلها ولا تجد له معنى أكثر من كونه علامة على شىء خصها اللّه به وحدها، فتذهب إلى مرآتها تتأمـل ملامح وجهها وتقاطيع جسمها، سعيدة بأنه قد أصبح لها الآن فى البيت الجديد غرفة خاصة بها، تسـتمتع بخصوصـيتها وتحاول أمام المرآة أن تبحث عن سر هـذا التميـز الـذى يتحدث به الناس، تقفل غرفتها على نفسها وتنضـو جميـع ملابسها وتقف أمام المرآة عارية تتأمـل شـعرها وجبينهـا وعينيها وتبتسم لترى جمال ابتسامتها وتهبط بنظراتها محاولة أن تكتشف هذا الشىء فى استدارة نهديها أو ضمور خصرها أو نعومة وتورد بشرتها أو تناسق وانسياب جسمها وتـدعى لنفسها أنها لا ترى شيئاً يميزها عن غيرهـا مـن النسـاء، وتخرج لسانها للمرأة العارية أمامها فى المـرآة وتـرى أن

المرأة الأخرى أخرجت لها لسانها ساخرة من رأيها فيها لأنها تعرف أنها أحلى امرأة فى الدنيا، فتضحك فى سعادة وترتمى على سريرها وقد استيقظ فى روحها وجسمها إحساس المرأة بأنوثتها التى نضجت وتفتحت، فتستلقى صامتة فوق سريرها، تنصت إلى نداء الحياة قوياً هادراً يسـرى مـع الـدم فـى عروقها.

ولكنها عندما تذهب فى طريقهـا كـل صـباح إلـى المدرسة، كانت تدس عنقها الطويل بين كتفيها وتخفى تحـت جلبابها الواسع استدارة نهديها وتحكم غطاء الـرأس حـول شعرها، خجولة من جمالها موقنة بأن فيه مـا ينـافى الأدب وأصول الحشمة.

ولقد أراد أحد الشعراء الشـعبيين أن يكتـب قصـيدة احتفالاً بهذا الجمال الذى أشرق فى دروب القرية، رأى أنـه ليس من اللائق أن يترك هذه »الجميلـة« دون أن يربطهـا بعلاقة حب مع أحد شباب القرية، وفتش طويلاً قبل أن يهتدى إلى ولد له مواصفات تليق بحـب فتـاة فـى مثـل رقتهـا وعذوبتها، لم يجد بين الشباب المقيمين فى القرية من يصلح لها، فذهب يبحث عن الشباب الذين رحلوا عن القرية بغرض

الدراسة ثم حصلوا على شهادة ضمنت لهم وظيفة مريحة فى دوائر الحكومة بالمدينة، ومن بين هؤلاء الشباب اختار ولـداً يكثر من زياراته للقرية، فى عينيه أسى يليق بعاشق يعذبـه الشوق لرؤية حبيبته، اسمه »العيد«، فصـنع للعيـد علاقـة بجميلة، وصاغ لهما قصة حب وهمية فى قصـيدة قصـيرة يسهل على الناس حفظها وتناقلها، وأطلق قصيدته بين الناس دون أن يكشف هويته، وصار الناس يتناقلون قصة هذا الحب الذى لا تعلم جميلة بأمره ولا يعرف عنه العيد شيئاً.

(٦)

العيد ليس اسمه الحقيقى، ولكنه لقب منحه له أطفـال القرية ثم وجده الكبار اسماً يليق بصاحبه فصاروا ينادونه به ويهجرون اسمه الأصلى »مصطفي«، ترك له والـده ذكـراً طيباً بين الناس، فقد عاش عمراً كاملاً يحمل الماء على كتفيه إلى المسجد، وعندما دخلت الحنفيات إلى بيوت القرية ولـم يعد للمسجد حاجة به، مات، وبعكس غيره من الشباب الذين يذهبون للدراسة خارج القرية ويحصلون بعـد ذلـك علـى وظائف فى المدينة تنسيهم قريتهم فلا يعودون إليها إلا مـرة كل عام أو عامين، حافظ العيد على علاقة حميمـة بقريتـه

وأبقى أمه مقيمة بها بعد أن رآها تفضل الإقامة بجوار أهلها، وما أن تأتى مناسبة أو عطلة رسمية أو عيد مـن الأعيـاد الدينية حتى يكون العيد قد وصل فى مسـاء اليـوم السـابق محملاً بهدايا يأتى بها معه ليفرح أطفـال أقاربـه، فاكهـة وألعاب وحلوى، فارتبط مجيئه فى أذهان هـؤلاء الصـغار بمجىء الأعياد وصاروا كلما رأوه يصل إلى القرية ينطلقون صائحين بأن العيد قد جاء اعتقاداً منهم بأنه هو الذى يـأتى بالأعياد إلى قريتهم.

- متى سنفرح بك أنت وجميلة؟

قالها له جمعة الدرويش بمجـرد أن رآه يصـل إلـى القرية، ذهب إليه مهرولاً وألقى عليه سؤاله قبل أن يبـادره بالتحية أو يسأله عن علبة الشموع الملونـة التـى أوصـاه بإحضارها له من المدينة، أعطاه العيد علبة الشـموع وقـال مداعباً:

- لن أتزوج قبل أن أراك عريساً.

ضحك الدرويش ومسح بطرف ثوبه الزبد الذى انتشر حول فمه ودس رأسه فى الأرض خجـلاً، ثـم فـتح علبـة الشموع يتأمل ألوانها مبتهجاً، نظر إليه العيد مبتسـماً وهـو

يراه سعيداً سعادة طفل بلعبته، متسائلاً بينه وبين نفسه عمـن وضع فى رأس هذا الدرويش فكرة زواجه من جميلة، كـان العيد يعرف أن لليتيم ابنة يتحدث بجمالهـا النـاس اسـمها جميلة، ولكنه لأول مرة يسمع أحداً يربط بينه وبينها.

- من أين جئت بهذه الفكرة؟

سأله العيد باهتمام فلم يزد الدرويش على أن قال:

- كل الناس ينتظرون هذا اليوم.

وفرحاً بشموعه ذهب يعدو باتجاه ضريح سيدى أبـو قنديل حيث يقيم وحيث سيوقد هذه الشموع ويستمتع بلهبهـا المتعدد الألوان.

عرف العيد بعد ذلك أن أهل القرية يتنـاقلون أبيـات قصيدة زجلية تتحدث عن علاقته الوهمية بابنة اليتيم، وبرغم أن القصيدة أثارت فضوله لرؤية الفتاة، إلا أنه أخذ الأمر كله مأخذ الدعابة قائلاً لمن يذكر الموضوع أمامه بأنه الآن وقـد التحق بالدراسة الجامعية طالباً من منازلهم، فإنـه لا وقـت عنده للحب ولا رغبة فى الزواج قبل أن ينتهى من دراسـته التى تستمر لأعوام طويلة تكون خلالها ابنة اليتيم قد تزوجت وصارت أماً.

كان قد نسى الموضوع عندما فـوجئ خـلال إحـدى زياراته إلى القرية بعامر اليتيم يأتى مع أول الليل إلى بـاب بيتهم يسأل عنه، خرج إليه مرحباً وسأله أن يتفضل لتنـاول العشاء معه، أخبره اليتيم بأنه على عجل وأنه رأى وهو فـى طريقه عائداً من المستودع أن يمر به من أجل كلمة صغيرة على انفراد، تمشى معه قليلاً أمام البيت، ظل اليتيم صـامتاً والعيد ينظر إليه قلقاً، متسائلاً عن سر هذه الزيارة، محـاولاً أن يتكهن بفحوى هذه الكلمة الصغيرة التى يريد أن يقولها له رجل لا تربطه به إلا علاقة المعرفة البعيدة، وجـد اليتـيم يقف، ويلتفت شمالاً ويميناً ليتأكد من أن أحداً لا يراهما، ثـم استمع إليه يقول بلهجة حانقة أنه لم يتوقع من رجل مثل العيد كان دائماً يحترمه ويحترم السمعة الطيبة التـى خلفهـا لـه المرحوم والده، أن ينشر شائعات كاذبة عن ابنته مدعياً أنـه على علاقة بها، ويسأله غاضباً أن يبتعد عـن طريقهـا وأن يمتنع عن رميها بالشائعات التى تضـر بسـمعتها وسـمعة عائلتها.

كان عامر اليتيم قد وصلته أخبار هذه الشائعات التـى تربط بين العيد وابنته وأحس بأن فى الأمر مساساً بكرامتـه

وأراد أن ينتقم أول ما ينتقم من ابنته ولكن أمها منعته عنهـا مقسمة بسيدى أبى قنديل الذى لا تقسم به حانثة أن جميلة لا تعرف العيد ولم تره فى حياتها أبداً وأن الأمر مجرد شـائعة يروجها الحاقدون على ابنتها، وذهب فى ظن اليتيم أن العيـد هو الذى اخترع هذه الحكايات مدعياً لنفسه علاقة بابنته فجاء من بنى على أقواله هذين البيتين من الشعر، وأن أسلم طريقة هى أن يذهب إليه يوقفه عند حده لكى لا تهدد هذه الشائعات مركزه الجديد فى القرية، وتجعل الناس الذين يولونه كل هذا الاحترام يعودون لإهماله والسخرية منه مرة أخرى، وازداد خوفاً من خطر هذه الشائعات عندما رأى بعض المدرسـين يعيدون إليه أطفاله الذين يرسلهم لأخذ الدروس الخصوصـية معتذرين بانشغالهم بعد أن عرفوا أن جهودهم قـد ضـاعت هباء وأن العيد قد فاز بجميلة دونهم.

ولهذا فقد كان حنقه حقيقياً وهو يسأل العيد أن ينصرف إلى شؤونه ويترك ابنته إلى حالها.

نفى العيد بقوة أن تكون له علاقة بترويج هذا الكـلام الذى فوجئ به كما فوجئ هو، وأنه مشغول بأعمـال أكثـر جدوى من مجرد تلفيق الحكايـات الكاذبـة، وهـو يعتبـر

الموضوع مجرد حديث عابث لا يمنحه الإنسان العاقل شأناً، بدليل أن الإشاعة ماتت وانتهت ولا أحد الآن يذكرها.

ولكن اليتيم أفهمه بأنه لا يقبل مثل هذا العبث بسـمعته وأنه على استعداد لأن يصدق كلامه إذا عمل على درء هذه الشبهات بالامتناع عن المجئ إلى القرية لفترة طويلة، يكون الناس خلالها قد أدركوا أن الأمر مجرد كذب وافتراء.

لم يكن العيد غاضباً، حتى إذا كان غاضباً فإن اندهاشه كان أكبر من غضبه، لم يكن قد رأى اليتيم منذ مدة طويلـة ولذلك فإنه لأول مرة يرى الرجل ينطق كلاماً غير »لا حول ولا قوة إلا باللّه« قادراً على تكوين جمل وكلمات لها معنـى وقادراً على أن يغضب وينفعل ويطلب منه طلباً كهذا، كـان يراه فى القرية خلال الأعوام الماضية يجوس عبر دروبهـا كأنه غصن شجرة ذابل يمشى فى الطريق، فإذا به اليوم يأتى إلى بيته بوجه تبدلت ملامحه ويتحدث بمنطق مـن عاشـر الوجهاء والعلماء طوال عمره، خائفاً على شرفه من همسـة يحملها الريح، قال العيد ضاحكاً وهو يرى عامر اليتيم يحكم بنفيه عن القرية بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذه العقوبـة وأنه يشعر بالأسف لأنه لا يستطيع أن يلبى له هذه الرغبـة،

وأنه من الخير أن ينسى هذه الشائعة التى ماتت فلا يوقظهـا مرة أخرى. ثم سأله بإلحاح أن يبقى لتناول العشـاء، لكـن الرجل مضى فى طريقه دون كلام وقد بدا واضحاً وبـرغم رفض العيد لطلبه أنه أقل غضباً وأكثر اقتناعاً بما قاله العيد. فى اليوم التالى رجع العيد إلى عمله بالمدينة ورغبته لرؤيـة جميلة صارت هاجساً يملأ عليه عقله وقلبه، مصمماً على أن يتدبر فى المرة القادمة وسيلة يرضى بها فضوله لرؤية هذه المرأة التى يتحدث بجمالها الريح.

(٧)

برغم أن عامر اليتيم وزوجته يدركان أن ما أصابهما من خير لم يأت هكذا دونما سبب، وأن وراءه سببا يعرفانه جيدا إلا أنهما استقبلاه بفرح ورضا دون أن يـدور بينهمـا حديث فى يوم من الأيام عن مصدر هذا الخير. التفت إليهـا وهما فى خلوتهما بعد صلاة العشاء قائلا دون أن يخفى القلق الذى بدا فى لهجته: الناس يتحدثون عنها كثيرا أليس الحديث عن جمالها خيرا من الحديث عن قبحهـا لا سـمح ا ؟ إذا كبرت البنت وجب حجبها !

هل تأتى لتقول هذا الكلام بعل أن أضحت ابنتك قريبة من نيل الشهادة التى لم تأخذها فتاة فى القرية من قبل؟

لم يقل لها إن ابنته عندما خرجت إلى الشارع منذ أكثر من ثلاث سنوات كان هو ضـعيف الإدراك لا يمـلك رأيـا معها، وإنها هى التى سمحت بخروجها مسـتجيبة لإلحـاح الزنجية أمى سعيه التى لا يضيرها أن تمشى جميلة حاسـرة الوجه مثلها ومثل غيرها من النساء الزنجيات .

قال : - لا يعجبنى أمر ذهابها فـى الطريـق وهـى حاسرة الوجه

- وهل تريدها الآن وبعد كل هذه السنوات أن تـذهب إلى زميلاتها وهى ترتدى لحافا كما تفعل الجاهلات ؟. إنهـا تقول إن ما ترتديه هو اللباس الإسلامى الصـحيح. وتـدعو بنات القرية ونساءها إلى ارتدائه.

ها قد أصبحتما متفقهتين فى الدين، يكفى مـا تعلمتـه ولتبق فى البيت تنتظر نصيبها مثل بقية البنـات فـلا أحـد بحاجة إلى شهادتها.

كان واضحا أن عامر اليتيم يحس بخوف غامض مـن هذه الشهادة ومن كلام الناس ومن المجهول الذى تحمله الأيام القادمة. .

- لابد أن أحد الناس قال كلاما أغضبك.

إن كل ما يقولونه إن هو إلا حسد وغيرة، ولـن أنـام هانئة حتى أراها معلمة تحـرق بعلمهـا وشـهادتها قلـوب الحاقدين والحاقدات. إنها أكثر البنات اجتهادا ونجاحـا فـى المدرسة فدع عنك هذه الأفكار وأطفئ النور ودعنا ننام با عليك .

ولكن عامر اليتيم لم يواته النـوم. لقـد أقلقتـه هـذه الشائعات التى يطلقونها حـول ابنتـه، وكـأنهم لا يجـدون موضوعا غيرها، ارتدى عباءته قائلا لزوجته بأنه سـيذهب لتفقد حراسة المستودع ممنيا نفسه بكوب من الشاى يتسلى به مع الحارس الليلى وجد وهو فى طريقه إلـى المسـتودع أن أضواء المسجد لم تطفأ بعد. حاد عن طريقه مستطلعا علـه يجد الشيخ نصر الدين ليستفسر منه عن أمر هذه الغولة التى يقول الناس بأنها ظهرت له ليلة البارحة. رآه مـازال قائمـا على صلاته فانتظره حتى أكمل الصلاة وخرج ليجلس معـه

على المحراب أمام المسجد، كانت أنسام ليل الربيـع تهـب ناعمة خفيفة تنعش القلب وتفتح الشهية للحـديث والسـمر. بادره الشيخ قائلا :

- ما الذى أخرجك فى هذا الليل يا تائب عامر .

العمل يا سيدنا .خرجت لتفقد المستودع، ولكن ما هى أخبار الغولة التى لاقتك ليلة البارحة يا شيخ نصـر الـدين؟ سمعت الناس يتحدثون بأمرها فلم أعرف إن كان ما يقولونه صدقا أو كذبا .

صار عامر اليتيم يدرك أن ليس كل ما يقوله النـاس صحيحا بعد أن رأى نفسه ضحية لأقاويلهم وحكاياتهم. وكان سعيدا بأن يلتقى بالشيخ نصر الدين إمـام القريـة وعالمهـا المبجل. سيستأنس برأيه عنده إجابة لهذه الأسئلة التى تشـغل باله والتى تخص دراسة ابنته وخروجها حاسرة الوجه ورأى الدين فى اللباس الذى يجب أن ترتديه المرأة. ولكنه رأى أن ينتظر حتى يعرف حقيقة هذه الشائعة حول الشبح الـذى رآه الشيخ .

رد الشيخ قائلا :

- لا غولة فى الدنيا إلا الإنسان .

قال فى نفسه هذا حديث رجل اختبر النـاس وعـرف جوهرهم .وعليه أن ينصت جيدا إلى كلماته. ظنه قد اكتفـى بهذا الشرح الموجز القصير الذى لا يرضى فضـوله فقـال يدفعه لمواصلة الحديث :

- إذن فالأمر مجرد إشاعات .

استجاب الشيخ لإلحاحه وانطلق يسرد القصة بكاملها: إنها ليست إشاعات، كنت فى طريقى لأداء صـلاة الفجـر عندما رأيت ماردا أسود طوله بطول أحد الأبراج يخرج من بين الخرائب قريبا من برج النعام يعترض طريقى. أمعنـت فيه النظر فإذا به شيء لا شكل له ولا وجه ولا ملامح، ليس بإنسان ولا حيوان. ويخرج أصواتا كأنها طنين مدينـة مـن النحل. استعذت با من الشيطان الرجيم. وقرأت آية الكرسى مرات ثلاث عله يختفى أو يتبخر فى الهواء، ولكن العمـلاق الأسود ظل منتصبا فى طريقى يصدر أصواته المنكرة ويتقدم ببط ء نحوى. لا أخفيك الحقيقة بأننى أحسست برعدة تسرى فى جسمى. كنت أعرف أنه لن يؤذينى بعد أن تلـوت آيـة الكرسى. ولكننى طلبا للسلامة أقفلت عائدا إلى بيتـى غيـر قادر على تفسير شيء من أمر هذا الشبح العجيب .

لا حول ولا قوة إلا بالله. لو كنت مكانك لسقطت ميتا فى مكانى. عليك أن تحمد الله أنك لم تكن فى مكـانى فهـى لحظات تسلب الإنسان عقله. كنت أنكر على الناس خـوفهم من الظلام. وأنكر على الرجل المؤمن خوفه من الأشـباح. فمن عمر قلبه كتاب الله لا تعترض الأشباح طريقه. ولكـن جمعا من أهل القرية ومن بيـنهم الشـيخ مسـعود كـانوا يعارضوننى فى ذلك ويقولون إن هناك أرواحا شريرة تجـد متعة فى التنكيل بالمؤمنين ومضايقتهم. ولقـد عـادنى هـذا الصباح الشيخ مسعود وبعض رفاقه يحملون الذبائح والمؤن يعتذرون بها عن فعلتهم لأن الأمر كله لم يكـن إلا مزاحـا منهم. أرادوا اختبار شجاعتى وإبطال رأيى فأرسلوا اثنين من رجال القرية الأقوياء يحملان فوق أكتـافهم سـلما طـويلا يغطيانه بالأردية السوداء ويعترضاننى عد ذهابى لأداء صلاة الفجر بالمسجد .

قال عامر اليتيم وهو يحاول أن يتمالـك نفسـه مـن الضحك: إذن فإن تلك الغولة لم تكن إلا هزارا .

ألم أقل لك إنه لا غولة إلا الإنسان. لقد قررت مقاطعة الشيخ مسعود ومن كان معه. رددت عليهم هداياهم وسـألتهم عدم المجيء إلى بيتى مرة أخرى .

رأى عامر اليتيم أن الشيخ لم يتحرر تماما من حالـة الذعر التى أصابته ليلة البارحة فعدل عن إشراكه فى همومه وأرجأ الاستنارة برأيه ورأى الدين فى لباس ابنته إلى مناسبة أخرى .أراد أن يستأذن ويقوم ولكن الشيخ بـادره قـائلا: وكيف حال ابنتك جميلة ؟

استغرب عامر اليتيم أذ سأله الشيخ هذا السؤال كأنـه يقرأ ما فى صدره، بل هو يقرأ ما فى صدره فالشيخ نصـر الدين رجل مشهود له بالكرامات .

إنها تقبل يديك يا سيدنا .

إن لها جمالا يجعلها تنتمى إلى الملائكة .

صمت الشيخ قليلا ثم قال بلهجة منذرة :

- ملاك فى عالم مليء بالشياطين من بنى الإنسـان. إنها أمانة فى عنقك يا عامر اليتيم. فحافظ على هذه الأمانـة ما وسعك ذلك .

ألقت كلمات الشيخ شيئا من الفزع فى قلب اليتـيم. إن هذا الرجل الصالح يحذره من وقوع شيء ويريده أن يحترس منه منذ الآن . ولكن من أين لى أيها الشيخ ببصيرة كبصيرة الأولياء والصالحين من أمثالك أدرأ بها الخطر قبل وقوعه .

رأى الشيخ يذهب فيطفئ أنوار المسجد ثم يعود وقـد عم الظلام الدنيا. خاطبه من خلال الظلام قائلا :

- لتدع لها فى صلاتك بالفوز والنجاة .

(٨)

يكتسب المقهى الوحيد فى القرية قيمة أثرية لما يحتويه من لوحات مرسومة على الجدران لفرسان يركبـون الخيـل ويمتشقون السيوف ونساء يحمل بعضهن أصـص الزهـور وعناقيد العنب وبعضهن الآخر العقارب والأفاعى والجعارين الذهبية ورجال لهم أجنحة يقفون فوق جبال يغطيهـا الـثلج ويتحاربون بالنيازك والشهب وطفل مجنح يضع فى جعبتـه سهاماً ويستعد لإطلاق إحداها من القوس والوتر، رسـومات كبيرة تغطى الجدران الأربعة، بهتت ألوانها وأصاب التشقق بعض أجزائها ولكنها ظلت تمنح المقهـى جـواً أسـطورياً وتحتفظ بشخصيته المتميزة التى تعبق بعبير الذكريات القديمة

عندما كان المكان نادياً يؤمـه ضـباط الحاميـة الإيطاليـة ونساؤهم، تقام فيه حفلات الرقص وتصدح فيه الموسـيقى، واستمر حانة يملكها أحد الإيطاليين حتى انتهاء عهـد الإدارة البريطانية وخروج الإنجليز وعساكرهم من القرية، وبـرغم أن الحانة القديمة أصبحت الآن مقهى لا يبيـع المشـروبات الكحولية علناً إلا أن ما يصنعه بعض أهل القرية من خمور النخيل ظلت تجد طريقاً لتصريفها عن طريق المقهى، وبرغم أن ملكيته قد آلت إلى سلطان الذى كان يعمـل نـادلاً مـع صاحبه الإيطالى فإنه استمر يحمل شيئاً من سمعته القديمـة كما استمرت صورة الفتاة ذات الشعر الذهبى التى تعلن عن وجود النبيذ الإيطالى معلقة بمدخل المقهى تقدم صحبة نسائية لرواده، وظل الكبار فى السن من أهل القرية يتجنبون الذهاب إليه ويلومون أبناءهم الشباب إذا قضوا أمسياتهم به وينعتونه دائماً بأنه »وكر الأشرار«، إلا أن هذا الاتهام لم يمنع الشباب من الذهاب إليه وإن ظل أغلب أهل القرية يفضـلون عقـد جلساتهم فى ساحة السوق وأمام الـدكاكين والـذهاب فـى أمسيات الصيف إلى غابة النخيل بأطراف القرية، وكان يؤمه مع بعض شباب القرية العمال الغرباء الـذين يـأتون مـع

شركات البناء أو مـع الشـركات الأخـرى التـى تجـوب الصحراء، يلعبون الورق ويسهرون به إلى ساعة متأخرة من الليل.

كان مطرب المذياع يترنم بأغنية خفيفة مرحـة ومـن خلفه جوقة النساء تردد مقاطع الغناء، قال شعبان وهو يتمايل مع الأغنية ويتخيل عالماً بهيجـاً يمتلـئ بنسـاءٍ حاسـرات الصدور:

- يا ليتنى كنت معكن!

واغمض عينيه متنهداً كأنه يستدعى قوة خرافية كـى تنقله الآن فوراً من عالم خلا من البهجة والنساء، إلى عـالم الأغنية الملىء بالنهود والسيقان والرقص والموسيقى والغناء، ضحك عاشور، زميله فى لعب الورق وزميله أيضـاً فـى التسكع بلا عمل بعد أن كسدت مهنة العتالين ووجدا نفسيهما لا يعملان لأكثر من ساعات قليلة كل أسبوع وقال لصاحبه:

- ولكن لعنة الشيخ نصر الدين ستظل تطاردك حتـى لو خبأت نفسك تحت فساتين المغنيات.

كان شعبان نادما لأنه شارك عاشور فى تمثيـل دور الغولة التى ارعبت شيخاً صالحاً مباركاً يحمل لـه التبجيـل

والتقدير، ولكن زميله كان يرى فى الأمر مـدعاة للضـحك والتسلية فمضى متباهياً يكشف لرواد المقهى أسـرار تلـك اللحظات العصيبة.

- لقد كاد ذراعى ينفصل عن كتفى. . أوجاعه لا تزال تؤلمنى حتى الآن، لقد مال هذا الخنزير بالحمل كله نحـوى، كان سكراناً يكاد يسقط فوق الأرض لا يفعل شـيئاً سـوى معاونتى فى إصدار ذلك الطنين الذى أرعب الشيخ.

بدأ عاشور يحكى القصة، سعيداً بما يثيره حوله مـن اهتمام، فى حين ظل زميله يسأله أن يبحث عـن موضـوع آخر لأنه لا يرى مفخرة فى أن يعتـرض الإنسـان شـيخاً صالحاً ذاهباً لأداء صلاة الفجـر، كـان يؤلمـه أن الشـيخ سيعرف بالموضوع بعد أن كشف زميلـه السـر، وسـوف يغضب منهما غضباً شديداً، فبأى وجه سيلاقيه بعد اليوم وهو الرجل الذى كان دائماً يشمله بعطفه ويلـح عليـه بـالعودة للصلاة التى هجرها، يريد له الخير والرحمة، لم يكن ليفعـل ما فعله لو لم يسكره عاشور من خمر النخيل حتـى مطلـع الفجر، ثم سحبه من يده دون أن يمنحه فرصة ليتدبر الأمر.

- برغم الظلام وبرغم الستارة السوداء التى التحفنا بها فقد كنت أستطيع أن أتبين من خلال الشقوق رعـب الشـيخ وهو يقف مرتعشاً كعرف شجرة تعصف به الرياح، كانـت أسنانه تصطك خوفاً وذعراً وهو يحاول تلاوة بعض الأدعية الى لا يطاوعه الارتعاش على قولها، كنت أريده أن يختفـى سريعاً فقد أعيانى ذلك السلم اللعين.

جاء رواد المقهى يسحبون كراسيهم ويتحلقون حولـه ينصتون بانبهار إلى حكايته، إلا أن شعبان سرعان ما وجـد حيلة يصرف بها الأنظار عن رفيقه الأرعن.

- لقد رأيت اليوم جميلة.

صار الناس لا يتحرجون من ذكر اسمها مجرداً بـدل الإشارة إليها بابنة اليتيم كما كانوا يفعلون سابقاً، لقد دخلـت حياتهم وصارت معلماً من معالم قريتهم ولم تعد هناك حاجة لنسبتها إلى أب أو عائلة، لم يكن شعبان قد رأى جميلة هـذا اليوم، ولكنه يدرك ما للحديث عنها من سحر وسلطان علـى قلوب الناس، وجد أن الطريقة الوحيدة لإسكات غريمه هـى أن يلقى باسم جميلة فى هذا الجمع وينتظر ما يحدثه من أثر،

أداروا رؤوسهم إليه ينتظرون شرحاً، لم يكن قد أعـد شـيئاً يقوله، فظل صامتاً يبحث عن تكملة للقصة، استعجلوه قائلين:

- أين رأيتها؟

- رأيتها عند زيارتها لأمى سعيدة.

لم يكن غريباً أن تذهب جميلة إلـى زيـارة جـارتهم القديمة فهم يعلمون أن الزنجية العجوز تعاملها مثـل ابنتهـا ويعلمون أن جميلة لا تعرف بيتاً آخر تـذهب إليـه عنـدما تخرج من بيتها غير بيت أمى سعيدة، فما غرابة أن يراهـا شعبان تذهب إليها، بدا الفتور واضحاً فى وجـوههم، رآهـم يلتفتون عنه ويعودون مرةً أخرى يعلقون أبصارهم بعاشور، فتش عن شيء سريع ينقذ به الموقف:

- كانت أمى سعيدة تعلمها السحر.

أحس بالسعادة لهذه القصة المثيرة التى اهتدى إليهـا، أدرك أنها فعلت فعلها عندما رأى العيون والأفواه تتحول إلى دوائر باتساع فناجين القهوة اندهاشاً واستحساناً، لم تكن أمى سعيدة تتعامل بالسحر ولكن أهل القرية عنـدما رأوا امـرأة عجوزاً تعيش بمفردها صحبة كلبها ودجاجها وتملأ خرابتها بالأحواض التى تزرع بها زهوراً وأعشاباً تسـتعملها فـى

صناعة الشاى والعطور والأبخرة أو تعصر منها شـرابًا أو دواء، وتعرف كغيرها من عجائز القرية فرش المنديل وخط الرمل على سبيل التسلية ومحاولة التكهن بالمستقبل، ذهـب فى ظنهم أنها منذ أن هجرت الغناء فى الأعـراس صـارت تعيش على السحر، وتستعمل هذه الأعشـاب الغريبـة فـى أغراض الشعوذة، وبرغم أنها كانت تنفى عن نفسـها هـذه التهمة وتطرد غاضبة كل من يأتى راغبًا فـى أن يسـتعين بسحرها على قضاء أمر من الأمور، وهجرت بسـبب ذلـك فرش المنديل وخط الرمل، إلا أن الشائعة ظلت لاصقة بهـا لفترة طويلة، ثم فقد الناس مع الزمن اهتمـامهم بهـا فجـاء شعبان هذه الليلة يوقظ الشائعة القديمة ويمنح القرية سـاحرة جديدة هى جميلة.

قال أحد الجالسين وكأنه قد وجـد تفسـيرًا لمعضـلة عظيمة حيرته طوال عمره:

- كنت دائمًا أستغرب لهذه العلاقة الغريبة التى تربط الفتاة بالزنجية العجوز.

واصل شعبان سرد حكايته:

- كنت قد ذهبت إلى بيت أمى سـعيدة لآخـذ منهـا البيض كما أفعل بين الحين والآخر إلى الدكان الـذى يبيعـه لها، وما أن وصلت إلى الباب حتى سمعت حديثاً يدور بينها وبين امرأة أخرى عـن شـرتوخ وشـمبروخ وشـمهروش وغيرهم من ملوك الجان، فعدلت عن الدخول ونظرت مـن شقوق الباب فرأيت معها جميلة وبين أيـديهما ديـك أسـود مذبوح يقرآن عليه الأوراد، رجعت دون أن أفصح عن نفسى لكيلا يكتشفا أمرى ويحيلانى بقوة السحر إلـى كلـب مثـل عاشور.

قال عاشور وقد أغضبه أن يرى زميله يسـرق منـه اهتمام الناس:

- ولماذا يحيلانك إلى أى شىء آخر وقد سخطك اللّـه منذ البداية قرداً.

(٩)

أخذ العيد سلة مليئـة بالفاكهـة وأكيـاس الحلـوى والمشروبات المعلبة ولعب الأطفال وذهب مع بداية المسـاء يحمل الهدية إلى بيت اليتيم، كان قد أرسل صبياً يراقبه لـه وعرف أن اليتيم لم يعد إلى بيته وأن زوجته خرجت لتشرب الشاى مع جارة لهم، وقف لحظة يستلقط أنفاسه قبل أن يـدق الباب ويرى جميلة تخرج بنفسها لتفتح له، أحس بالارتبـاك والحرج وفكر أول ما فكر فى الهروب كأن جمالها أوقع فى قلبه الرعب،سأل بسرعة عن والديها دون أن ينتظر إجابتهـا قال أنة جاء يبارك لهما الانتقال إلى البيـت الجديـد،تهنئـة متأخر ولكن عذره أنة مقيم بالمدينة،انطلق مسـرع الخطـى عائداً إلى بيته ، اكتشف وهو يبتعد عن بيت اليتيم بان سـلة الهدايا لا تزال فى يده ،سأل أحد الأطفـال أن يعـود بهـا إليها،ولم يجد رغبة فى العودة إلى البيـت فـذهب مملـوءا بالانبهار إلى غابة النخيل التى تعود كلما جاء إلى القرية أن يأخذ كتاباً ويذهب إليها.

ركضت إلية أنسام الربيع المحملة بعبيـر أعشـاب الصحراء تحرك فى قلبه الحنين لمعانقة المرأة الحلم،أرادهـا أن تأتى الان فتجلس بجواره وتتأمل النخيل وتراقب غـروب الشمس وتمنح الأشياء التى حوله دلالة ومعنى، أرسل فكـرة يبحث عن امرأة بين نساء المدينة ممن يعرفهن ويلتقى أحياناً بهن فى دارة على البحر يسميها رفاقه ((مغارة الحلم)) لكـى تأتى وتقاسمه ألان وحدته، ولكن انبهاره بالفتاة التى رآها منذ لحظات مسح من ذهنه صـورة النسـاء الأخريـات، رأى صورتها تغطيها أبخرة الحلم فيعجز عن تبين ملامحها، قـال يسألها:

-لماذا تسرقين أمواج البحر وتخبئينها فى شعرك؟

-لم أر بحراً فى حياتى

-لا تنكرى، لقد بنيت هذه القرية على البحر،لتكون بناء لسفن تأتى من بلاد الاساطير،لكنك أنت مـن جـاء وسـرق أمواجه فتحول البحر إلى رمال.

تذكر ضاحكاً أنة لم ير شعرها، كنت تغطية بمنـديل أزرق، لعل المنديل هو الذى جاء بصورة البحر إلى ذهنـه، إن مثله ترتديه كثير من النساء فلماذا يتحول عندما ترتديـه

خميلة إلى شئ يرسخ فى الذهن ويوحى بالسفن وموج البحر والمدن الأسطورية.ولماذا تغيب ملامحها وتغطية أبخرة الحلم فلا يبقى غيـر هـذا المنـديل الأزرق الـذى غطـت بـه شعرها،كيف إذا أحس وهو يراها بإنه فـى تجربـة جمـال جديدة،مبهرة،تمسح صور كل النساء مـن ذاكرتـه، رأى أن أفضل سبيل هو استرجاع تلك اللحظات القصيرة عندما قابلها ويديرها ببطء فى عقلة كمن يدير شريطاً سينمائياً بالحركـة البطيئة،لعلة يهتدى لهذا الجديد المبهر فى جمالها، كـان أول من أسترعى انتباهه عندما وصل إلـى بـاب بيتهـا حـدوة الحصان المعلقة فوقه، أنة يذكر الآن أن هذا الشيء الضـئيل الذى لا قيمة له إلا عندما يكون مضروباً فى حافر الحصان، والذى يعتقد البسطاء والسذج فى قدرته على جلـب الحـظ ودفع الشر، كان له دور مهم فيما حدث، فقد بقى للحظـات يتأمل هذه الحذوة أو لعلة لا يتأملها وإنما يفكر وهـو ينظـر إليها قبل أن يطرق الباب إذا كان حقاً يريد أن يـرى أبنـه اليتيم، لقد جاء مدفوعاً برغبة أكيدة لرؤيتها ولكنـة مـا أن وصل إلى باب بيتها حتى تلاشت تلك الرغبة وحل مكانهـا خجل ساحق من نفسه ومن تطفله على حرمات البيوت بهـذا

الشكل، ماذا لو كان والدها قد عاد من عملـة وجـاء يفـتح الباب،لعلة سيحمل هذه المرة خنجراً يطارده به، ثـم مـا أن يراها أو لا يراها بحيث يتحمل فى سبيل ذلك عداوة والدها، ثم حتى لو كان حقاً يريد أن يراها،ألم يكـن أيسـر لـه أن ينتظرها عند ذهابها إلى المدرسة ويعبر الطريـق بجوارهـا فيرضى فضوله لرؤيتها ثم يعود بدلاً من اختلاق هذا العـذر المضحك وإرسال العسعس لمراقبة بيتها والتخطـيط للأمـر كأنة سارق يريد القيام بعملة سطو، كانت هذه الأفكار تمـلا ذهنه وكان قد قرر أن يعود من فوره، ولكن حذوة الحصـان المعلقة بحائط الباب هى التى أبقته، أشاعت فى نفسه التفاؤل وأيقظت فى نفسه الرغبة فى اللعب أو العبث، ها هم النـاس يتقون أهوال الدهر ومصائبه بحـذوة الحصـان، فلمـاذا لا يستخير بها فى قضاء مهمة صغيرة كهذه،وعابثاً دق البـاب وهو ينظر إلى حذوة الحصان يسألها ألا تتخلى عنـة، ورأى أول ما رأى زرفه البحر وأحس أول ما أحس بـأن رؤيتهـا ليست أو لعباً إنما شئ يحدثه ظهورها فى نفسه كتلك النـار التى يشعلها الفجر فى الأفق، لم يكن قد هيأ نفسـه لمعيشـة تجربة جمال كهذا الجمال، فدس رآسة فى صدره غير قـادر

للوهلة الأولى أن ينظر إلى وجهها،لاشك أنة كـان سيضـع عينية فى عينها ويملا بصرة من ملامحها وقـد يغازلهـا أو يسألها موعداً لو أنة قابلها فى ظروف غير هـذه الظـروف وفى مكان غير هذا المكان، ولكنة جاء مهيأ لأن يرى فتـاة من فتيات

هذه القرية، وجمالاً ينبت فى تربتها وينتسـب إليهـا وتحكمه شروط الجمال فى بيئة فقيرة جفت مياهها وزحفـت الرمال على حقولها، تمتلـئ بالغبـار والـذباب وأمـراض التراخوما وفقر الدم،ولكنة رأى جمال مقطوع الصـلة بمـا حوله ،كأن سحابة جاءت وهبطت بها مـن مكـان وزمـان أسطوريين، أدهشه ما رآه وقال بسرعة وارتبـاك الكلمـات التى وجب قولها وأقفل مسرع الخطى عائداً وقد سـها عـن تقديم سلة الهدايا إليها ونسى أن ينظر إلى حـذوة الحصـان شاكراً عونها ومساعداتها.

قرر وهو يرى نفسه يطوف بـين أشـجار النخيـل وحيداً، أن يضم طيفها بين ذراعية وأن يعتذر لها عن هروبه المخجل من جمالها وعجزة عن النظر فى عينيها مؤكداً لهـا

بأنة سيعوض هذا التقصير فى مناسبة أخرى، سـرت فـى جسمه نشوة الالتصاق بها وارتفع خلفة صوت رجل يقول:

-أبقى ا   علينا عقولنا.

كان عمران عامل المخبز يحمل فأساً فـى طريقـة للبحث مع غروب الشمس عن الكنز المخبأ فى مكان قريـب من أطلال القصر الروماني، اختفت خميلة، وحـل مكانهـا إحساس بالخجل عندما أدرك أن الرجل قد رآة يكلـم نفسـه ويضم إلى صدره امرأة مصنوعة من الهواء،

-لقد أصابتك النخلة المجنونة بالعدوى.

كان يقف بجوار أطول نخلة فى الغابة،سميت المجنونة لأنها أول شجرة نخل تطر ح ثمارها عندما يحـين موسـم البلح،وتبقى عراجين أخرى لا تنضج إلا بعد أن ينتهى البلح من أشجار النخيل الأخرى، بها يبدأ الموسم وبها ينتهي.

رأى العيد فى التسمية التى أطلقوها عليها إجحافاً فى حق هذه النخلة المباركة ورأى أن منطق القرية يحكمه مزاج غريب يعتبر هذا العطاء السمح الكريم الـذى تقدمـه نخلـة تفوقت بخيرها على بقية أشجار النخيل، جنوناً.

تذكر جميلة وما يقولونه عنها،أحس بـالحنين إليهـا وصمم على أن يتدبر لقاء معها مرة أخرى وأن يملا بصرة من عينيها اللتين لم يقو على النظر إليهما فى المرة الأولى.

ها هو عمران يسميه مجنونا ولكن ماذا يقول لرجـل أفنى شبابه فى حفر الأرض الخلاء بحثاً عن كنز لا وجـود له،قال لكى يغيظه:

-ما جئت إلى هنا إلا بحثاً عن الكنز، لقد اهتديت إلى مكانه ، وسأنتظر مجيء الليل لأذهب وأعود به إلى بيتي.

ضحك عمران ساخراً، لأنة يعرف أن لا أحـد فـى الدنيا بإمكانه أن يعثر على الكنز،فهو موعود به منذ أن دفنوا هذا الكنز تحت التراب،تركة ومضى غير عابئ بكلامه، فى حين ظل العيد واقفاً يفكر فيما إذا كان حقاً قد أهتدى إلى كنز هذا المساء.

(١.)

السحر إذن. . وهل هناك تفسير آخر للظواهر العجيبة التى تحدث فى الكون غير قوة السحر وقدرته الخارقة علـى تحويل التراب إلى ذهب، والفقر !لى غنى، والقبح إلى جمال

ووسامة، ليس غريبا أن تكون هذه الفتاة المجبولة من طـين البشر وجمر الشياطين، ساحرة تسخر القوى الخفية المجهولة لخدمتها، وإلا كيف يمكن لعائلة منسية تسكن الخرائب وتعيش على الصدقات أن تصبح بين يوم وليلة إحدى أكثر العائلات وجاهة وغنى، وكيف لرجل أبكم درويش لا يعـرف كيـف ينطق اسمه مثل عامر اليتيم، أن يتحول من البكم والبلاهـة، إلى الفصاحة والذكاء، ويلحق التغيير وجهه الذى عششت فيه الكآبة فيتحول من شيء يشبه كرناف النخيل إلى وجه رجـل تربى على موائد الملوك، وجد الناس فى الشائعة الجديدة التى صنعت من جميلة ساحرة تتحكم فى ملوك الجن، تفسيرا لكل هذه التحولات التى طرأت على عائلة اليتيم وسببت لهم الكدر والحيرة، تلقفتها النساء بحماس عظيم وصرن يذهبن من بيت إلى بيت ويجعلنها موضوع أحاديثهن حول مواقد النار عندما يعقدن جلسات الشاى، ويجدن تسلية فى ترويجها والإضـافة إليها، وتختلق الواحدة منهن عذرا وتذهب إلى بيـت اليتـيم لتتأكد بنفسها من تعامل جميلة بالسحر، وما أن تراها تداعب قطة أو تطعم دجاجة حتى تأتى إلى جاراتها قائلـة. - لقـد رأيتها اليوم تتحدث إلى القطة، إنها تعرف لغة الدجاج أيضا.

وتدعى إحدى النساء الجالسات عدم التصديق، فتؤكد المـرأة قائلة: - أى وا ، لقد رأيتها بنفسى تأمر الدجاج فيطيعهـا. وزاد الأمر فى أذهانهن تأكيدا أن جمعة الـدرويش أصـابته نوبة من الهستيريا والجنون فصار يلهج باسم جميلـة أينمـا ذهب ويتجول فى شوارع القرية صائحا: - جميلة، يا ويلـى من جميلة. ويأتى إلى المسجد ويقف مع المصلين خلف الإمام لأداء الصلاة، وما أن يهم الإمام بالركوع قـائلا "ا أكبـر" حتى يرتفع صياح الدرويش فى وسط الصلاة: - جميلة، يـا ويلنا من جميلة. ويضحك من يضـحك، وتبطـل الصـلاة، فيطردونه من المسجد، ويجدونه جالسا أمام ضريح سيدى أبو قنديل يناجى جميلة ويتحدث إليها حديثا يمتد إلى اخر الليـل، فيسألونه فى اليوم التالى عن سبب حديثه مع نفسه، فيقول إن جميلة كانت معه، وإنها تأتى متخفية لزيارتـه كـل يـوم، وبالرغم من أن الرجال يأخذون كلامه مأخذا هازلا فهو ليس إلا دليل عته وجنون، إلا أن بعض نساء القرية وجدن فيـه تأكيدا على أن جميلة تملك من قوة السحر ما يجعلها قـادرة على أن تتخفى وأن تطوف القرية دون أن يراها أحد، وأنها بلا شك قد ٢ حضرت بعض مجالسهن واستمعت إلـى مـا

يقلنه عنها، وأنها بعد أن سلبت من الرجال عقولهم ' ســتأتى وتنزل عقابها بالنساء، وترفع الواحدة منهن يديها إلى أعلــى قائلة فى خوف ورهبة: - يا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف .

(١١)

فى اليوم التالى لزيارته الأولى إلى بيت اليتيم، وفــى وقت يماثل ذلك الوقت، سار العيد فى طريقه إلى بيت اليتــيم مرة أخرى، لقد تعمد أن يهرب هذا الصباح من والدها الذى عرف أنه يبحث عنه، وعندما جاء المساء وأحس بالحنين إلى رؤيتها، وجد أن اليتيم قد أعطاه مبررا مناسبا للذهاب إلــى بيته بحجة أنه ما إن علم بأنه يبحث عنه حتى جــاء بنفســه لمعرفة السبب. رأى جميلة يغمر وجهها الاندهاش وهى تفتح الباب، سمع صوتا مفعما بالعذوبة يقول أهلا، سرت فى دمه نشوة الارتحال إلى مدينة الحلم، وقال وهو يتأمــل أهــدابها الطويلة: - علمت أن والدك يريدنى فجئت أبحث عنه. - لقد خرج إلى صلاة العصر. كان العيد قد تأكد قبــل مجيئــه أن والدها غادر البيت فقال كاذبا: - سأذهب إذن إلى المســجد للبحث عنه. وجدها لا تزال واقفة لم تقفل الباب، بحث عــن

موضوع لحديث يطيل عمر هذه اللحظة التى سـيجعلها زادا يعيش عليه لأيام أخر. وجد نفسه يقول: ، - وكيـف حـال الدراسة؟ فى أحس بثقل السؤال وسخافته، ليكن حديثه معهـا عن " قطعان السحب التى ترعى فى حقول السماء، أو عـن الغزلان التى تركض الصحراء تبحث عن منبع الشـمس، أو عن نضارة العشب أو نعو أوراق الورد أو كبرياء الأشجار، أو عن أى شيء آخر فى الكون له بهجة هذا البهاء وروعـة هاتين العينين، وجدها تهتم بسؤاله و تبتسم قائلة:

- سالما الواجبات المنزلية التى لا تنتهى.

ولكن لمشهد الغروب بين أشجار النخيـل سـحرأ لا يقاوم، فما حاجة امرأة مثلك للاعتناء بأشياء كهـذه، دعـى الواجبات المنزلية وحوائج البيت والمطبخ، وتعـالى نعـانق المدى ونراقب الشمس التى أعياها الرحيل وهى تشد عرباتها فوق الجبال البعيدة وتمد يد" - واهنتين تنشر بهمـا غلالـة الأسى الجميل وتبارك بهما الأشجار والبشر، قال مجاملا: - سنراك قريبا أستاذة بإذن ا . قالت ضاحكة: - كان ا فـى عون الأطفال الذين سأعلمهم. ، ظهر على البعد شبح رجـل

يعبر الطريق، مدت إليه يدها على عجل، حاول أن يبقى يدها فى يده ولكنها استلت يدها ضاحكة وأقفلت الباب .

جلس فوق مرتفع يطل علـى الفضـاء وأشـجار النخيل، أقلت صوته بأغنية تتحدث عن ابنة الشمس التى تمد ضفائرها الذهبيتين كل مساء إلى عشيقها لكى يتسلق صاعداً إلى السماء، جاءت جميلة وجلست بجواره، بـدا الكون جميلاً والحياة أنشودة عذبة لا يعكر صفوها حتمية أن يموت الإنسان، قال يسألها:

ـ لماذا لا يعيش الإنسان ألف عام؟

ـ لا تكن نهماً، يجب أن ترضى بمائة عام .

ـ إن مائة عام لا تكفى لآن أخبرك بكل الأشياء التى أريد أن أقولها لك.

ـ لقد أضعت وقتا كثيرا، فلماذا لا تبدأ الآن؟

تذكر أن والدها يبحث عنه لينشب معركة معـه ويمنعه من رأيتها فجاء يسألها عن وسيلة يكسب بها رضاه، لم يسمع منها رداً، ونظر فلم يجـد بجـواره أحداً، ضاع الوهم وجاء الواقع، رأى على البعد بدويا ينزل الأمتعة عن ظهر جمله ليقيم الليلة بين أشـجار

النخيل ن تذكر أن حياة البادية أقل تعقيدا من مجتمع القرية، وسبل الاختلاط أكثر يسرا بين رجال ونساء النجوع، أدهشه أن الحياة فى تدرجها مـن مجتمـع البداوة إلى مجتمع المدينة تأخذ عبر مرورها بمجتمع القرية شكلا ممسوخا، خسر تسامح البادية ولم يصل بعد إلى تحرر العلاقات فـى المدينـة، رأى قبالتـه النخلة المجنونة ترفع رأسها فوق بقيـة الأشـجار، فأيقن أن الكون ملئ بالأسرار التـى تمتنـع عـن التفسير، ذهب إلى البدوى وقد أحس بحاجته إلى أن يتحدث إلى هذا الرجل الذى عاش فى بيئة أكثر نقاء من بيئته، جاء البدوى بوعاء اللبن وحبـات التمـر وسأله أن يشاركه الطعام، راوده شعور بلهـو فقـال للبدوى ً:

- هل تعرف عامر اليتيم ؟
- من أى قبيلة هو؟
- لا قبيلة له، رجل مقطوع عن أهله.

عبر البدوى عن نفوره من رجل لا أصل لـه ولا قبيلة :

ـ لا أعرف رجلا بهذا الاسم ولا أريد أن أعرفه.

ـ كنت أريدك أن تصالح بينى وبينه .

ـ كيف أصالح بينكما وأنا لا أعرفه ؟

ـ لا يهم، يكفى أن تذهب إليه وتقول له أنك شيخ قبائل البدو، فهو رجل لايحب معاشرة الشيوخ ولا يرد لهـم طلباً .

ـ ولكننى لست شيخاً.

ـ كن شيخاً مرة واحدة فى حياتك.

ضحك البدوى عندما أدرك أن ارجل يتحدث هازلا .

ـ لماذا يخاصمك؟

ـ ظننا منه أننى أرى علاقة بابنته.

ـ لا تلعب ببنات الناس.

ـ إننى لا ألعب .

ـ هل تقدمت لخطبتها؟

ـ لم أتقدم.

ـ إذا كنت لا تلعب فيجب أن تتقدم للزواج منها.

الأمور محددة ومحسومة فى عقل هذا البدوى، نعم، لماذا لم تخطر هذه الفكرة على باله من قبل، لماذا لا يطـرق

البيوت من أبوابها ويتقدم فى وضح النهار إلى والدها طالبـا يدها، ليمتنع إذا شاء عـن قبولـه، فسـوف يسـوق عليـه الوساطات حتى يلين ويرضى، إنه يدرك الآن أن جميلة أيضا تريده، وسيكون اتصاله بها، وذهابه إلى بيتها، أمرا مشروعا لا يثير حفيظة أحد، ترك البدوى يطعم جمله، وعاد مسـرعا إلى القرية وقد اهتدى إلى ما يجب أن يقوله لعامر اليتيم.

(١٢)

تميز المتصرف بزيّه الجديد على بيئة القريـة، جـاء يرتدى البذلة الإفرنجية وربطة العنق ويضـع فـوق رأسـه طربوشاً، ولا يتخلى عن هذا المظهر صيفاً وشـتاء، كانـت القرية لا ترى الطرابيش إلا فى المناسبات الوطنيـة التـى يزورهم فيها وفد حكومى كبير مثل المرة التى زارهم فيهـا الوالى منذ سنوات كثيرة مضت لحضور إحدى المهرجانات الانتخابية أو المرات الأخرى التى جاء فيها وزراء لافتتـاح بناءٍ جديد مثل المدرسة أو المستوصف، وبخلاف غيره مـن المتصرفين السابقين الذين كانوا كباراً فى السن لا يعرفـون البذلة الإفرنجية ولا يحتملون الإقامة فى القرية لأكثر من عام أو عامين ثم يطلبون الانتقال هرباً مـن حرهـا ورياحهـا

ومياهها الجيرية التى تصيبهم بداء الكلى، فقد كان هـو فـى الأربعينات من عمره، أمضى معهم أكثر من ثلاث سنوات لا يبدى تذمراً ولا شكوى ولا تصيبه مياههم بداءٍ أو علة، ومـا أن رأى أهل القرية طربوشاً يقيم بينهم ويطـوف الشـوارع مثلهم حتى استبشروا خيراً، فها هى الحكومة أخيراً ترسـل لهم واحداً من رجالها، يعتمر هذا الشيء الذى لم يـره أحـد منهم إلا فوق رؤوس الولاة والوزراء، واعتبروه فألاً طيبـاً على القرية خاصةً وأن السيد المتصرف جاءت تسبقه سمعة كبيرة فى الحنكة والدهاء، اكتسبها منذ أن عمل رئيساً للجان الانتخابية التى أثبت فيها ولاءه القوى للحكومة وقدرته علـى تنفيذ أوامرها وبسط هيبتها فى أحلك الأيام وأكثرهـا تـوتراً وعصبية، فحاز بذلك ثقة المسؤولين الكبار وصار نافذ الكلمة فى الدوائر العليا.

ودخل الطربوش قاموس القرية دخولاً مشرفاً كريمـاً، فهو لا يذكر إلا مقروناً بالهيبة والإكبار التى لا ينال منها إلا تزيد بعض الساخرين والماكرين الذين يبالغون فى الاحتفـاء بالطربوش ويقدمونه على المتصرف نفسه كأن يقول الواحـد منهم:

- لقد رأيت اليـوم الطربـوش ومـن تحتـه السـيد المتصرف.

ولقد رأى الناس الطربوش ومن تحته السيد المتصرف يكثران من زيارتهما إلى بيت عامر اليتيم فى الأيام الأخيرة، بدا غريباً أمر علاقة تنشأ بين ممثل الحكومة ورجل بسـيط من أهل القرية مثل عامر اليتيم، ولكنهم سرعان ما يتذكرون أن الحظ الذى أصاب اليتيم ورفع من أقداره ترافق مع مجىء المتصرف إلى القرية وافتتاحه للمدرسة الجديدة التى ذهبـت إليها ابنته، وأن الطربوش كان فأل خير على اليتيم أكثر من أى أحد سواه، فلا غرابة إذن أن تنشأ مثل هذه العلاقة، وأن يختار المتصرف بيته من بين كل البيـوت مكانـاً مفضـلاً لزياراته، برهاناً عظيماً على ما وصل إليه عامر اليتيم مـن جاهٍ ونفوذ، وما للشمس الصغيرة التى تشرق بين جدران بيته من سحر على العقول والقلوب.

كان المتصرف قد رأى جميلة، سمع الحـديث الـذى يتناقله عن جمالها، وقاده فضوله إلى مدرسة البنات لرؤيتهـا بحجة أنه يقوم بجولة تفتيشية؛ وما أن رآها حتى أدرك أنهـا شجرة ورد تنبت فى صحراء الرمال، وأنه لابد من يد حانية

تتعهدها بالسقاية وتمسح عن أوراقها التراب وتدرأ عنها خطر الرمال، وقرر بينه وبين نفسه أن يتولى هذا الدور، أوصى بها المدرسين خيراً، وعرف أنها تنتمى إلى عائلة فقيرة تسكن الخرائب القديمة فمنح والدها بيتاً، ثم تلى البيت العلاوة والترقية فى العمل، جاء إليه والدها شاكراً فأبلغه صادقاً بأنه لم يقم بغير الواجب، فقد كان يراه واجباً أن تلقى فتاة فى مثل جمالها معاملةً متميزة عن بقية الناس، لقد أحبها اللّه وحباها بكل هذا الحسن، فكيف لا يحب هو أيضاً من أحبها اللّه، لم يكن فى ذهنه غرض أو يبغى لنفسه منفعة أكثر من المتعة التى يحس بها وهو يخدم هذا الجمال، ثم تدريجياً صار يرى نفسه مهموماً بمستقبلها والمصير الذى ستؤول إليه فتاة مثلها فى قرية وسط الصحراء، لو كانت فى بيئة أكثر حضارة وتقدماً لأقيمت من أجلها المهرجانات ولتسابق الأغنياء لإغراقها بالهدايا والهبات ولأصبحت صورتها على غلاف كل مجلة ولجاء أبناء الملوك يطلبون يدها، وكان يتألم عندما يرى أن كل هذا الجمال سينتهى به المطاف إلى أن يدفن فى بيت واحد من رجال هذه القرية الذين لا يعرفون

قيمته ولا يستطيعون خدمتـه، ولا يفرقـون بـين المـاعز والنساء.

إن فكرة الزواج من امرأة أخرى يختارهـا بذوقـه لا بذوق الآخرين فكرة تلح على ذهنه منذ اليـوم الأول الـذى رأى فيه وجه المرأة التى ساقتها الظروف لتكـون زوجتـه والتى لم يرها إلا ليلة العرس، لم يجد فى نفسه مـيلاً إليهـا ولكنها كانت طيبة، مطيعة، تقضى له حوائجه، وتسهر على راحته، راضيةً بدور الخادمة، فلم يجد فى نفسه قدرة علـى طلاقها ولم يجد فى وقته وقتاً للبحث عـن امـرأة يختارهـا بنفسه لتكون زوجة ثانية، هرب من البيت وأعطى كل وقتـه وفكره للوظيفة، ووجد فى تقدير المسؤولين لعمله تعويضـاً عن الحياة البيتية السعيدة، ولكنه كان دائماً يعرف أنه لا يريد خادمة تشاركه حياته وإنما امرأة، امرأة بكل ما تحمله هـذه الكلمة من دلالات، امرأة تمتلئ بالوعد والنداء وشهوة الحياة، وغيمة تهطل بغيثها على أعشاب عمره اليابسة فتعيد إليهـا نضارتها واخضرارها، امرأة تكون بحق وصـدق شـريكةً لحياته يسكن إليها، ويغترف الفرح من عينيها، ويستمتع كـل مساء بالسياحة فى حدائق جسمها الغناء، إنه فى مقتبل العمر

ما يزال، لم يصل السن التى يصبح فيها الزواج من امـرأة أخرى مسألة تبعث على السخرية والرثاء، العمـر يمضـى، والفرصة التى تأتى لا تعود مرةً أخرى، وشجرة الورد التى قرر حمايتها عليه ألا يتركها لعواصف الصحراء تعبث بها، يجب أن ينقلها إلى بيته ويحرص العمر كله على أن يكـون بستانياً يعزق أرضها ويتعهدها بالعناية والرعاية إلـى آخـر العمر.

قال المتصرف يخاطب عامر اليتيم عندما ذهـب مـع المساء لزيارته:

- تعلم أن انتخابات مجلس النواب سـيحين موعـدها آخر هذا العام، وتعلـم أن مولانـا يهـتم شخصـياً بهـذه الانتخابات.

استغرب عامر اليتيم أن يفتح المتصـرف موضـوعاً كهذا يعرف أن اليتيم لا يفقه فيه شيئاً، ولكنه وجد اسم الملك يذكر أمامه فأحس بالرهبة والخوف وبادر قائلاً:

- حفظ اللّه مولانا ورعاه.

واصل المتصرف حديثه:

- إنها انتخابات غير عادية هذه المرة، لقد ساء مولانا الملك ما يثيره بعض الأعضاء من مشاكل فى وجه العلاقات المتينة التى تربطنا ببعض الدول الصديقة، فأمر بألا لا يدخل البرلمان فى دورته الجديدة إلا مـن أدرك مصـلحة الـبلاد وقدمها فوق كل اعتبار.

ولكن عامر اليتيم لا يعـرف بالضـبط مـاذا يفعـل البرلمان، أو لماذا يكون مهماً إلى حد أن يغضب الملك، كان البرلمان فى ظنه مجرد مجلس كغيره من المجـالس التـى يسمع الناس يتحدثون عنها مثـل مجـالس المحافظـات أو مجالس الآباء أو غيرها، فلماذا يكون هذا المجلس وحده الذى يثير هذه الزوابع وتنشأ من حوله الخلافات، وتقام له صناديق الاقتراع، لابد أنه مجلس خطير إذن، ولكـن لمـاذا يـأتى المتصرف اليوم ويقحمه فى أمر لا يعرف عنه شيئاً، سـمع المتصرف يقول:

- إن رؤوساً كثيرة سوف تطير، والـذين يتمتعـون بالحصانة البرلمانية سوف يفقدون حصانتهم.

الأمر مازال لغزاً فى ذهن عامر اليتيم فهو لا يعـرف أيضاً ما هى هذه الحصانة التى سـيفقدها أصـحابها ومـا علاقتها بالبرلمان، ولماذا يجب لتلك الرؤوس أن تطير.

- إن القرية يجب أن تعرف كيف تختار من يمثلها.

لابد أن يقول شيئاً مجاملة للرجل، فقد ظل صامتاً فـى حين كان المتصرف ينتظر منه فى كل مرة تعليقاً، تذكر أن للقرية والمناطق الصحراوية التى حولها نائبـاً يمثلهـا فـى البرلمان هو الحاج عبد الجليل فقال وكأنه عثر على اكتشاف:

- البركة فى الحاج عبد الجليل، لقد تمتع دائمـاً بثقـة الحكومة.

سمع المتصرف يقول:

- لقد أمر مولانا بتطعيم المجلس بالدماء الجديدة.

ماذا يعنى هذا الكلام، هل سيفقد الحاج عبـد الجليـل وظيفته ويعود إلى كتابة الأحجبة كما كان يفعل فـى زمـن قديم، ولكن لماذا تبدل الحكومة رجلاً من رجالهـا الأقويـاء الذين كثيراً ما فرضت فوزهم فى البرلمان بقـوة الشـرطة والسلاح.

- إن وزارة الداخلية تعد منـذ الآن قائمـة بأسـماء المرشحين الحكوميين لكى ترفعها إلـى الـديوان الملكـى، ومطلوب منى أن أذهب إلى طرابلس لأقدم اسـم المرشـح الجديد عن هذه المنطقة.

ثم سكت قبل أن يضيف:

- وباعتبارك صديقاً أقدره وأحترم رأيه فقـد جئـت أستشيرك فيمن تراه صالحاً لهذه المهمة.

أسقط فى يد عامر اليتيم، ماذا عساه أن يقول، أراد أن يضحك، ولكنه خشى أن يعتبر المتصـرف ضـحكه هـزءاً وسخريةً من كلامه، أتراه يتكلم جاداً أم مازحاً، ولكنه يسدل ملامحه فى تجهم وخطورة تدلان على أن الأمر جد لا هزل فيه، ظل صامتاً لا يعرف ماذا يقول، اسـتعجله المتصـرف قائلاً:

- لم تقل رأيك.

- وهل لنا رأى معك، إنك أنت الخير والبركة.

- ولكنك ابن هذه المنطقة وأكثر منى خبـرة بأهلهـا ورجالها.

قال مستعطفاً، مسترحماً، كأنه يطلب العفو عن ذنب لم يقترفه:

- إننى كما تعلم قليل الدراية بالسياسة ولا أعرف غير الحاج عبد الجليل أهلاً لهذه المكانة.

- لقد مضى عهد الحاج عبد الجليل وآن له أن يتقاعد، ولقد فكرت طويلاً فى الأمر ولم أجد أحداً أطمئن إليه وأحمل اسمه إلى الوزارة وأنا واثق كل الثقة من فوزه برضا الديوان الملكى لأنه ليس فى سجله ما يعيب، وليس فى حياته مأخـذ، ولم يشترك فى نزاع أو خصومة وصلات مراكـز الشـرطة غير رجل واحد.

بقى اليتيم ينتظر فى شوق معرفة الرجل، وقد أحـس بالارتياح لأن المتصرف قد حمل عنه العبء ولم يعد محتاجاً لرأيه فى الموضوع بعد أن اهتدى إلى الرجل الـذى يريـد، رأى المتصرف صامتاً لا يذكر اسم الرجل، فسـأل بـدافع الفضول:

- من هو هذا الرجل يا سيادة المتصرف؟

- إنه أنت يا عامر اليتيم.

انتفض اليتيم كأن المتصرف ألقى فى حجره ثعباناً.

- أنا؟!

قالها بعد أن وقف وصار ينظر إلى وجه المتصـرف باحثاً عن علامة مـن علامـات العتـه أو الجنـون، رأى المتصرف الرعب الذى أصابه فقال:

- ظننت بأن الخبر سيفرحك.

لم تكن لدى اليتيم كلمات يعبر بها عن الشعور الـذى انتابه فى تلك اللحظة، وجد نفسه يقف ثم يجلس مرةً أخـرى والمتصرف ينظر إليه متعجباً والطربوش يرتفع ويهبط مـع وقوف اليتيم وجلوسه.

- أجلس يا رجل وقل ما الذى أصابك؟

قال اليتيم وهو يفتش فى نفسه عن تفسير لهذا الرعب الذى اجتاحه:

- إننى لا أعى شيئاً من هذه الأمور، ولم أذهب إلـى طرابلس ولو مرةً واحدة فى حياتى، ولا أعرف كيـف أفـك الخط أو أركب الفرس البرلمانية، فكيف باللّه عليك تريـدنى أن أكون نائباً فى مجلس النواب؟

تساءل المتصرف فى حيرة:

- ولكن عن أى فرس تتكلم؟

ثم انفجر ضاحكاً.

- لعلك تقصد الحصانة، فهمت الآن، لا يهم، لا يهم.

عاد إلى شرح الأمر الذى غمض على اليتيم بعـد أن فرغ من الضحك:

- إنها ليست وظيفة كتابية تحتـاج لإتقـان القـراءة والكتابة، إنهم يضعونها شرطاً ونحن لدينا الوقت لأن نتغلب على هذا الشرط، أما عن النقاش والحديث داخل المجلس فإن أهم شروط النائب الناجح هو ألا يتكلم أبداً، أما فيما يخـص ركوب الفرس. .

وعاد يضحك من جديد قبل أن يواصل الحديث :

- فهذه مسألة سأشرحها لك فيما بعد، إننى ذاهب الآن، فلا تقفل الباب فى وجه الخير الذى جاء يسعى إليـك، إنـك خير من يصلح لهذه المهمة، كل ما أرجوه أن يبقـى الأمـر سراً بيننا حتى يحين الموعد المناسب لإعلام الناس.

ثم قال وهو يتبع طربوشه الذى ارتفع إلى أعلي:

- دعنى أتدبر الأمر ولن يكون إلا خيراً.

وقف بباب المربوعة يضع الحذاء فى قدمه وهو يقول مستدركاً:

- بقى أمر بسيط لا أدرى كيف أفاتحك فيه؟

لم ينتظر تعليقاً من عامر اليتيم الذى مازال غائباً عـن وعيه، فمضى يقول:

- لعلك تعلم أن أم الأولاد تعانى من برد فى الركب.

- شفاها اللّه وعافاها.

- ولقد صرت أشقى وأتعذب بسبب هذا المرض الذى منعها من الإيفاء باحتياجات البيت، ووجدت أن أسلم حل هو أن أتزوج امرأة أخرى تعتنى بشؤونى وتنقذنى من العناء.

كان المتصرف يتحدث هامسـاً، وكـان اليتـيم يجـد صعوبة فى تتبع كلماته، أدرك أن فى الأمر شيئاً لا يرتـاح إليه، حاول استحضار عقله الغائب ليواجه به الموقف وقـال هارباً من الموضوع:

- أرجو أن تبقى لتناول العشاء.

- أشكرك، إننى على عجل كما ترى، كل ما فى الأمر أننى فكرت طويلاً فى المرأة التى أبنى بها، والعائلـة التـى أصاهرها، وفى الحقيقة فإننى لم أجد فى القرية من هو أجدر منك بربط أواصر المصاهرة بينى وبينه.

مرةً أخرى يجد عامر اليتيم نفسه يواجه مأزقاً حرجاً، قال فى محاولة لكسب بعض الوقت:

- لقد فاجأتنى بهذا الموضوع ولا أدرى ماذا أقول.

- إننى جاهز لأى مهر تطلبه.

- أستغفر اللّه، فليس بيننا مهر، ولكن الفتاة كما تعلم لم تكمل دراستها ولم يأت بعد الأوان للتفكير فى أمر زواجها.

- خذ ما شئت من الوقت للتفكير، وليبـقَ الموضـوع طى الكتمان حتى يتم الاتفاق وتعلن الخطوبة.

عرض الصفقة بصراحة ووضوح ودونمـا إضـاعة وقت، جميلة مقابل مقعد فى البرلمان، أى مهر آخـر يريـد أكثر من هذا المهر، إنه كثيراً ما تولى تزويـر الانتخابـات لحساب الحكومة ولمصلحة رجال لا يجد أحياناً فى قلبه ذرة ميل نحوهم، ولكن الأمر يختلف الآن، سـتكون الانتخابـات القادمة أول انتخابات يخوضها بحب وحماس حقيقيين، لأنـه سيكون شريكاً فى جنى الأرباح، وسيديرها لحسابه ولحساب الحكومة معاً.

خرج المتصرف وترك اليتيم حائراً، لم ينتبـه حتـى لإقفال الباب الذى أبقاه المتصرف مفتوحاً .

(١٣)

أمضى العيد أسابيع ثلاثة مشـغولاً بـالفكرة التـى زرعها فى رأسه الرجل البدوي، كان قد ذهب لعملة فى المدينة، وبقى بعيداً عن القرية كل هذه المدة من أجل أن يختبر مشاعره نحو جميلة قبل أن يقدم على خطبتها، لعل ما ظنه حباً لم يكن إلا افتتاناً بامرأة باهرة الجمال،ما أن يبتعد عنها أياماً حتى يتلاشى افتتانه بها وتنسيه جمالهـا الوجوه النسائية الأخرى التى يلتقى بها، أكثر من التردد على مكتبة الجامعة التى لـم يكـن يزورهـا إلا لمامـاً لاستعارة كتاب من كتب المنهج، عل لقـاءه بالطالبـات وحديثه مع عاملات المكتبة ينسيه ذلك الأثر الذى أحدثته جميلة فى نفسه، ولكن جميلة ظلت هاجساً يمـلا عليـة نومة ويقظته، رؤيته للنساء الأخريات لم تزيده إلا شوقاً إليها ويقيناً أن جميلة المرأة الوحيدة التى تبعث فى نفسه هذه البهجة وتجعله يقبل على الحياة وكأنة خلـق خلقـاً جديداً، أراد أن يذهب إلى ذلك البيت الـذى أدار ظهـره إلى البحر، أغلقوا بابه الرئيسى ووضعوا فوقه الأقفـال وتركوه يغطيه التراب وأعشاب البحر اليابسة فبدا كأنـة

بيت مهجور، وفتحوا باباً خلفياً لزبائن الليل، ولكن نفسه المليئة بهذه العاطفة الجديدة عافت الذهاب لشراء لحظات من المتعة الرخصة فى مغارة الحلم، ظل يقاوم كل يـوم رغبته فى العودة إلى القرية، وأرغم نفسه أرغماً علـى البقاء فى المدينة حتى انقضى الأسبوع الثالث، جاء يـوم الخميس وانتهت ساعات الدوام ووجد نفسه محشوراً مع عدد من الرجال فى سيارة أجرة تنهب بهم الطريق إلـى ((قرن الغزال))، وفى ضحى اليوم التالى جـاء يطـرق باب بيتها، أطلت جميلة تنظر باندهاش إلية، إنها تعـرف أن سؤاله عن والدها فى المرة السابقة لم يكن إلا عـذراً اختلقه لكى يراها وتعرف أنة يهرب من طريق والـدها ويختفى عندما يسأل عنة، فما الذى جاء بـه الآن وهـو يعلم إنه عطلة ووالدها ينتظر داخل البيت لتخبـره مـن الطارق، ظنت أن العيد قد أخطأ التقدير هذه المرة فقالت محذرة:

-إن أبى موجود بالبيت.

قال بابتسامة تطمئنها وتبـدد القلـق الـذى غشـى ملامحها:

-ما جئت إلا لكى أراه.

وأضاف هامساً يريد بسرعة أن يعرف رأيها فيما أقدم علية:

-جئت فى الحقيقة لامر يهمنى ويهمك أنت أيضاً.

ابتسمت عيناها ودخلت مسرعة لإبلاغ والـدها دون أن تعطيه فرصة ليكمل ما أراد

أن يقوله لها ،خرج اليتيم ليرى العيد واقفاً يعلـق عينية بحدوة الحصان، كان قد نسى فى غمرة المفاجـآت التى ساقها إلية المتصرف أنة غاضب على العيد وأنـة منذ أسابيع مضت كان يبحث عنة ليسأله مرة أخـرى أن يبتعد عن طريق أبنته، قال

بلهجة باردة:

- تفضل.

وسار يقوده إلى المربوعة، دخل العيد وقد أسعده أن يرى سورة الغضب التى قابلة بها فى المرة الماضية قـد فارقت وجهه، وسمعة يسأله عن سبب مجيئه قائلاً:

- خيراً؟

- ليس هناك إلا الخير.

بدا خجولاً متلعثماً لا يعرف من أين يبدأ، تمنى لـو أنة استعان على هذه المهمة بأمة أو أحد أقاربه، رأى أنه لابد أن يقول شيئاً يبرر به مجيئه للخطبة بمفردة:

-لقد رغبت فى أن أسبق والدتى إلى زيارتكم لكـى أقـف بنفسى على رأيكم فى الموضوع .

يعرف لو أنه جاء بأمة ورفض اليتيم طلبها فستكون قطيعة بين العائلتين لا أحد يدرى إلى أى أمـد تـدوم، أدرك عامر اليتيم ما يرمى إليه العيد، ولكنه لم يشأ أن يساعده، إنه ذاته بحاجة إلى من يعينه على الخروج من هذا المأزق الذى وضعه فيه المتصرف، قال العيد:

لقد فكرت أكثر من مرة فى الزواج مـن عـائلات تجاورنى فى المدينة وتربطنى بها أمتن العلاقات، ولكننى فى الحقيقة كنت أتراجع فى اللحظات الأخيرة لأننى أعرف أن زوجة أختارها من بنات قريتنا ستكون أقدر على صون شرفى ورعاية بيتى والعطف بوالدتى أكثر من أى أمـراه أخرى.

حمد ا الذى هداه إلى هذه المقدمة، إنه لم يفكر يوماً فى الزواج من المدينة، ولا يعرف جيراناً غيـر مجموعـة العزاب الذين جاءوا نازحين من الأرياف مثلـه، يـؤجرون غرفاً فى فندق رخيص بالمدينة القديمة يضم مخزناً لقـوارب الصيد ويمتلئ بالرطوبة ورائحة السمك، ولا يعرف بيوتـاً غير((مغارة الحلم)) التى تديرها امرأة كانت فـى صـباها خليلة للحاكم الإنجليزي، اهتدى إليها أخيراً ووجد عند نسائها علاجاً للسأم والارق ووسيلة لحرق ما لدية مـن مـدخرات، أسرع قائلاً قبل أن يجف حلقه ويفقد قدرته على الكلام:

ولذلك فقد جئت راغباً فى طلب يد كريمتكم كان عـامر اليتيم يجلس صامتاً وهو يراقب العيد يغالب خجله وارتباكه، احمر وجهه وعرقت أصابع يديه وهو يستعين بها فى شـرح كلماته، ارتدى الملابس الوطنية وبدت قصـته مـن تحـت الطاقية تنبئ بنعومة شعرة وسواده الداكن، لاحـظ انسـجاما بادياً فى ملامح وجهه الطفولى الذى أضفى علية كدر وعناء المهمة التى يقوم بها براءة جعلت اليتيم يحس بالعطف نحوه ويدرك بينه وبين نفسه أنه أكثر شباب القرية جدارة بهـا لا يزيد عليها فى العمر بأكثر من ست أو سبع سنوات، ويحظى

بحب الناس وتقديرهم لاجتهاده وعصـاميته ولكـن هنـاك اعتبارات أخرى لا يستطيع اليتيم أن يغض الطـرف عنهـا ليس أقلها شأناً الاتفاق الذى جاء يعرضه عليـة سـيد هـذه القرية أنه لا يريد أن يقف موقف المفاضلة بين المتصـرف والعيد فهذا ليس إلا مأزقاً جديداً يأتى هذا الفتى ليضعه فيـه لقد وجد العيد يدخل قلبه ولاشك أن لابنته ميلاً نحوه ولكـن الانسان لا ينال إلا ما كتب له ولم يـرى إلا مـا سـطرته الملائكة فوق جبينه فهو لن يقول له شـيئاً يغضـبه يـؤذى مشاعره أو يكسبه عداوته قال مجاملاً:

أعرف محبة الناس له وما أنا إلا واحد من أهل هذه القرية أحب ما يحبون وأكره ما يكرهون

وبحث عن أى عذر يصرف به العيد

- ولكنك يا ولدى تقيم بعيداً عن القريـة وأنـا أكره أن أرى ابنتى تسكن بعيداً عنى، هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى. .
- قاطعه العيد قائلاً:
- سأسعى بعون ا للحصول على الانتقالة.

- - انتظرنى قليلاً، ثم إننى لا أريد أن أشغلها بأى شئ آخر غير دراستها،
- وسأرجئ النظر فى مثل هذه المواضيع إلى أن تكمل دراستها وتأخذ الشهادة.

ثم أستأذن لأن موعـد صـلاة الجمعـة قـد أزف، وسيكون بعد قليل فى طريقه للمسجد.

لم يجد العيد فى كلام الرجل شيئاً يـوحى برفضـه، حتى وإن أرجأ النظر فى الأمر فقد قال ذلك كله بمـودة أسعدته، لقد ترك الباب مفتوحا أوعية الآن أن يجتهد فى الحصول على الانتقال إلى وظيفة بالقرية، والعودة بعـد ذلك إلى اليتيم مجدداً الخطبة. ولم يجد حرجاً عندما عاد إلى البيت من كتابة رسالة إلى جميلة يخبرها فيهـا بمـا حدث ويضع الرسالة بين صفحات كتاب قصصى يرسل به مع طفل إليها .

(١٤)

ها هو العام الدراسى يتراجع ليسلمها بعد شهرين إلى موسم الامتحانات حيـث تلـوح تلـك الجـائزة بإطارهـا

المزخرف، مليئة بالإمضاءات والأختام تحمل اسمها وقد كتب بحروف كبيره أنيقة "جميلة عامر اليتيم" مقروناً بكلمة معلمة، شئ يستحق عناء السنين ويملأ القلب شوقاً ليوم الانعتاق من تلقى الدروس والانكباب على كتابه الواجبات المنزلية، لتبـدأ بعد ذلك حياة جديدة مثيرة لم تعرف مثلها أية امرأة من نساء القرية، حيث هى التى تعطى الـدروس وتكلـف الآخـرين بالواجبات، وستدخل تاريخ التعليم باعتبارها إحدى الرائـدات فى "قرن الغزال" هكذا إن يصنع التاريخ وتصبح صدفة كهذه سبباً لعقد ألوية لبطولات ومنح الأوسـمة فـى المناسـبات الرسمية كما حدث مع بع المدرسين فى القرية، إن ما يبعـث فى قلبها الخوف، ليس الامتحانات فقد استعدت لها، ولكنهـا تلك العطلة التى تعقبها بأيامها القائظـة الطويلـة وصـيفها المحمل بالغبار والعرق والقرف والـذباب وريـاح القبلـى ورائحة الرطب الفاسد، أسوأ فصول العام وأكثرهـا بؤسـاً وقسوة، حيث لا مكان آخر تخرج إليه سوى الطواف حـائرة بغرف البيت لا تدرى ماذا تفعل بنفسها، لاشـك أن الـذين اخترعوا هذه العطلة أرادوهـا أن تكـون مؤسـماً للراحـة والاستمتاع بمباهج السفر والسياحة، ولكنهم لو عرفـوا مـا

تفعله عطلتهم بطالبة من طالبات (قرن الغزال) لعدلوا عنهـا ولجعلوا العام الدراسى اثنى عشر شهراً رحمة بها، ها هـو التوتر الذى يثيره اقتراب الامتحانات قد بـدأ يفعـل فعلـه، تصحو مبكرة وتنام متأخرة، وتجلس فى غرفتها تنتقل مـن كتاب إلى كتاب ومن كراس إلى آخر وكأنها تريد أن تحفـظ المنهج كله فى يوم واحد، ثم فجأة تكتشـف أن الغرفـة قـد فرغت من الهواء وأنها تحس بالاختناق، فتسرع إلـى فنـاء البيت بحثاً عن نسمة هواء وترفع رأسها فيدهشـها منظـر السماء الفسيحة الزرقاء، لقـد دسـت رأسـها فـى الكتـب وحصرت نفسها بين جدران البيت والمدرسة حتى نسيت لون السماء، ولقد رأتهم يضربون حولها حصاراً فـى البيـت لا تدرى كيف بدأ ولا متى ينتهى، منعوها من زيارة أمى سعيدة التى صار بيتها الآن منطقة محرمة بعـد أن وصـلت إلـى أسماع أهلها الشائعة التى تقول بأنها تعلمها السحر، وهـى لا تعرف بيوتاً أخرى تذهب إليها، أما الأسواق والشوارع وغابة النخيل والجبال والبرارى فقد صادرها الرجال منـذ قـرون سحيقة وصارت حكراً عليهم لا تفكر هـى ولا أيـة امـرأة أخرى فى الاقتراب منها، ومشوار الذهاب إلـى المدرسـة

والعودة منها صار واجباً ثقيلاً، تمضى فى الطريـق وهـى تدس رأسها فى صدرها وتمنع نفسها عن الالتفـات شـمالاً ويميناً لكى لا تلتقى بالعيون التى تبحث فـى فضـول عـن العاملات الساحرة فى ملامحها، ولقد وجدتهم فى المدرسـة يعاملونها بحذر واحتراس كأن احتمال أن تكون حقاً سـاحرة احتمالاً قابلاً للتصديق وتستغرب أن ترى الجهل والخرافـة يتسللان إلى بيته تحصنت بالعلم مثل المدرسة فتحس بأنهـا غريبة عن كل ما حولها وتضيق أحياناً بجمالها لأنها تعرف أنه مصدر هذا الإحساس بالغربة الذى يداهمها وسبب هـذه الموجات من الحسد والشائعات التى تركض كقطعان الذئاب نحوها، جاء الطفل بالكتاب الذى أرسله العيد وقرأت رسالته، كانت قد أدركت من كلماته عندما جاء ليرى والدها إنه انمـا جاء ليخطبها وانتظرت طوال اليوم أن يرسل والدها بأمهـا تسألها رأيها، كان يحرقها الشوق لأن تعرف ما دار بينهمـا وأقلقها أن يمر اليوم دون أن تفاتحها أمها بشىء، حتى ذهب فى ظنها أن والدها قد رفض العيـد دون أن يأخـذ رأيهـا، أسعدها وهى تقرأ الرسالة أن والدها قد أبقى الباب مفتوحـاً ومعتذراً ْبانه لا يريد أن يشغلها عن دراستها، لم تبادر بكتابة

رد على رسالته فهو لم يكتبها لينتظر رداً، وهـى لا تريـد تشجيعية على إرسال المزيد منها لأنها تعرف أن مثل هـذه الأمور لن تبقى سراً، جاء الكتاب فى الوقت المناسب يمنحها فرصة للهروب بضع لحظات من روتين الحياة وثقلها، كـان كتاباً قصصيا مطبوعاً طباعة أنيقة فاخرة، بعكـس الكتـب القديمة المهترئة التى تضمها مكتبة المدرسة الصغيرة، أغلبها قصص دينية تحكى حياة الأنبياء وتراجم القـادة المسـلمين وكتب فى الأدب والتاريخ ودواوين الشعر العربـى القـديم، ولكنها لأول مرة تقرأ قصة حديثة تروى موضوعاً معاصراً، وبنهم قرأت القصة التى كانت مليئة بالمشاهد والمغـامرات العاطفية، رجاء ونساء يطارحون بعضهم بعضاً الغرام فـى الحدائق والمقاهى وعلى شواطئ البحر، وكان حيـاتهم قـد خلت من كل شئ أخر سوى الحب، لابد أنـه شـئ مـبهج وجميل أن يحب الإنسان، وأن يجد فى الحب شيئاً يملأ عليه حياته ويغنيه عن كل شئ آخر.

وتذكرت العيد.

لم تكن قد رأته إلا مرة واحدة منذ أعوام مضت، كان عائداً لتوه من المدينة ومن حوله بعض الأطفال ينادونه باسم العيد، عرفت فيما بعد أنهم يطلقون عليه هذا الاسـم لأنهـم يفرحون بقدومه كما يفرحون بقدوم العيد.

ثم لم تره بعد ذلك إلى أن جاءت إليهـا أمهـا منـذ أسابيع مضت تنقل إليها ما دار من حديث بينها وبين والدها بشأن علاقة يتكلم عنها الناس ويكتبون حولها الشعر تـربط بين العيد وبينها، لقد أقنعت زوجها بأن الأمر مجرد إشـاعة كاذبة، وكفتها شر الغضب الذى ألم به، وتسألها إذا كان فـى الأمر شئ تخفيفه عنها، طمأنت أمها بأن ما قالته لوالدها كان صحيحاً، وجلست تفكر فى هذا الرجل الذى جعلوه ودون أن علم حبيباً لها، وعندما جاء بعد ذلك يطرق باب البيت بحجة أنه يريد تهنئة والديها بالبيت الجديـد عرفـت أنـه العيـد وضحكت فى نفسها من هذا العذر الذى اختلقه لرؤيتها فالبيت الجديد صار الآن قديماً، وأدركت أن شائعة ارتباطه العاطفى بها هى التى أثارت فى نفسه الفضـول بمثـل مـا أثـارت فضولها، كانت تتصوره ولداً ممن عاشوا طويلاً فى المدينـة شائعة ارتباطه العاطفى بها هى التى أثارت فى نفسه الفضول

بمثل ما أثارت فضولها، كانت تتصوره ولداً ممـن عاشـوا طويلاً فى المدينة فأذابت احتشامهم ومنحـتهم طـلاوة فـى الحديث وقدرة على الاقتحام واللعب بعقول النساء فـأرادت للوهلة الأولى أن تأخذ حذرها منه، أدهشها وهى تقف تتأمله وتبحث عن سر اختيار ذلك الشاعر له ليكون حبيبها من بين كل الناس الآخرين، أن ترى وجهاً وديعاً لم تفارقه طبيعتـه القروية، ورجلاً يتحدث بصوت هامس ويتحاشى النظر فـى عينها كأنه خجول من هذا العذر الذى لفقه تلفيقـاً، أحسـت بالعطف نحوه وهى ترى خجله وتردده، وترى ذلك الأسـى الذى يسكن عينيه العسليتين، وكان وراءهما سراً، ثم جاء فى زيارته الثانية وقد اختلق عذراً جديداً فأدركت له صار يهـتم بها وأن عليها أن تفتش فى نفسـها إذا كانـت تبادلـه ذات الاهتمام، رأته وقد تحرر من ارتباكه وكأنه أحـس بالألفـة معها فرأت أيضاً ألفت إليها وكأنها تعرفه منذ زمن طويـل، عندما انتهى اللقاء على الباب وجدت نفسها تمد إليـه يـدها تودعه كأنها تريد بهذه الملامسة بالأيادى أن تتعـرف عليـه أكثر وأن تستمتع إلى النبض الذى انتقل من قلبه إلـى يـده وتختبر بهذه المصافحة مدى قوة العلاقـة التـى تنشـأ الآن

بينهما، رأته يبقى يدها فى يده، كانت هذه أيضاً رغبتهـا، أن تبقى هى أيضاً يدها فى يده،أو لعلها ليست رغبتهـا وإنمـا رغبة الدم والخلايا والأنسجة فى تلك اليد الأخرى فأسـعدها اللقاء، لعل هذا ما تسميه كتب العلوم كيمياء البدن الإنسـانى تعبر عن تفاعل عناصرها بالعناصر التى تقابلهـا، ولكنهـا انتزعت يدها من يده، بسرعة وقسوة انتزعتها، وكأن هـذه الرغبة إثم يجب أن تحاربه فى نفسها، إنها لا تعرف شـباناً آخرين تختبر بعلاقتها بهم والحديث إليهم كنه العلاقة التـى تربطها بالعيد، ولكن الأغانى التى تسمعها بالمذياع لا تذكراه بأى رجل آخر غيره، وهذا الكتاب الذى تقرأه الآن لا يـوقظ فى قلبها إلا ذكرى اللحظات التى رأته فيها.

- نعم، نعم، هذا هو الحب يا ابنتى .

قالتها أمى سعيدة وهى ترى جميلة تفتح لهـا البـاب وتعانقها بشوق وحرارة، جاءت تتكئ على عكازهـا ومـن خلفها كلبها الذى انطلق مهرولاً يتسلق جسم جميلة ويهز ذيله طرباً بلقائها، جلست أمى سعيدة تعبـث بحبـات المسـبحة وتخاطب أم جميلة.

- لقد تخلفت جميلة عن زيارتى فجئت استطلع السبب.

قالت الأم وهى توقد الموقد لإعداد الشاى.

- مرحباً بك دائماً.

ثم أضافت قبل أن تتورط ابنتها بقول شئ تعرف منه المرأة العجوز السبب الحقيقى الذى جعلهم لا يسمحون لجميلة بزيارتها.

- جميلة فـى صـحة وعافيـة، ولكـن هـم الامتحانات القادمة شغلا عن كل شئ آخر.
- أسعدنى أن الخطاب قد بدءوا يتزاحمون على باب بيتها.

لم تكن جميلة تعرف أن هناك من تقدم لخطبتها غير العيد، نظرت إلى أمها غاضبة لأنها تخبئ عنها شيئاً كهذا لا يهم أحداً بقدر ما يهمها، لكن الأم لم تنتبه لنظرة ابنتها، لقـد اقلقها ما قالته الزنجية العجوز، من أين لهـا أن تعـرف أن هناك من جاء لخطبة ابنتها، تعرف الأم قدرتها على ضـرب

الودع وخط الرمل فهل هى مجرد تكهنات جاءت تبحث الآن عن تأكيد لها؟ رأت أن من واجبهاً أن تقول شيئاً تقفل به هذا الموضوع:

- ما أغنانا عن فتح باب كهذا وهى لا تزال تلميذة لم تكمل دراستها.

- لا تخبئ عنى شيئاً فأنا أيضاً أمها.

تتذكر الأم الآن أن أمى سعيدة هى التى أصرت على تسميتها "جميلة" كان من رأيها ورأى نساء كثيرات حضـرن مولدها ورأين جمال المولودة وبيـاض بشـرتها أن تسـمى "الشينة" ليكون هذا الاسم القبيح الذى يناقض شـكلها تميمـة عنها الإصابة بالعين وترد عنها حسد الحاسدين، ولكن أمـى سعيدة أقنعتهم بأن هذا الاسم سيكون مصدر تعاسة لها عندما تكبر، واختارت لها اسم جميلة ليكون اسماً لائقاً بها، وها هى ابنتها الآن تحصد نتيجة هذه التسمية.

قالت ترد على اتهام أمى سعيدة:

- معاذ ا   أن نخبئ عنك شيئاً، تعرفين أن ليس هناك من شباب البلدة من يكره أن تكون من نصيبه، ولكن والـدها لا يريد فتح هذا الباب الآن.

- لقد جئت فى الحقيقة أحذره من أن يقبل عريساً يندم فى المستقبل .

- من هذا العريس الذى تقصدين؟

- المتصرف ولا أحد غيره.

- المتصرف؟

قالتها جميلة باندهاش واستنكار، لماذا لم تعرف بـه إذا كان حقاً قد جاءها خاطباً، كيف يخبئون عنها مسألة كهذه، أرادت أن تبدأ معركة مع أمها، ونظرت إليها فرأتها تسـتقبل الخبر باندهاش مثل اندهاشها، لم تفاجأ الأم باسم المتصرف، ولكن الذى فاجأها هو كيف وصل الخبر إلى أمـى سـعيدة، تعرف أن زوجها حمل عبئ اتخاذ قرار فى هذا الموضـوع لأيام طويلة، لا تكاد تنقضى ليلة دون أن يسـألها أن تبحـث معه عن حل لهذا المأزق، إنها لا تريده زوجاً لابنتها، لأنهـا تعرف أن هناك امرأة أخرى بأطفالها ستكون ضـرة لهـا، وابنتها ليست بائرة إلى حد إعطائها لرجل متزوج مهما كان

مركزة، ناهيك عن فارق السن بينهما وعن كونه غريباً عن القرية لن يبقى بها إلا عاماً أو عامين ثم ينتقل بها إلى برار أخرى، ولكن زوجها يخشى بأس المتصرف وسلطته، إن اليتيم رجل لا أهل له ولا قبيلة تعينه على مقارعة الشر، والرجل الذى جاء خاطباً إنما هو رجل الحكومة، يسجن من يشاء ويطلق سراح من يشاء، فمن يقوى على الوقوف فى وجهه.

قالت أمى سعيدة وقد أدركت سر صمتها:

- أعرف أنكم تخافونه، ولكن لا تسنى أن وراء كل كبير من هو أكبر منه.

قالت الأم فى انكسار وكأنها تعتذر عما حدث.

- وما حيلتنا نحن تجاه رجل بيده كل مقادير القرية.

أدركت جميلة من كلام أمها أن هناك أمراً مبيتا لتزويجها منه، وقفت غاضبة تصيح فى وجه أمها:

- من أين لكم الحق فى تقرير شئ كهذا بالنيابـة عنـى، إن عليكم أن تقتلونى أولاً قبل أن أقبل بشىء كهذا.

جاء من يطرق الباب، وجدتها الأم فرصة لأن تهرب من هذا الموقف الذى تأزم الآن، خرجـت لتـرى الطـارق وانتهزت أمى سعيدة فرصة غيابها لتقول هامسـة فـى أذن جميلة:

- لعلك لا تعلمين أن العيد جاء أيضاً لوالدك خاطباً.

هزت جميلة رأسها بالإيجاب والغضب ما زال يغطى ملامحها.

- إنكما تليقان ببعضكما، وسأعمل جهدى كى أمنع هذا الزواج الذى أرادوه لك.

عادت الأم ومن ورائها دخل عامر اليتـيم مرحبـاً بالمرأة الزائرة:

- ما هذه الرياح المباركة التى جاءت بك إلى هنا.

رأى ابنته غاضبة تلعن الحظ الذى جاء بها إلى الدنيا فتساءل عن سبب ثورتها، قالت زوجته وهى تمد له طاسـة الشاى:

- لقد جاءت سيرة المتصرف وخطبته لها.

إذن فالأمر لم يعد سراً كما كان يظن، أدرك أن لأمى سعيدة ضلعاً فى إثارة الموضوع فقال مدافعاً عن نفسه:

- ومن يكره مصاهرة رجل له مثل هذه المكانة.

خاطبته أمى سعيدة بلهجة محملة بالوعيد:

- أرجو ألا يكون ما تناهى إلى سمعى صـحيحاً يـا عامر اليتيم.

لقد وجد عندها دائماً بيتاً مفتوحاً وطعاماً يشبع جوعه عندما كان صبياً لا يجد مأوى ولا عملاً، قال وهو يتجنـب النظر إليها:

- لقد فكرت طويلاً فى الموضوع ورأيت أننى لن أجد لابنتى زوجاً أفضل منه.

- اتق ا فى ابنتك يا عامر، أتبيعـا بمنصـب مـن مناصب الحكومة.

من أين لهذه الحيزبون التى حضرت طوفان نوح أن تعرف أن فى الأمر مناصب وصفقات ولكن الخيار صـعب أيتها العجوز التى قضت عمرها فى الخرائب والظلام، أمـا الفقر والسجن ولعنة الحكومة وأما الجـاه والمـال والنائـب المحترم الذى يخشى بأسه الوزراء أنفسهم، بل قد يصبح هو نفسه وزيراً، لن يكون أول وزير فى حكومة مولانا لا يعرف القراءة والكتابة أغمضى عينيك للحظة واحدة وضعى نفسك فى مكانى، من أين سأجد لابنتى زوجاً يغرقها ويغرقنى فـى النعيم الحكومى ولكن من أين لامرأة مثلـك تعـودت علـى معاشرة الدجاج والكلاب وعاشت على ضرب الودع والغناء فى الأعراس أن تعرف قيمة المجد الذى يلقاه من يمشى فـى ركاب الحكومة، ثم لماذا يعطى هذه المرأة فرصة للتدخل فى حياته وإفساد الخطط التى ارتضاها لابنتـه، إذا كانـت قـد عطفت عليه يوماً فقد أعطاها بعد ذلك أكثر مما أعطته، قال بلهجة صارمة:

- إننى أدرى بمصلحة ابنتى، لقد اتخذت قرارى ولـن أتراجع عنه.

نهضت أمى سعيدة واقفة، أخذت عكازها ومسـبحتها وخرجت غاضبة ومن خلفها كلبها ينبح غاضـباً لغضـبها، أرادت زوجة اليتيم أن تسترضيها ومدت يدها بالشاى تسألها البقاء، ولكن أمى سعيدة خرجت وهى تلوح بعصاها منـذرة متوعدة:

- ستندم يا عامر اليتيم، ستندم يا عامر اليتيم.

وقف اليتيم بالباب لحظـة يشـيع بنظراتـه المـرأة الغاضبة، إنه لم يرتكب ذنباً يستحق الندم، فلماذا إذن تبعـث كلماتها رجفة فى جسمه كله، لقد كان فى نيته أن يذهب إلـى المتصرف اليوم أو غداً يبلغه بالموافقة على الخطبة ويتفـق معه على تحديد موعد إعلانها، ولكنه الآن بعد أن جاءت هذه المرأة تثير الموضوع أمام ابنته، رأى أن يمنح نفسه مهلـة أطول ولعل هذه العاصفة تهدأ ولعل ابنته التى أغضبها أمـر هذه الخطبة تلين وترضى.

مهمومة، حزينة، ذهبت جميلة فى اليوم التـالى إلـى المدرسة، لم يستطع كل هذا البهاء الذى يفيض به وجهها أن يخفى الكدر الشديد الذى غطى ملامحها، جلست إلى مقعدها واجمة، غير قادرة على أن تسمع درساً، أو تكتـب سـطراً واحداً بلا أخطاء، لاحظت المدرسة المصرية التـى جـاءت تقدم حصة اللغة العربية والدين ذهولهـا وكثـرة أخطائهـا، انفردت بها بعد انتهاء الحصة تسألها عن السبب، لم تخبرها جميلة بشىء مما حدث، خشية أن يتحول إلى وقـود جديـد يلهب المخيلة التى تنسج حولها القصص وتصنع الشـائعات، قالت وهى ما تزال فى شرودها:

- ليت الناس يتركون الإنسان فى حاله.

تعرف المدرسة أن هذا مطلب يتعـذر تحقيقـه، وإن العلاقة بين جمال كهذا الجمال وبين البيئة التى حوله سـتظل دائماً علاقة مليئة بالتوتر والصراع، إنهم لن يتركوه إلى حالة لأن هذا الجمال لن يتركهم، فهو يتحول إلى مركـز جـذب يرغمهم على الاهتمام به، سألتها بلهجة حانية ألا تشغل بالها بشىء غير دراستها التى أوشكت على الانتهـاء والحـرص على الفوز بالشهادة التى ستكون سلاحها فى معارك الحياة.

ولكن صوت الحكمة الذى تتحدث به المدرسة لم يكـن وحده يكفى لإزاحة هذه الغمامة التى تملأ صدرها، إنهـا لا تجد من حولها أحداً تستطيع أن تفضى إليه بهمومها، جلست فى الفصل تستعرض وجوه زميلاتها، لقد اتسعت المسـاحة التى تفصلها حتى عن أقرب الطالبـات إليهـا، رأت ابنـة المتصرف تتحرك من مقعدها وتسير باتجاهها تسأل شيئاً لـم تتبين جميلة إذا كانت تقصدها به أو تقصد طالبة بجوارها، لم تنتبه إلى كلماتها وإنما انتبهت إلى تشابه الملامح بينها وبـين والدها، تصورتها للحظة سريعة أنها المتصرف قادماً نحوها ليخنقها، قامت من مقعدها ترد شرّه عنها، تراجعـت الفتـاة مذعورة وهى ترى جميلة ودونما سبب تقف وتدفعها بكلتـا يديها فى صدرها حتى كادت تسقط فوق الأرض، اعتـذرت لها وهى تحس بالخجل من نفسها وتـرى جـدران الغرفـة تزحف نحوها فتغمض عينيها وتنادى العيد أن يأتى قبـل أن تسحقها الجدران ويأخذها بعيداً عن المدرسة والبيت والقرية كلها وبعيداً عن هذه الهواجس التى تدور كالزوابع السـوداء فى رأسها.

انتهى اليوم الدراسى وخرجـت لتجـد أمهـا واقفـة بانتظارها أمام بوابة المدرسة لكى ترافقها فى طريق العـودة إلى البيت، لقد سألتها مراراً أن تتركها تذهب وتعود بمفردها كما تفعل بقية زميلاتها، قالت بهمس غاضب:

- إنك تحرجيننى أمام بقية البنات عنـدما تعـاملييننى كأننى »عيلة صغيرة«.

- إن خوفى عليك وأنت كبيرة بهذا الطول، أكثر مـن خوفى عليك وأنت طفلة.

وما أن سارا مسافة قصيرة حتى تناهى إليهما صـوت الدرويش صائحاً:

- جميلة، يا ويلى من جميلة.

رأته الأم قادماً يعدو نحوهما، أدركت مذعورة أنه يريد بابنتها شراً، تناولت حجراً ألقمته به، تدارت جميلة تحتمـى بأمها، ارتطم الحجر برأسه وتدفق الدم غزيراً مـن جبينـه، ازداد هياجاً وازداد العواء الذى يصدر عنه حرقة والتياعـاً، اندفع كأنه كرة من اللهب والدخان نحو جميلة، أطـاح بهـا أرضاً، أطلقت أمها الصراخ تطلب النجدة، أمسكت بجلبابـه تحاول أن تمنعه عن ابنتها، تمزق الجلباب فى يدها مظهـراً

عرى الدرويش الذى ارتمى فوق جميلة وصار يمزق عنهـا ثوبها وهى باكية تدفعه عنها بلا جدوى، وتطبق ساقيها فـى تشنج لكى لا يتمكن منها، تحول إلى كتلة من الهيجان كأنـه قطيع من النمور الجائعة، يتطاير الزبد من فمه وهو يعـوى باسمها وينشب أظافره فى لحمها ويحاول أن يصل بأسـنانه إلى صدرها وقد سالت الدماء تغطى وجهـه كلـه، تعـاون الرجال الذين هرولوا من الأماكن القريبة لإزاحته من فوقهـا قبل أن يتمكن من اغتصابها، أوسعوه لكما وضربا ولكنه ظل يقاوم ويحاول أن يطولها بذراعيه وأن يعود للارتماء فوقها، سالت الدماء التى تصببت من جبينـه فـوق وجـه جميلـة وصدرها وثيابها، ساعدوها على النهوض وهى تشهق وتبكى وأمها تندب وتلاطم وجهها كما تفعـل النسـاء فـى المـآتم، والدرويش يتلقى الضربات ويصرخ مردداً اسمها، انطلق من بين أيديهم يجرى ويعوى ككلاب أصابه السعار، جرى نفـر منهم وراءه حتى دخل المقابر واختفى عـنهم، أعـارت الأم لحافها إلى جميلة التى وقفت ترتجف وتبكى، تغطى وجههـا بإحدى يديها خجلاً وتحاول باليد الأخرى أن تلملـم الثـوب الذى تمزق فوق جسمها لتستر به عرى صـدرها، مـلأت

الخدوش وجهها وعنقها وذراعيها، تمزق شعرها وتعفر بالدم والتراب وتناثرت خصلات منه فوق الأرض، وضـعت الأم اللحاف فوق ابنتها وصعدت بها إلى السيارة التـى جـاءت تقلهما إلى مستوصف القرية.

(١٦)

لمدة أربعة أيام كاملة ظلت جميلة تقفل غرفة نومهـا على نفسها ولا تغادرها أبداً، وفى اليوم الثانى جاءت أمهـا تطرق بابها وعندما لم تسمع منها رداً أدركت أن ابنتها مـا زالت تعانى من آثار المحنة التى تعرضت لها فتركتها تنـام وتستريح دون أن يثير الأمر ريبتها، وانتظرت أن ترى فـى صباح اليوم الثالث ابنتها قد خرجت تغتسل وتطلب إفطارهـا ولكنها رأت الباب لا يزال مغلقاً والرتاج محكماً من الـداخل فظلت تترك زائراتها، وتذهب لتطرق الباب على ابنتها طرقاً خفيفاً لكى لا تثير فضول النساء الزائرات وعندما لا تسـمع رداً تعود إليهن ثم لا يطاوعها قلبها فتذهب لتطرق الباب مرة أخرى بأكثر إلحاحاً وقوة، انقضى النهار فأدركـت أن فـى الأمر شيئاً،جاءت ومعها نساء أخريات يطرقن الباب بعنـف فلا يسمعن صوتاً أو حركة، جلست أمها أمـام بـاب الـدار

طوال الليل تبكى وتندب ابنتها فلعلها انتحرت أو ماتت كمداً، لم تشأ أن تكسر الباب قبل أن تخبر والدها، انشغلت بمأساتها وبالنساء اللائى جئن لزيارتها ورأته مشغولاً بزواره فلم تشأ أن تخبره بنوم ابنته وغيابها المريب داخل غرفتها، جلسـت أمام الباب لعل معجزة تجعل جميلة تسمع نداءها وتفتح لهـا الباب لأن معنى أن تلجأ لكسرة لا يحتمل إلا تفسيراً واحـداً يملأ القلب هلعاً ورعباً، وباكية متشجة تطرق البـاب هاتفـة باسم ابنتها تلهج بالأدعية وتستجير بسيدى أبى قنديل أن يأتى لنجدتها، وفى اليوم الرابع لم تستطع أن تخفى الأمر أكثر من ذلك على والدها، رأته يأخذا الفأس ويأتى منزعجاً لتحطـيم الباب، أدركت أن القضاء قد نزل ووطنت نفسها على استقبال الخبر البشع ووقفت بعيداً عن الباب باكية تراقب زوجها ومن حولها عدد من نساء الجيران يشاركنها البكاء وقد بات يقينـاً من أذهان الجميع أن جميلة قد صارت الآن جسداً بلا حيـاة، وتهاوت طرقات الفأس على الباب، وقبل أن يـتحطم تمامـاً بحيث يمكن دفعه والدخول إلى الغرفة، رأوا الأكـره تـدور وسمعوا يداً تدير الرتاج الداخلى، توقف اليتيم عـن ضـرب الباب وبقى ينصت إلى الحركة الصادرة من داخل الغرفة، ثم

رأوا الباب ينفرج وجميلة تطل بعينين أثقلهما النوم، تسأل فى استغراب عن سبب هذه الضجة، رمى اليتيم الفأس وذهـب، ارتمت الأم فوق صدر ابنتهـا تحتضـنها وتقبلهـا دون أن تتوقف عن البكاء، رأت جميلة التساؤل فـى أعـين النسـاء المتحلقات حولها فأخبرتهن بأنها كانت نائمة ولم تسمع نداءهم ولم توقظها إلا طرقات الفأس على الباب، سألتهن أن يذهبن لأنها تريد أن تعود إلى النوم مرة أخرى، بدت مندهشة وهى تسمع أمها تقول بأنها نامت أربعة أيام كاملة، وأن ضيوفاً من زميلاتها فى المدرسة يترددن عليها كل يوم بغيـة رؤيتهـا، استأذنت لحظات لكى تغتسـل وتمشـط شـعرها وتتنـاول إفطارها، ارتدت أزهى فساتينها وخرجت ترحب بزائرتهـا، بعض الآتين أردن التعبير عن مواساتهن لها أحسس بالحرج وهن يشاهدنا مرحة مبتسمة، تقابلهن بوجه هادئ وادع لا أثر عليه للمحنة التى تعرضت لها سوى شحوب خفيف من أثـر النوم الطويل زاد من حدة الألق الذى تشع به عيناها، أرادت إحدى النساء أن تأتى على ذكر الحادث ولكن جميلة رمتهـا بنظرة غاضبة أسكتتها عن الكلام،كان واضحاً أنها لا تريـد لأحد أن يذكر تلك التجربة المهينة أمامها، كانت النظرة التى

بدت فى عينيها شيئاً جديداً لم يعهدنه فى جميلة مـن قبـل، وتجنباً لأى إحراج فقد دار الحديث حول الامتحانـات التـى يحين موعدها بعد أسابيع قليلة، وأبـدت بعـض الطالبـات استعدادهن للمجيء إليهـا بالواجبـات المنزليـة، ومـذاكرة الدروس معها فى البيت إلـى حـين موعـد الامتحانـات، استغربت جميلة أن تسمع كلاماً كهذا، وكأنها امرأة عـاجزة يثير ذهابها إلى المدرسة الخوف والاشفاق، ونظرت إلـيهن متسائلة:

- ولكن لماذا لا أذهب إلى المدرسة؟

قالت ذلك فى براءة وعفوية، وكأنها نسيت ما حدث لها عند عودتها من المدرسة منذ أربعة أيام مضت، لم يجدن ما يقلنه لها،لأنهن لا يستطعن أن يخبرنها بأن صدمه مثل التى تعرضت لها كفيلة بأن تجعل أية امرأة أخرى تفقد عقلها أو تعتزل الناس والحياة، ساد الجلسة جو من التوتر الذى تبدو سريعاً بفضل ما أظهرته جميلة من روح المرح والدعابة حتى بات يقيناً فى أذهان كل الحاضرات أن جميلة صارت قادرة على أن تضع هذه القصة المؤسفة وراء ظهرها وتواصل حياها وكان شيئاً لم يحدث.

قالت أمها بعد أن خلا البيت من النساء الزائرات:

- لم يحن الوقت بعد لعودتك إلى المدرسة، هذا هو رأى والدك أيضاً.

أدركت جميلة أن فى الأمر شيئاً مبيناً، وأنها لو وافقت الآن فسوف لن تعود إلى المدرسة أبداً، ستذهب غداً إلى المدرسة شاء والدها أم أبى، ولكنها تساءلت عن السبب فقالت أمها بلهجة ودودة:

- ليس لأن باستطاعة كائن من كان أن يسئ إلى مشاعر ابنتها، ولكن عندما تصبح البنت فى سنك موضعاً لحديث الناس فإن أسلم شيء لها هو الزواج.
- ها قد بدأ الأمر يتكشف الآن.
- هل هذا هو رأيك أنت؟
- نعم
- ورأى أبى؟
- نعم.

عرفت ما يدور فى رأس ابنتها فقالت قبل أن تبادرها بالسؤال:

- وهو أيضاً رأى المتصرف، لقد كان كريماً وجاء يريد الإسراع بإعلان الخطبة قطعاً لألسنة السوء.

إذن فقد جاء المتصرف، انتهز محاولة الاغتصاب التى تعرضت لها وجاء يوقظها لمشروعه، مؤكداً حرصه وغيرته على شرف العائلة ومبدياً بشهامة وفروسية استعداده للإسراع بالزواج قطعاً لألسنة السوء التى تولغ الآن بشراهة فى سيرتها، لاشك أن أمها أرادت أن تدخل السرور على قلبها لأنه حتى بعد هذه الفضيحة، ووقوعها عارية أمام رجال القرية، ما زال هناك رجل كبير المقام يريد أن يتزوجها.

لم تجد فى نفسها رغبة لأن تدخل الآن معركة مع أمها التى مضت تقول كلاماً كثيراً عن أهمية أن تتزوج الفتاة رجلاً فى مكانه المتصرف، يوفر لها الحماية والآمان، لم تكن أمها قد تحدثت عن المتصرف بهذا الحماس من قبل، أدركت جميلة أن الحادث أفزعها فصارت تخاف عليها من أن تبقى

بائرة لا أحد يجرؤ على الزواج منها فى المستقبل الأيام، كتمت جميلة غيظها ولم تقل شيئاً.

- أنا ذاهبة.

فى صباح اليوم التالى ارتدت ملابس الخروج ووضعت فوق رأسها المنديل وأخذت الكتب والكراسات وقالت لأمها باقتضاب:

- أنا ذاهبة.

وقفت الأم تحول بينها وبين الباب تمنعها من الخروج كان عامر اليتيم قد غادر البيت مبكراً وترك لزوجته أن تتدبر الأمر مع ابنتها، أصرت جميلة على الذهاب، لم تجد قدرة على منعها أو إقناعها بالعدول عن فكرتها، أفسحت لها الطريق وارتدت لحاها لكى تصحبها،لكن جميلة سألتها أن تبقى فى بيتها لأنها ستذهب منذ اليوم إلى المدرسة بمفردها، سألتها بلهجة حازمة قوية أحست معها الأم بأن ابنتها قد خرجت من هذه المحنة امرأة أخرى لن تستطيع بعد اليوم أن تعارض كلمتها، قالت الأم باستسلام:

- إذن سأصحبك فى طريق العودة.

- لا حاجة بك لذلك، لأننى سأوزر أمى سعيدة بعد المدرسة.

قالتها أيضاً بلهجة لم تترك معها للأم فرصة أن تعارض أو تناقش أو تحتج.

ما أن خطت أولى خطواتها فى الطريق الى المدرسة حتى وجدت أطفالاً لا حصر لهم يتجمعون أمام البيت ويتطلعون بفضول إليها، لم تعرهم انتباهاً ولم تشعر نحوهم بأى غضب، وعندما صاح أحد الأطفال مقلداً الدرويش:

- يا ويلى من جميلة:

أحست برجفة خفيفة ولكنها سرعان ما تلاشت دون أن تبقى أثراً، كأنها سمعت صدى لذكريات حادث قديم أليم مرت أعوام على حدوثه.

كان نسيم الصباح يداعب وجهها ويعبث بأطراف المنديل الذى وضعته فوق رأسها، فتمد يدها لتسوية المنديل

ودس خصلات الشعر التى تمردت على المنديل، وخرجت تضرب وجهها، والشمس التى لم يمض على طلوعها سوى لحظات قصيرة تصنع لها ظلاً طويلاً يمتد أمامها فتسير تتبع ظلها ولا تنظر إليها ثم يواصلون سيرهم، كان مجتمع المدرسة ينتظر امراة منكسرة، مهزومة، يسربلها الإحساس بالخجل والعار ولكنها فأجاتهم بمظهرها المتماسك القوى رأها احد المدرسين وهى تدخل ساحة المدرسة متألقة، باسمه، كان الحادث زادها بهاء ونضجاً فقال يخاطب زميله:

- لعل من يرها من زميلاتها وقد ازدادت بهجة وجمالاً تمنت أن يرزقها ا بدرويش يهجم عليها.

رد الزميل عليها قائلاً:

- إن هذا المظهر الضاحك مجرد قناع لن يدوم طويلاً فوق وجهها، انتظر ساعة أو ساعتين وستراها كيف تنهار.

وعندما راى اليوم الدراسى ينهى دون أن تفقد مظهرها الباسم الوديع أدرك أن ا قد أنزل السكينة على

قلبها وأن لجميلة قدرة نادرة على صهر الآمها والانتصار على محنتها.

أمضت يومها الدراسى تدفع عنها فضول الطالبات برفق ولطف محاولة تجنب عنه ولكن الأرض ابتلعته.

لتبتله الأرض إذا شاءت فلماذا لا ينسون الموضوع تجاهلت جميلة حديثها قائلة:

- أريد أن أستعير كراسة لنقل ما فاتنى من دروسى وواجبات، ماذا يمكن للواحدة منا إن تفعل داخل جدران البيت لولا الواجبات المنزلية

- فتابعت الحاحها

- ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش فى الطريق مرة أخرى؟

- لعل الدور سيكون عليك أنت هذه المرة ، تركتها جميلة دون أن ترد عليها وعادت إلى مقعدها فى الغرفة الفارغة تراجع دروسها ،ظل السؤال يدور فى رأسها ، تخيلت مشهده وهو يعدو كثور هائج يرفع قرنيه فى الهواء

ويجيء كالعاصفة يغرسها فى جسمها ، كيف لعبيط أهبل مثل جمعة الدراويش أن يفعل ذلك ، لقد كان يأتى إلى بيتهم ويطوف بيوت القرية الأخرى فتستقبله النساء فى المطابخ دون أن يقمن له اعتباراً أو يجدن فيه رجولة تخفيفهن أو تقضى الاحتشام أو الاحتجاب فى حضوره كما يفعلن مع الرجال الآخرين ترسله أمها لقضاء الحوائج من الدكاكين فيذهب فرحاً وتقدم له طعاماً داخل المطبخ فيأكله شاكراً كيف يمكن لشخص فى وداعة الحمل وبلاهته أن يتحول إلى هذه الكتلة من الغرائز المتوحشة الهائجة هذه الحزمة من الأحطاب المشتعلة. ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش مرة أخرى لأمر ما لم يفزعها السؤال لقد مات الدرويش بالنسب لها.

قالت أمى سعيدة وهى ترى جميلة تقف على باب بيتها:

- ما أسعدنى وأنا أراك تخرجين من هذه المحنة متألقة كالشمس:

كان وقت غداء، قدمت لها طعاماً خبزاً وإداماً، ثم جاء بإناء نحاسى به بضع جمرات، وضعت أعشاباً يابسة فى الإناء، وسألتها أن تقترب وتستنشق الأبخرة التى ستحفظها من أعين السوء، ثم بدأت فى تلاوة الأدعية، ضاحكة أسلمت جميلة نفسها لرائحة الأبخرة النفاذة، ما جدوى أن تقول لأمى سعيدة الآن إنها لا تؤمن بأن أعين السوء يمكن أن تطفئها الأعشاب والأدعية وأن هناك هواء فاسداً أقوى من عبير هذه الأبخرة يملأ الدنيا، أغمضت ترتشف العبير وتسلم له حواسا وخلاياها، نسيت الهواء الفاسد وجاء خدر لذيذ يسربل جسمها كله ويوقظ فى نفسها رغبة لمعانقة الرجل الذى تحب، أحست بالأبخرة تملأ عينها وانفها وحلقها وتصيبها بالإعياء فاتكأت إلى إحدى الوسائد غطست فى غيبوبة جميلة تسلمها إلى عالم من الحب والأحلام، والأساطير وتطفو بجسمها فى الهواء

أتى صوت أمى سعيدة من خلف الدخان وأبخرة الحلم قائلة كأنها تقرأ أفكارها:

- جاءنى العيد ليلة البارحة.

وتوقفت تنتظر وقع الخبر على أسماع الفتاة، ولكن جميلة لم ترد كان الحذر اللذيذ مازال يسرى فى عروقها فلا تجد رغبة فى الكلام أو التعليق، أطلقت تنهيدة قصيرة ولم تقل شيئاً.

قضى الليل كله يبحث خلف الشعاب عن الدرويش.

كانت جميلة قد تمددت الآن بكامل جسمها فوق المندار، ساكنة مغمضة العينين كأنها نائمة، إنها الآن فقط وفى حضرة هذه المرأة يعبق بالمحبة والأمومة ورائحة الأعشاب المحترقة تستطيع أن ترتاح وأن تحس بالأمان فترفع الأغطية عن الأبخرة التى تملا قلبها، كان اسم الدرويش الذى جاءت على ذكرة أمى سعيدة قد ملأ حلمها الآن الثيران الهائجة تحاصرها وتنظر إليها بعيون ميتة، هى ليست ثيراناً تحمل الوجوه ملامح المتصرف والدرويش وقد

عجنت ومسخت فى وجه واحد، ثم رأت وجه والدها قد جاء وامتزج بها، واختلطت ملامحه بملامح الاثنين الآخرين، فهل صار هو أيضاً كائنا ممسوخاً فى ذهنها، ولأول مرة تسأل نفسها فهو سؤال يخص علاقتها بوالدها وإذا المسلمات التى تولد مع ميلاد الإنسان، فكيف لا يحب الأب ابنته، ولكنها الآن تستطيع أن تستحضر صور تلك المجتمعات البشرية القديمة التى كان فيها الأب يدفن ابنته وهى على قيد الحياة فهل كان ذلك الأب الجاهلى يحب ابنته؟ لعل تلك الفتاة الموءودة لم تسال نفسها سؤالاً كهذا وأخذت الأمر باعتباره إحدى المسلمات التى لا يجوز مناقشتها، إذا كان حقاً يحبها فكيف لا تهمه سعادتها كيف على أقدام رجل لا تريده ولا تحبه كأنها قربان يقدمه رجل وثنى لثور بعيون ميتة، جعل منه والدها إلهاً لأنه يرتدى الطربوش ويملك منصباً حكوميا، رأت الثيران تزحف نحوها تريد بها شرا ، فلم تجد اسما تستنجد به غير العيد، حركت باسمه شفتيها فجاء صوت أمى سعيدة يسألها إذا كانت تريد أن تقول له شيئاً، سمعت نفسها تقول وكأن كلماتها تصدر عن امرأة أخرى، كأنها تتحدث بلسان غير لسانها، سمعت نفسها تقول:

- أريد أن ألتقى به.

لم تفكر فيما قالته، حتى لو فكرت الآن وأدركت خطورته فإنها لن تستطيع أن تسترجع الكلمات التى قالتها، لقد خرج الأمر الذى كان رغبة دفينة عن إرادتها الآن، إنها بصدق تريد أن تراه وإديها شئ تريد أن تقوله له، فلماذا تتنكر لمشاعره وتطبق قلبها على رغبة بسيطة هى من صميم حقوقها، تعرف أن عالم النفاق والقيم الكابة التى عاش عليها الناس وتألفوا معها، لا يقر هذه الرغبة، لكن أمى سعيدة سوف لن تسئ فهمها ولن تمتنع عن تحقيق هذا اللقاء، لم تقل المرأة العجوز شيئاً ظلت تتأمل الفتاة التى عرفتها فهى لا تستطيع أن تعبر عنه أو تعبر عنه أو تطالب علانية به، ها هى اليوم تعرف بوضوح ما تريد، وما تريده الآن يخرج عن المألوف ويقفز فوق تقاليد القرية وأعرافها، فكيف تضرب الفتاة موعداً لرجل وتطلب أن تلقاه، إن هذا لا يحدث حتى بين الخطيب وخطيبته، إلا إذا كانت جميلة لا تعنى ما قالته أو قالته وهى غائبة عن وعيها ولم تنتبه لخطورة أن تقابل الفتاة رجلاً لا تربطها به أمام المجتمع أية رابطة، وفى وقت أعطى فيه والدها كلمته لرجل آخر كى تكون زوجته،

ولكن ألا يكون هذا السبب وحده كافياً لأن تسعى جميلة للقاء العيد، حتى لو كان هذا اللقاء مخالفاً للتقاليد، أليس زواجها من المتصرف ظلماً وعسفاً ًومخالفة لما يرتضيه ا من حق وعدل، فكيف تستطيع أن تؤمن لها لقاء بالعيد لا ترصده العيون، إن فى الأمر إخطاراً لا قدرة لجميلة على تحملها، قالت تحذرها:

- ما أغناك عن كلام الناس يا ابنتى.

فى تثاقل نهضت جميلة من مضجعا وقفت على باب الغرفة تهم بالذهاب، سألت أمى سعيدة فى لهجة باردة.

- متى اللقاء.
- قالت أمى سعيدة باقتضاب.
- سأتدبر الأمر.

(١٨)

صار المتصرف يأتى كل يوم إلى بيت عامر اليتيم.

ما أن يأتى المساء حتى يجئ مصحوباً بالمدرس الذى عهد إليه بمهمة محو أمية اليتيم استعداداً لموسم الانتخابات.

استسلم عامر اليتيم لنشوة المجد القادم مع الانتخابات الفكرة التى كان يرفض تصديقها، صارت تتحول فى عقله إلى طموح مشروع من حق أى إنسان أن يسعى إليه، إن الأمر كما أخبره المتصرف لن يقتضى منه سوى أن يجلس فى قاعة كبيرة مع الجالسين ويرفع يده موافقاً عندما يرفع الآخرون أيديهم،هذا كل ما يحتاجه عمل النائب من جهد، ليضحك المتنطعون أمام المقهى والسادرون فى ثرثراتهم أمام الدكاكين الفارغة ممن لا يحبون له الخير فسوف يصبح ورغماً عن إراتهم ممثلهم فى المجلس الكبير.

كان الناس قد عرفوا بأمر الدروس التى يأخذها اليتيم كل يوم استعدادا لدخول المعركة الانتخابية ،ويأخذون الموضوع على أنه مجرد نكتة ،وأن الرجل ضحية مقلب

دبره له المتصرف ،لان أحدا فى القرية لا يستطيع أن يصدق بأن عامر اليتيم الذى مازال يتمرن على النطق ولا يعرف موقع يده الشمال من يده اليمين يمكن أن يكون نائبا من نواب الشعب ،يضع التشريعات ويصدر القوانين ويناقش الوزراء ويدير مقدرات البلاد ،حتى لو كان مجلسا صوريا يزيف إرادة الناس ويمتثل لتعليمات الحكومة ،فانه يحتاج الى رجال يملكون دهاء وخبرة وقدرة على تصوير الباطل حقا والحق باطلا وتضليل العقول وإقناع الناس بأنهم يعملون لصالح الشعب كما يفعل الحاج عبد الجليل .

وكان المتصرف قد أعاد فى أحد مجالسه سوء الفهم الذى وقع فيه اليتيم عندما جاء ذكر الحضانة البرلمانية فظنها فرساً، تلقف شباب المقهى ومعلمو المدرسة هذه الحادثة وصاروا يتندرون بها ويضحكون من جهل اليتيم وسذاجته.

- لعله سيبدأ التدريب على ركوب الخيل استعداداً لامتطاء الفرس البرلمانية.

- كيف لا يرى نفسه مؤهلاً لدخول الانتخابات وهو يعرف أن الحصانة تريد حصاناً.

- أقول الحق إن حكومة مثل حكومتنا لا تستحق إلا نواباً مثله.

- لو حدث هذا فسأهجر التعليم وأتفرغ للصلاة والعبادة لأن فى الأمر علامة من علامات قيام الساعة.

وما أن عرف اليتم كيف يرسم اسمه حتى مضى مزهوا بين الناس يبحث عن أية فرصة أو أية ورقة يستعملها لاستعراض اكتشافه الجديد، صارت سجلات مستودع السيارات تمتلئ باسمه الذى يكتبه بمناسبة وبلا مناسبة، وكلما مر على دكان وقف عنده واشترى شيئاً وسأل صاحب الدكان أن يأتيه بالدفتر ليقيده ديناً عليه ليس لأنه لا يملك نقوداً فى تلك اللحظة، وإنما لأنه يريد أن يثبت للناس أنه صار قادراً على كتابة اسمه، وأنه أصبح الآن مؤهلاً لأن يحتل موقعه المناسب الجدير برجل عرف سراً عظيماً كهذا السر.

شئ واحد يفسد على اليتيم نشوته ويتذكره فيحس بالقلق كأن يجد تفسيراً لعنادها، ولا يرى معنى لهذا الرفض العنيد، إنه لا يجد تفسيراً لعنادها، ولا يرى معنى لهذا الرفض الغريب لرجل يحمل وعد الحياة الكريمة الرخية لها

ولأسرتها، مضى يتودد إليها ويتسامح فى ذهابها إلى المدرسة بمفردها وزياراتها لبيت أمى سعيدة ويحادثها بلطف وكياسة لعله يستطيع بهذا الأسلوب ترطيب خاطرها فترضى بما اختاره ا لها وتغنيه مشقة إرغامها مكرهة على الزواج من المتصرف.

انتهز فرصة الهداية التى جاء بها المتصرف، الحذاء والفستان والخاتم وحملها فى صندوق من الورق مربوطاً بأشرطة ملونة إلى داخل البيت، يسأل الأم أن تأتى بابنتها لترى الهدية، كان المعلم قد فرغ من إعطائه الدرس وغادر المربوعة، فى حين بقى المتصرف ينتظر أن يعرف أثر الهدية على أهل البيت بالغت الأم فى إبداء الحماس وقالت مبتهجة تخاطب ابنتها:

- أغمضى عينيك حتى يفتح والدك الصندوق ثم انظرى ما جاء به هذا الرجل المبارك من هدايا.

- قالت جميلة وقد استفزها حماس أمها وابتهاجها:

- لا أريد أن أرى هداياه.

أرادت أن تغادر الغرفة ولكن أمها أمسكت بيدها فجلست تراقب طقوس فتح الهدية ورفع الأشرطة عنها، أخذت أمها الفستان تشيد بلونه ونوع قماشه وأسلوب تطريزه وتسأل ابنتها أن تقف لكى تقيس طوله بطولها، ولكن جميلة لا تقف والأم لا تستسلم، أخرجت الحذاء تقلبه فى ضوء المصباح بجماله وأناقته وكعبه العالى، رأته لا يخلف أثراً فى ابنتها إلا الاشمئزاز والكراهية، ولكن لا يهم، فهى تعرف بحس المرأة ما للذهب من سحر على قلوب النساء، فتحت العلبة الصغيرة التى تضم الخاتم، رأته نائماً فوق القطيفة الخضراء، فمدت ببطء أصابعها إليه كأنها تلمس شيئاً مقدساً قابله لمسقط الضوء فبدأ مشعاً متوهجاً، أخذت يد ابنتها لتضع الخاتم فى إصبعها وهى صامته كأن خاتماً كهذا لا يحتاج لتعزيز مكانته بعبارات الإعجاب كلها لا يمكن أن ترتفع لوصف هذا الشيء الذهبى الذى يبهر بجماله وتوهجه الأبصار، ولكن جميلة بنفور وعصبية أبعدت يدها عن الخاتم وكأنه عقربة أو أفعى نظرت إليها الأم باندهاش كأنها لا تصدق أن فى الدنيا امرأة ترفض حلية كهذه، قالت جميلة بصوت أرادته أن يصل إلى إسماع المتصرف:

- لا أريد هداياه، ولا أطيق لمسها.

قالت الأم:

- لقد جاء بها إليك، فاسترينا مع الرجل يسترك ا من سيرتديها إذا لم ترتدها أنت؟
- لماذا لا يرتديها هو؟

قالتها بلهجة عارية من الخجل أغضبت والدها، لم تقاوم رغبتها فى الابتسام وهى ترى المتصرف وقد ارتدى الخاتم والفستان والحذاء النسائى ومن فوقهم الطربوش، لم يشأ والدها أن يصفعها أو يشتمها تأديباً لها لكى لا يثير مشكلة فى حضور المتصرف، وضع ابتسامة فوق وجهه وعاد إليه.

- أرجو أن تكون الهدية قد أعجبتهم.

قالها المتصرف متظاهراً بأنه لم يسمع الكلمات الجارحة التى قالتها جميلة، أحنى اليتيم رأسه استكانة كأنه يعتذر عن سلوك ابنته قائلاً:

- إنك دائماً تغمرنا بهذا الكرم الذى لا حد له، نسأل ا   أن يقدرنا على رده اك.

- تعرف أننى لا أبغى شيئاً إلا رضاء ا   ورضاءكم.

ما جاء بهذه الهدية اليوم إلا لتكون مناسبة للاتفاق على إعلان الخطبة، لقد ماطله اليتيم طويلاً، وهو يكره هذه المماطلة، لابد من حسم الموضوع الآن، فهو أيضاً اديه أشياؤه الأخرى التى أهملها جرياً وراء هذه الزيجة التى أنفق فى سبيلها وقتاً ومالاً وكأنه سيتزوج ابنة الملك، إنه يعرف أن جميلة ترفض فكرة الزواج منه ولكنه يعرف أيضاً أن النساء يتمنعن وهن الراغبات، ولذلك فقد قال دون أن يحس بالحرج مما سمعه من كلمات قالتها جميلة:

- أرى أنه قد حان الوقت لإعلان الخطبة.

لقد وجد اليتيم فى الامتحانات القادمة حجة يسوقها لتأخير الخطبة ولكن الانتخابات أيضاً على الأبواب، لن ينتهى الصيف إلا والحملة الانتخابية على أشدها، وهو يريد أن يضمن نصيبه من الصفقة أولاً، يريد أن يأخذ بيد ويعطى

باليد الأخرى، لا يرضى أن يحمل عامر اليتيم على كتفيه، يصعد به سلم المناصب العليا ويركبه الفرس البرلمانية قبل أن يركب هو أيضاً فرسه.

- يجب أن ننتهى من أمر هذا الزواج لكى نتفرغ بكل جهدنا للإعداد للحملة الانتخابية.

هكذا بلا مداراة ولا تغليف، فهذه أمور لا يجب أن يتركها مبهمة غامضة، لا وصول إلى مركز النائب قبل وصوله إلى جميلة، بصراحة يقولها، بل وقبل مباشرة الحملة الانتخابية وتسجل أسماء المرشحين، لكى لا يبقى أى مجال للشك أو الالتباس فى ذهن عامر اليتيم، ولكن اليتيم يريد وقتاً، يريد أن يمنح ابنته بضعة أسابيع تتعايش فيها مع فكرة الزواج، حتى إذا لم تقتنع بعد ذلك فسيكون من حقه عندئذ أن يرغمها كما يفعل أى أب مع ابنته، لقد خرجت لتوها من تجربة قاسية وليس من العدل أن يرمى بها إلى تجربة أخرى قبل أن تهدأ نفسها، فلماذا لا يعطيها وقتاً، اهتدى اليتيم إلى فكرة جديدة مضى يقولها بحماس للمتصرف الذى أبدى استعداداً طيباً لقبولها، وهى أنهم ليسوا بحاجة إلى خطبة يعقبها

بعد مدة طويلة حفل الزفاف، فما إن تنتهى الامتحانات حتى تعلن الخطبة ويتبعها مباشرة الزفاف وكتب الكتاب، وأن يتم ذلك كله قبل موسم الانتخابات بوقت كاف يسمح بالإعداد والتخطيط للحملة الدعائية.

(١٩)

مبهوراً بجمالها وباللحظة، جلس العيد صـامتاً يتأمـل السناء القادم من وجهها وخصلات الشعر التى تهدلت فـوق عينيها وخديها فلم تهتم جميلة بإعادتها إلـى مكانهـا تحـت المنديل السماوى الذى تغطى به شعرها، ولم يقل شيئاً، لقـد جلس طويلاً فى هذه الغرفة ينتظر قدومها ويعد فـى ذهنـه الكلمات التى سيقولها لها ولكنه ما أن يهم بقولها حتى يحـس بأنها عاجزة عن التعبير عن فورة المشاعر التى تغمره، بـدا له أن أى كلام سيكون إهداراً لهذه اللحظة المبهرة الرائعـة التى يرى فيها جميلة قريبةً منه محاط وجهها بغلالة الضـوء القادم من نافذة الغرفة ممزوجاً بأبخرة الأعشـاب المحترقـة كالحلم الذى أصبح وجهاً. تحولت الغرفة إلى سـحابة مـن الأبخرة والعبير تصفو بهما إلى عالم خلا مـن المعتـوهين والدراويش وأصحاب الدكاكين الفارغـة ولاعبـى الـورق

والأبراج السوداء والقيم الممسوخة الكاذبة، عالم أكثر بهجـة وبهاء، صار فيه البشر ملائكة واستعاد فيه الإنسان فردوسه المفقود.

لقد جاء منتشياً منذ الفجر إلى بيت أمى سعيدة ينتظـر قدوم جميلة، سألته المرأة العجوز أن يأتى مبكراً ولا يخـرج إلا بعد حلول الظلام فلا يرى أحد دخوله أو خروجه، وبذلك فإن جميلة عندما تأتى مع الظهر لزيارتها، لن يعلم أحد بـأن العيد موجود لديها، خططت لهذا اللقاء وكأنها تـدير خليـة سرية لقلب نظام الحكم، انتهت كلمـات الترحيـب الأولـى وجلس منتشياً بالنظر إلى عينيها، مزهواً لأنها ضـربت لـه موعداً وسألته أن يأتى للقائها وتحمل أن تخاطر مـن أجلـه بسمعتها، ولم يجد معنى لكل ذلك إلا أنها تحبـه بمثـل مـا يحبها، وأنه لا يريد شيئاً من الدنيا إلا أن تصبح هذه اللحظة عمراً، ولكن أمى سعيدة التى تركتهمـا يختليـان ببعضـهما للحظات قصيرة سرعان ما جاءت تبدد بكلماتهـا الصـمت وهى تحتج لأن الشاى الذى وضعته أمامهما قد تحول إلـى شراب بارد، وأضافت ضاحكة:

- ولكنكما ستشربانه شئتما أم أبيتما.

ناولتهما الشاى المصنوع من رحيق الأعشـاب، قـال العيد متجاوزاً حديث المحنة التى تعرضت لها جميلة لكى لا يفسد باستحضار ذكرياتها الأليمة جمال هذه اللحظة:

- لقد قدمت طلباً بنقلى إلى القريـة كمـا أراد عمـى اليتيم.

قالت أمى سعيدة:

- ولكن اليتيم لم يعدك بشىء.

- إنه لم يرفض.

وبلهجة قاسية كأنما أرادت أن تستثير بهـا مشـاعره، قالت جميلة:

- لقد أصبحت موعودة للذبح علـى شـرف السـيد المتصرف.

- ولكن ذلك مستحيل.

قالها العيد مذعوراً وقد صعقته المفاجأة وجعلت وجهه يحتقن بالدماء السوداء، وبأسلوبها العملى قالت أمى سعيدة:

- لقد نال موافقة اليتيم، وسيتم إعلان الخطبة ومراسم الزواج فور انتهاء العام الدراسى.

لم تكن جميلة تعلم أنه قد تم تحديد موعـد الزفـاف، نظرت إلى العيد فرأته مازال مذهولاً غارقاً فـى الغضـب والحيرة

- إننى لا أصدق ما أسمع.

قالت أمى سعيدة وقد رأت أنه آن الأوان لأن تتركهما يتدبران أمرهما:

- سأصعد إلى السطوح أطعم الدجاج، فلا تفتحا الباب لأحد ولا تردا عليه.

انتظرت جميلة حتى رأت أمى سعيدة تغادر الغرفة ثم أحنت رأسها نحوه وقالت بصوت هامس:

- لقد فكرت فى الأمر، إن أهلى يعلمون برفضى لهذا الزواج، ولكنهم إذا أصروا فليس أمامنا سوى حل واحد.

انتظر بلهفة أن يسمع هذا الحل، صمتت قلـيلاً وهـى ترى العيد يعلق عينيه وأنفاسه بانتظار الكلمات التى ستقولها:

- ومن أجل هذا أردت أن ألتقى بك.

لم يقل شيئاً فواصلت الحديث:

- لن يبقى أمامنا عندئذٍ سوى الهروب.

ظل العيد ينظر إليها مبهوتاً كأنه لم يستوعب ما قالته، جاءت كلمة الهروب تركض نحوه كموجة تحمل قارباً فـى زمن الغرق والفيضانات، الهروب، أخذ يدوّر الكلمـة فـى رأسه ويتأمل المرأة التى قالتها يبحث فى وجهها عن شـىء غفل عن رؤيته من قبل، لقد رأى جمالها وتعرف إلى سحره ولكنه لمن ينتبه إلى هذه القوة التى تبدت فـى شخصـيتها، لاحظ لأول مرة ذلك الألق الذى تشع به عينيهـا، اكتسـت شخصيتها بدفقة القوة والشجاعة مزيداً من المهابة والجمـال، أمن أجله هو تفعل جميلة كل ذلك، وتبدى استعدادها للهروب معه وتتخطى كل هذه الأسوار والجدران وأكـداس الطـين والشوك التى أقاموها حول قلب الإنسـان وعينيـه وأذنيـه وقدميه لكى لا يحب إلا ما يسمحون بحبه، ولا يرى إلا مـا يسمحون برؤيته، ولا يسمع إلا ما يريدونـه أن يسـمع ولا يمشى إلا فى الطريق الذى حددوه له، إن هناك فـى القريـة قصصاً تروى عن نساء هربن مع رجـال أحببـنهم، إنهـا حكايات أشبه بالأساطير، ولكن أن يحدث هذا أمام عينيه وأن يكون الهروب من أجله، وأن تكون المرأة التى تطالب به هى جميلة من دون كل النساء، فكيف سيجد الكلمات التى يعبـر

بها عن فيض المشاعر وهيجانها. رأته مملوءاً بالدهشـة لا يعلق بشىء فقالت تستحثه على الكلام:

- ولهذا فأنا أريد أن أعرف رأيك.

- إنها تضحية كبيرة تقومين بها، فهل أستحق أنا كـل هذا؟

نظرت إليه باسمةً ولم تقل شيئاً.

حركت ابتسامتها فى ذهنه عالماً أسـطورياً رأى فيـه نفسه يركب جواداً ويمتشق حساماً ويـذهب إلـى غريمـه المتصرف يدعوه إلى النزال وما أن يخرج إليه حتى يبـادره بضربة من سيفه تتركه مشطوراً إلى نصفين، ويعـود إلـى جميلة يأخذها معه فـوق جـواده، وينطلـق راكضـاً فـى الصحراء. ليته حقاً يجد وسيلة لإزاحته من الطريق بتهديـده أو بتحريك أهل القرية ضده، أراد أن يفكر بصـوت عـال باحثاً عن وسيلة يواجهه بها، ولكن جميلة قاطعتـه قبـل أن يصل بالفكرة إلى نهايتها قائلة:

- لا تفكر بشىء كهذا، إنه لن يعدم وسيلة يلفـق بهـا تهمة ترميك فى السجن ويضيع كل شىء.

قال وقد اتجه بتفكيره نحو عامر اليتيم لعله يجد طريقاً إلى قلبه، ويجنب امرأة فى رقة هذه المرأة وعذوبة ملامحها أهوال مخاطرة كهذه:

- ما أشد ما تغير عمى اليتيم.

وعندما لم تقل ابنته شيئاً، أضاف:

- ومع ذلك فسأرسل إليه والدتى طالبة يـدك بصـفة رسمية.

- لا فائدة ترجى من ذلك.

ولكنه لابد أن يستنفد كل الوسائل الأخرى لكى يبقـى الهروب حلاً أخيراً لا سبيل سواه.

وسريعاً انتهى اللقاء ووقفت أمى سعيدة تودع جميلـة وتربط خاطرها ببعض الكلمات التى أنهتها قائلة:

- لن يكون إلا خيراً بإذن اللّه.

بإذن اللّه، بإذن اللّه، تردد الصدى يملأ رأسـه، جـاء الظلام وعاد إلى بيته، ولكن الأمر صار تقليداً أشبه بطقوس وثنية حافظ عليها الناس منذ عصور ما قبل الفتوحات، وهو ألا تتزوج المرأة فى »قرن الغزال« من الرجل الذى تحـب، وألا يتزوج الرجل من المرأة التى يحـب، قـانون يمضـى

بعكس ما تريده الطبيعة وما تحتمه شرائع ونواميس الحيـاة، لم يكتبه أحد، ولا يقول به علانية أحد، ولكنـه نافـذ نفـاذ الطقوس والفرائض الدينية، اتفقوا جميعـاً عليـه وامتثلـوا لأوامره ونواهيه وزيفوا مشاعرهم وعـواطفهم مـن أجـل المحافظة على تنفيذه جيلاً بعد جيل، مـا أن تحمـل الـريح همسة تقول بأن رجلاً أحب امرأة وأراد أن يتزوجها حتـى يسارعوا بتزويجها من رجل آخر، كأن فى الأمر إثماً يجلب لهم المصائب والأهوال ويثير غضب آلهة لا يقـوى البشـر الفانون على مخالفة أوامرها. ويائساً أرسل أمه مـع بعـض أقاربه إلى بيت اليتيم خاطبة، عادت الأم من رحلتها خائبـة فلم تفاجئه النتيجة، قالت والغضب مازال يغطى ملامحها:

- إنها القطيعة بيننا وبين هذا اليتيم إلى الأبد.

صريحة قالها لهم اليتيم بأن على العيد أن يبحث عـن نصيبه فى مكان غير هذا المكان لأن ابنته قد تم الاتفاق على زواجها من رجل آخر وانتهى الأمر.

- لكننى لم أسكت له.

عرف العيد كيف أن أمه وقفت لليتيم فى وسـط بيتـه تصب عليه الشتائم واللعنات وتتهمه بأنه يبيع ابنته بيعاً لرجل

متزوج وله أبناء وبنات فى عمر ابنته لا أحد يعرف من أين جاء ولا نسب له ولا أهل وليس ذلك غريباً لأن اليتيم نفسه بذرة رجل تجند مع الطليان وذهب ليموت فى حروبهم لا أحد يعرف له أصلاً ولا أهلاً.

كان الخبر قد وصل إلى أسماع بعض أهل القرية ممن يعرفون العيد فرآهم يستوقفونه فى الطريق يستنكرون ما حدث ويسألونه فى فضول عن تفاصيل القصة، لم يظهر لأحد منهم غضبه ولم يطل الحديث معهم وإنما اكتفى بالقول إن الزواج قسمة ونصيب. ترك الشوارع والدكاكين وذهب إلى حيث يمكنه أن يختلى بأفكاره، وما أن وصل إلى مرتفع يطل على غابة النخيل حتى تناهى إليه صوت الدرويش يأتى من قبل الغابة:

- يا ويلى من جميلة.

عاد هابطاً وانطلق يعدو وسط غياط النخيل باحثاً عنه، لم يستطع أن يحدد المصدر الذى يأتى منه الصوت، فهو يبدو أحياناً قريباً وفى لحظات أخرى يبتعد ويتلاشى كأنه يأتى من خارج الغابة، تحمله الريح من الشرق فيتجه شرقاً.

يجد أنه ترك الصوت خلفه فيعود للعدو فـى الاتجـاه المعاكس.

- يا ويلى من جميلة.

كان جمعة الدرويش يقولها برعب وخوف، يمـد فـى حروفها حتى تصبح عويلاً كعويل النساء النائحـات، كأنـه يواجه الآن هلاكاً محققاً، أو كأن جميلة هى التـى تحولـت اليوم إلى قطيع من النمور ترد عليه الهجوم، رأى فى لحظة من اللحظات أنه اقترب من مصدر الصوت فأسرع فى العدو نحوه حتى بدا له أن بإمكانه أن يمد يده خلف النخلـة التـى بجواره ليمسك به، ثم فجأة اختفى النداء ولم يجد للـدرويش أثراً، فتش خلف الأشجار، رفع رأسه يتطلع إلى جريدها علّه تسلق نخلة واختفى بين سعفها وكرنافها وعراجين البلح التى لم تنضج بعد، ولكنه لم ير سوى حدأة تحـوم بـبطء فـوق رؤوس النخيل، انتظر أن يسمع نداء الدرويش مرةً أخـرى وعندما لم يسمع شيئاً نفض يده من الأمر وانكفأ عائداً إلـى مكانه، وما أن سار قليلاً حتى لاح الدرويش يتوسـد حجـراً ويتمدد فى ظل نخلة قصيرة يلامس جريدها الأرض، هجـم عليه يأخذ بأطراف ثوبه ولكنه اكتشف عندما رأى وجهه أن

الرجل ليس الدرويش وإنما عمران عامـل الفـرن يرتـدى أسمالاً كأسمال الدرويش، تغطيه الأتربة كأنه نام تحت الريح عاماً كاملاً، اعتذر للرجل بلهجة حارة وسأله بعد أن شرح له الأمر إن كان قد سمع مثله صياح الدرويش، فاجأه عمـران بقوله إنه أمضى وقتاً فى ظل هذه النخلة لم يسمع خلالها إلا صوت النخيل الذى يعارك الريح يقطعه بين الحين والآخـر صوت حدأة تأتى وتحوم فوق رأسه.

- لعلك كنت نائماً.

لم يكن عمران نائماً، كان يراقب الظل وينتظر مغيب الشمس لكى يعاود الحفر مرةً أخرى، هل كان الصوت مجرد وهم، هل صار مجنوناً يتخيل الأشياء ويسمع الأصوات التى يظنها حقيقة فيجرى يطاردها بين الأشجار، هل هو ترجيـع الصدى لتلك الأفكار التى تملأ رأسه عندما جاء إلـى هـذا المكان وقد أحالها صوت الحدأة إلى درويش يصـيح باسـم جميلة، إنه على يقين من أن الدرويش جاء يزرع صوته فى الغابة هذا المساء وما عمران إلا رجل أهبل ملأ عقله بـوهم الكنز وأقفله عن كل شىء آخر عداه، فلمـاذا يأخـذ كلامـه مأخذاً جاداً، إن الحديث مع عمران لا يكون إلا هـزلاً وإلا

اختلطت الأشياء وضاعت الحدود بين الجد واللعب، مضـى يتأمله وهو يتكئ بجواره تمثالاً للعناء والعبث، جاءت سـيرة الدرويش وجميلة تحرك فضول عمران وتدفعه لسؤال العيـد عن صحة ما يشاع من اعتزامه الزواج بجميلة، فرد العيـد ساخراً:

- ظننتك لاهياً عن أخبار الدنيا، ولكن لاتنس نصـيبى من الكنز عندما تلقاه، لقد أصاب الغلاء كل شىء ولـم يعـد المرتّب كافياً للإيفاء بالتزامات العرس والزواج.

ما أن يجد عمران فسحة من الوقت حتى يترك الفـرن ويأتى إلى أطلال القصر الرومانى بأطراف غابـة النخيـل يحفر الكنز الذى ورد ذكره فى أغنية شعبية تتحـدث عـن القصر، كانت أمه قبل أن تموت ترغمه ارغاماً على الحفر، فلقد جاءها هاتف فى المنام، وأخبرها بأن الكنز سيكون مـن نصيب ابنها عمران، ماتت الأم وتحول الهوس إلـى ابنهـا الذى حافظ على عمله بالفرن ولكنه ترك كل شـىء آخـر، هجر الجلوس فى المقهى والذهاب إلى المناسبات والأعراس، كما هجر الصلاة ولقاء الناس وصرف كل ما تبقى من وقته للبحث عن الكنز، لم يبق موقع حول تلك الأطلال إلاّ وحفره،

وعندما يقولون له إن اللّه لن يمنح الكنز لرجل هجر الصلاة، يجيبهم بأنه قطع على ربه عهداً بأنه سيبنى من أموال الكنـز مسجداً يعوض بأجره وثوابه كل ما فاته من صلاة، ويسألونه أحياناً ناصحين بأن يتخلى عن هـذا الـوهم فيضـحك فـى وجوههم ضحك من يعلم علم اليقين بأنه سيخطر بيـنهم ذات يوم قريب وقد تحول إلى ابن من أبناء الملوك، فقره صـار غنى، وأسماله تحولت إلى عباءة مطرزة بالحرير، وخرابـة الطين التى يسكنها أصبحت قصراً مليئاً بالخدم والنساء:

قال معلقاً على كلام العيد:

- لم أكن أعلم أن البحث عن الكنز سيأخذ كـل هـذه السنين وإلا ما كنت قد تركت الصلاة.

- وماذا ستفعل بالكنز عندما تلقاه.

قال مازحاً وهو يقوم من مرقده:

- أول ما سأفعله هو أن أتزوج جميلة وأتركك تموت غيظاً وحسرة.

- حتى أنت؟

أخذ فأسه ومضى فالشمس أوشكت على الغروب وهو لابد أن يحفر عند المكان الذى ينتهى إليه ظل الحائط فتلـك هى حدود المنطقة التى تضم الكنز كما تقول الأغنية.

بقى العيد وحيداً يراقب مشهد الغروب ويتمنى لـو أن جميلة بجواره الآن تبدد الإحساس بالوحشة التى تتركها فـى نفسه الشمس الغاربة، أراد استدعاء صورتها ولكنها تـرفض أن تأتى، إن مجيئها مشروط بتوافر ذلك الصفاء الذهنى الذى يغيب عنه الآن. اشتعل الأفق بمهرجان الألـوان، والشـمس دائرة حمراء تحفها مواكب السحب الموشاة أطرافها بالذهب والفضة كأنها صبايا العرس يرتدين أجمل الثيـاب ويأخـذن الشمس إلى مضجعها، عادت نداءات الدرويش تملأ رأسـه، ها هو قد جعل اليتيم عدواً له بعد أن أرسل أمه إلـى بيتـه تشتمه وتنشب معركة معه، وانتـزاع جميلـة مـن بيتهـا والهروب بها ليلاً صار الآن اختياراً وحيداً لا يملـك حـلاً غيره، سيهربان كما هرب كثيرون غيرهما، وسيجدان فـى مكان ما محكمة ترضى بعقد قرانهما، سوف يجن المتصرف ويرسل كل ما فى حوزته من شرطة للبحث عنهما، وقد يعمم البلاغات الكاذبة على مراكز الشرطة مدعياً بأنـه اختطـف

خطيبته اختطافاً وأنه مجرم يجب قتله، ليذهب إلى الجحيم هو وشرطته، سيبحث عن مغارة فى أحد الجبال ويقيم معها هناك إلى الأبد، أطبق الظلام على الدنيا وحطت قطعة منـه فـى قلبه، وجد نفسه يضيق بفكرة العودة المبكرة إلى البيت فاتجه إلى المقهى، تحلقوا حوله، شعبان وعاشور وسلطان وعـدد آخر من شباب القرية، يعلقون على ما حدث عندما ذهبت أمه إلى بيت اليتيم ظهر اليوم.

- لقد هجمت عليه كالنمرة تريد أن تقتله.

- كيف يسمح اليتيم لنفسه بأن يفضل عليك رجلاً من خارج القرية متزوجاً وأكبر منه سناً.

- لقد انتظرت قريتنا مئات الأعوام حتى تنجب صبية فى ملاحتها، أليس عاراً بعد ذلك أن يأتى هذا الرجل الغريب ويخطفها رغماً عن إرادتنا؟

- إن المتصرف يهزأ بنا ولا يقيم اعتباراً لمشاعرنا.

- يجب أن نطرده من قريتنـا إذا كنـا حقـاً أبنـاء المجدوبة.

جاء ذكر المجدوبة فنظر العيد حوله يفتش عما تبقـى من تلك المرأة التى أرهبت الصحراء، ألّفـت مـن أبنائهـا

عصابة تقودها بنفسها لقطع الطريق وفرض الإتاوات علـى القوافل التى تعبر الصحراء، وعندما أصبحت غنيـة ذهبـت إلى الحج وعادت تستقر بأبنائها قرب هذه الهضاب، وتتـرك صيتاً يجعلها مضرب المثل فى البأس والشدة. تلـك كانـت جدتهم ولكنه زمن ولّى وانقضى والنار التى أشعلتها لم يبـق منها إلا هذا الرماد الذى يملأ القلوب والعيون.

انتهت السهرة فقال العيد وقد أحس بدفء العواطـف التى أحاطوه بها تبدد شيئاً من سحب الكآبة التى تملأ صدره:

- لا تحملوا هماً، سأعرف كيف أتدبر الأمر.

عاد إلى بيته ونداء الدرويش الذى سمعه فـى الغابـة مازالت أصداؤه تتردد فى أدنيه:

- يا ويلى من جميلة.

(٢.)

قبل موعد عودته إلى المدينة التقى العبد بجميلة مرة أخرى

ذهب لانتظارنا فى بيت أمى سعيدة وعندما جاء تصافحه أبقى يده فى يدها وجلس على المندار بجوارها،

أحس بالوهج الذى انتقل إليه من يدها يذيب الهواجس التى ملأت ليلة ونهاره، إنه يخجل الآن من تلك اللحظات التى رأى فيها نفسه واهناً ضعيفاً لا يدرى كيف يواجه الموقف، اكتشف وهو يجلس ملاصقاً لها بأنه صار قوياً قادراً على خوض أكثر المعارك هولاً وتحقيق النصر فيها، وتمنى ألا يكون هذا الإحساس مجرد وهم يتبخر بمجرد أن ينتهى اللقاء معها، ولكنهما الآن معاً، وسيقيان معاً، ولن يستطيع أحداً أن يفرق بينهما، يكفى أن هذا ما يريدانه، بشهوة الحياة وإرادتها يريدانه، بدفق الحب وقوته يريدانه بمثل ما تحقق لهما هذا اللقاء الآن وفى هذه اللحظة وتحت سقف هذه الغرفة ورغماً عن إرادة الآخرين، فإن أحداً لن يمنع هذا اللقاء من أن يستمر ويتواصل، إن حبهما ليس إلا استجابة لنواميس الكون وقوانينه الكبرى، وتلبية لنداء الطبيعة ودورتها المتجددة الخصيبة، فكيف يمكن لهذه النواميس والقوانين أن تخذلهما، كيف يمكن للحياة أن تتحول إلى كرة تعبث بها ريح مجنونة لا تقيم اعتباراً لإرادة الإنسان وأعراس القلب وتسير بحياتهما فى اتجاه يناقض ما أرادته الطبيعة لهما، كان يريد أن يخبرها بقصة الدرويش الذى سمع صوته فى الغابة ويحذرها منه،

وعن المعركة التى نشبت بين أمه ووالدها ويسخر منها، ولكنه عندما رأى مسحة الحزن التى تغطى وجهها، ضغط برفق على يدها قائلاً:

- غدا سوف تصبح كل هذه المشاكل مجرد ذكريات نستحضرها لنضحك منها.

- ليت الحياة تسير وفقاً لما تشتهيه القلوب.

- ليس من العدل أن تسير بما تشتهيه قلوب المتصرفين فقط.

وجد نفسه مرة أخرى يقع فى شرك الحديث عن الأشياء التى تبدد هذا الصفاء، لكنها حقائق الحياة بكل قسوتها وعريها، مجردة من الحلم والأوهام الجميلة، مثل هذا العرق الذى ينز من يده الممسكة بيدها، لا يقتل بهجة التلامس ولكنه يلحق بهما ضيقاً يجعلهما يفكان عناق أيديهما لحظة ثم يعودان للتلامس مرة أخرى،سمعها تقول:

- لا يمر يوم إلا ويحط كسحابة سواء فى بيتنا، فأحس بالضيق والاختناق ولا أجد شيئاً أفعله سوى أن أشمته

وألعنه بدعوى أننى اشتم القطة التى جاءت تضايقنى وأرفع صوتنى بغية أن تصل إلى لعناتى كى يستحى وينتحى عن طريقه.

- تراودنى كل ليلة أحلام دموية، وأفاجئ نفسى متلبساً بالتفكير فى قتله.

أراد أن ينتهز فرصة وجودهما منفردين ويخبرها بما انتهى إليه تفكيره فى موضوع هروبهما.

- سأذهب غداً إلى المدينة وسأتدبر منذ الآن مكاناً آمناً نلجأ إليه، وما أن تنتهى من الامتحان حتى نكون قد اتفقنا على ساعة اللقاء وتدبر أمر السيارة التى تنقلنا.

نظر إليها يستطلع رأيها، وافق بإشارة خفيفة من رأسها، وجهها يفيض بالسلام والسكينة، كأن هذا الهروب ليس مغامرة تملأ القلب فزعاً، أضاف قليلاً:

- سنضعهم جميعاً أمام الأمر الواقع.

عادت أمى سعيدة تنضم إليهما، لم يكن أحد منهما قد فاتحها بما اعتزما القيام به،كانت جميلة ترجئ إخبارها الى ان يصبح هروبها امرا لا مناص له

ادركت امى سعيدة من سماعها للجملة التى قالها العيد ما ينوبان عمله

إذن فقد عقدتما العزم على الهروب ،كم تمنيت من كل قلبى ألا تصل الأمور الى هذا الحد.

قالت جميلة تدافع عن قرارها .

إنه الاختيار الوحيد الذى تبقى لنا.

نظرت أمى سعيدة بإشفاق إليها، هل ستتحمل أن تعيش منبوذة عن أهلها طوال حياتها، وهل تدرك ما يجلبه الهروب من عار عليها، وعلى أسرتها، إنه شر أهون عليها من الشر الآخر الذى أرادوه لها، ولكنها لا تستطيع أن توافق بسهولة عليه، جاء صوتها يحذر جميلة:

- إنك تحكمين على نفسك بقطع كل علاقة مع أبيك وأمك وأخوتك، قطيعة قد تستمر مدى الحياة.

ولكن جميلة لم تفكر فى هذه القطيعة، كل ما تعرفه أنها ضحية هؤلاء الأهل الذين يريدون تزويجها من رجل تمقت أن ترى ظله لا أن تعيش وتنام فوق راش واحد معه، تمنحه جسمها وتكون جارية له فكيف يكون هروبها ظلماً لهم، حتى لو كان الهروب انتحاراً فإنها تفضل الموت على هذا المصير الذى اختاروه لها.

كانت تريد توضيح ما يعتمل فى نفسها من مشاعر لعل امى سعيدة تفهم دوافعها، ولكن طرقاً عنيفاً على الباب مصحوباً بالدوشة والصراخ جاء وأنساها الكلام، وقفت وهى ترى العيد وامى سعيدة يقفان مثلها وينظران فى خوف اليها، كان هؤلاء الناس الذين يدقون الباب ما جاءوا إلا بحثاً عنها، ولأول مرة يبدو ذلك الخاطر المرعب الذى لم تفكر فيه من قبل احتمالاً قابلاً للتحقيق، ماذا لو أن المتصرف قد أرسل عيونه يتجسسون عليها، وقد اكتشف الآن أمر لقائها بالعيد فاستنفر أهل القرية يشهدهم على مروقها، الفضيحة والعار

لها ولعيد ولأمى سعيدة التى سيعتبرونها امرأة سوء تجمع الناس فى الحرام، اشتد الصباح واشتد الطرق على الباب مختلطاً بنباح الكلاب وأصوات الدجاج الذى أفزعه الصخب.

رأت أمى سعيدة أن أحداً إذا جاء لا يجب أن يراهما يجتمعان فى غرفة واحدة، سالت العيد أن يذهب إلى المطبخ المصنوع من ألواح الصفيح لأنه ليس فى بيتها غرفة أخرى سواه، فى حين رأت أن تبقى جميلة فى مكانها، خرجت وأقفلت باب الغرفة وراءها لا أحد يزورها فى مثل هذه القيلولة، توقع شراً وتظاهر بأنها نائمة فجاءت تفتح الباب وهى تتثاءب كان النوم مازال فى عينيها، وقفت قبل أن تفتح الباب تتنصت لأصوات الطارقين وتفكر فى طريقة تطردهم بها، لم تتبين إلا أصوات الأطفال الذين يصيحون بها أن تفتح الباب، فتحته فرأت عدداً كبيراً من الصبيان ينشئون زحاماً أمام البيت، كان أحد الجيران يحمل لوحاً ويصيح مبتهجاً بأنه صاحب "الختمة" فقد وصل فى دراسته القرآنية فى سورة "الجن"، وجاء يطوف مع بقية التلاميذ يجمعون الهدايا من الجيران ليقدموها للفقيه، استندت أمى سعيدة إلى الحائط تستلقط أنفاسها إثر الفزع الذى ألم بها وتمسح العرق الذى

تصبب من جنبيها ودخل فى عينيها، تستعيذ با من الشيطان الرجيم وتسأله أن يحمى بيتها من شر الجن والعفاريت، غابت لحظة ثم عادت تحمل لصاحب الختمة بيضاً وتدعو له بالنجاح.

ومسرعة غادرت جميلة البيت.

(٢١)

بأصابع مرتعشة أمسك المتصرف الورقة التى وجدها مرمية عند الصباح تحت باب البيت، وقف مذعوراً يعيد قراءتها وكأنها مكتوبة بحبر الشياطين:

"ارحل عن قريتنا واترك ابنه اليتيم فى حالها، وإلا سننزل بك عقاباً شنيعاً".

بيد لم تتعلم كيف تفك الخط جيداً كتب الرسالة التى لا تحمل توقيعاً سوى عبارة "أبناء المجدوبة" لقد سمع نتفاً من حكايات تتحدث عن امرأة ينسب الناس أنفسهم إليها اسمها "المجدوبة" ولكن من من أبناء هذه الداعرة تجرأ وجاء مع الليل يضع الورقة تحت بابه، لن يكونا لمتصرف إذا لم يجعله

مجدوباً مثل أمه، ويسومه عذاباً يتمنى مه أن تكون الساعة التى تمر به هى آخر ساعة فى حياته.

مهتاجاً وغاضباً طوى الورقة فى جيب سترته وضرب الباب وراءه، ومهتاجاً وغاضباً وصل إلى مكتبه، اقفل الباب بعنف وصاح وشتم يلعن المباشر الذى تأخر بإحضار القهوة، الورقة تحرق صدره، وإحساسه بالكرامة التى جرحت يجعله لا يقوى على الجلوس فى مكتبه، فظل يطوف كحيوان هائج داخل قفصه، يزوم ويضرب كفاً بكف ويصدر أصواتاً لا معنى لها، إنها ليست كرامته التى جرحت وإنما هى كرامة الحكومة، نعم الحكومة، الناس أنفسهم لا يضعون حداً فاصلاً بين شخصه وبين الحكومة، حتى اسمه ضاع ولم يعد أحد يناديه به، وعل احداً لا يذكره لأنه منذ أن صار مديراً ثم متصرفاً صار اسم الوظيفة هو اسمه، وصارت الحكومة هى أهله، وصار لا يرى لنفسه دوراً خارج هذا الدور ولا يعرف للحياة معنى خارج هذا المعنى، وكل ما يقوم به من أعمال إنما هو نابع من هذا اليقين، يقينه الراسخ الثابت إنه والحكومة شئ واحد، وأن ما يضر الحكومة يضره وما يفيد الحكومة يفيده، وإذا كان لا يضيره

أحياناً أن يضع شيئاً من المال العام فى ماله الخاص إذا حانت الفرصة ودون أن يعتبره غشاً أو سرقة، فما ذلك إلا لأن الحدود بين الخاص والعام قد ذابت وتلاشت، كثيرة هى المناسبات التى وجد فيها نفسه ينفق مرتبة ومدخرته الخاصة فى أغراض عامة مثل الولائم التى يقيمها فى بيته لضيوف الحكومة ومندوبيها عندما يزورون القرية، وهو عندما يغش الانتخابات لصالح الحكومة أو يلفق التقارير للإيقاع بأعدائها ومعارضيها ما ذلك غلا لأنه يرى أن الحكومة هى الحق وما عداها باطل، ومن عارضها مارق آثم استحق اللعنة والمطاردة، ويؤمن أن الحكومة لا يخدم أهدافها إلا من كان قوياً قاراً على فرض هيبتها وتنفيذ إرادتها بحزم وشدة، ولذلك فهو يسخر من أولئك الموظفين الذين يأنفون مثلاً من المشاركة فى تزوير الانتخابات أو تحطيم صناديق المرشحين المعارضين للحكومة باسم النزاهة واشرف والوطنية، إن ذلك ليس إلا جنباً وخوفاً وعجزاً عن الارتفاع إلى مستوى المسؤوليات الجسام التى يتطلبها العمل الحكومى لن تفلح أمة يلحق الضعف حكومتها أو يصيب الوهن والجبن موظفيها، وبدافع من هذا الإيمان كان يدخل معارك الحكومة بقوة

وشراسة وينفذ إرادتها بإخلاص واجتهاد ويتحمل تبعات ذلك كله بلا خوف ولا وجل، لقد كاد يتعرض للهلاك فى أحد المواسم الانتخابية عندما جاء أهل الدائرة غاضبين من تزييفه نتيجة الانتخابات يحملون الفؤوس يريدون قتله، لقد نجا من القتل ولكنه كان على استعداد للموت فى سبيل أداء على كسب ولاء الموظفين الذين يعملون تحت أمرته، فهؤلاء هم أدواته فى تنفيذ المهمات التى تكلفه به الحكومة، هم كتيبته التى يحارب بها ولذلك فهو يغدق عليهم الترقيات، يمنحهم العلاوات، ويشاركهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة، من أراد قرضاً أخذه، ومن طلب إجازة وقعها له بلا إبطاء، فصاروا يعتبرون عهده عهداً ذهبياً لم تشهد المتصرف فيه من قبل، وما أن سرى الخبر بين هؤلاء الموظفين بأن المتصرف، وحسب التعبير المتداول بينهم "يحيط به الدجاج الأسود" حتى بدوا جميعهم غاضبين لغضبه، أعلنوا حالة الطوارئ،وطردوا جميع المراجعين، واعتبره يوم حداد قبل أن يعرفوا سبباً لغضبه وهياجه.

قال بعد أن هدأت أعصابه قليلاً، يشرب القهوة ويخاطب كاتب الخاص:

- هذه بلدة لا ينفع فيها عمل الخير.

- لماذا لا سمح ا ؟

قالها الكاتب بلهفة وقد أدرك أن الفرصة قد حانت ليعرف السبب الذى أغضب المتصرف، سيرضى فضوله وفضول بقية الموظفين الذين ينتظرونه الآن ليروى لهم القصة، ولكن المتصرف لم يكن قدر قرر أن يطلع موظفيه على الرسالة التى تلقاها، ليس قبل أن يهتدى إلى الوسيلة التى يرد بها على أبناء تلك الداعرة قال دون إفصاح:

- يبدو أن هناك من لا يعجبه وجودى فى هذه البلدة.

كان الكاتب يعرف أن أمرا كهذا ليس جديداً وأن المتصرف لا يولى مثل هذه الأمور اهتماماً كبيراً، ما يهمه دائما هو رضا الحكومة لا المواطنين ولكنه قال بلهجة ممالئة:

- قطع اللسان الذى يتحدث عنك بسوء، هل ينسى أهل هذه البلدة أياديك البيضاء عليهم، هل ينسون شعير العلف الذى جئت به إليهم هدية من الحكومة ليكون غذاء

لأغنامهم فأكلوه هم وأطفالهم دون أن تعاقبهم أو تتوقف عن جلبه إليهم كل عام، هل ينسون المصنع الذى ستبنيه لهم فوق الرمال، هل وقبل أن يأتى على كل مكارمه قاطعه المتصرف قائلاً:

- إنهم ينكرون على الزواج من ابنه عامر اليتيم، هل أتيت منكراً عندما أحببت هذه البلدة وأردت أن أرتبط بها برباط المصاهرة الذى لا تنقطع عراه.

ثم أضاف بحدة:

- قد لا يعلم الناس هنا أن المتصرفين فى أماكن أخرى يحصلون على هذه الأشياء بلا زواج، فهل هذا جزائى عندما أصون الحرمات وأحمى الأعراض وارعى فيهم الشرع والقانون.

لم يجد الكاتب فى كلام رئيسه ما يرضى فضوله لمعرفة ما حدث بالضبط، تساءل قائلاً:

- ولكن من هم يا سيادة المتصرف هؤلاء الناس الذين يقولون عنك هذا الكلام؟

قال المتصرف منهياً الحديث:

- لا يهم الآن، سأعرف كيف أنتقم.

في المساء عاوده غضبه وعاوده هياجه وهو يزور اليتيم في بيته مبكراً على غير عادته ويطلعه على فحوى الرسالة، لم يكن اليتيم يظن أن المصاهرة التي ينوى عقدها مع المتصرف سوف تثير حفيظة أهل القرية بهذا الشكل العنيف، صار الآن خائفاً من الأذى الذى سيلحقه من جراء هذه المعركة التي تنشب الآن بينهم وبين المتصرف، خاصة إذا ما استعمل الرجل سلطته وشرطته للبطش بهم، سوف يعتبرون اليتيم هو السبب، سيعجزون عن مواجهة المتصرف وسيتحولون بحنقهم وثورتهم إليه، حاول تهوين الأمر على المتصرف فما هذه الرسالة إلا عمل من أعمال البطش الذى لا يستحق الغضب والانفعال.

قال المتصرف حانقاً:

- كيف لا أغضب وأنت تعرف ما قدمته لهذه البلدة من خدمات، هل أخرج منها في النهاية، مثل من يسلخ الحمير، لا لحم يطعم جوعه ولا رائحة طيبة تعلق بثيابه،

لكنهم إذا أرادوه سلخاً للحمير فليكن، سأعرف عندئذ كيف أسلخ جلود هؤلاء الحمير جميعاً.

كان اليتيم يتساءل بينه وبين نفسه عن هوية هذا الرجل الذى كتب الرسالة ووافته الشجاعة على أن يضعها للمتصرف تحت أنفه، ولا يجد فى ذهنه أحداً غير العيد، فهو الذى يملك دافعاً قوياً لارتكاب هذه المخاطرة ولكن العيد أكثر عقلاً من أن يقترف حماقة كهذه، خاصة وأن المتصرف نعت كاتبها بأنه جاهل لا يعرف كيف يخط حرفاً صحيحاً، من إذن؟ ولكن لماذا يجهد نفسه فى البحث عمن يكون إن فتح باب كهذا سوف لن يجلب لحياته سوى العواصف، والخير كل الخير هو أن ينسى المتصرف هذه الرسالة لأنه لو تابعها فسيكون كمن يحفر كثبان الرمال، لن يجلب الحفر إلا مزيداً من الرمل.

مضى المتصرف يتحدث عن نيته فى التنكيل بأهل القرية جميعاً إذا لم يكشفوا عن كاتب الرسالة ويقدمونه له لينال جزاءه، فقال اليتيم:

- إن هذا بالضبط ما يريده كاتب الرسالة وهو أن يفسد علاقة الود التى تربطك بأهل البلدة، فيتحولون جميعاً إلى أعداء لك.

- إذن اسمعنى جيداً.

كان واضحاً أن المتصرف قد اهتدى الآن إلى الوسيلة التى يرد بها على هذه الرسالة رداً ناجعاً.

- طالماً أن المسألة صارت تحدياً، فسأقبل التحدى وإذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل البلدة فعليك أن توافق على ما أقوله لك.

التقط أنفاسه قبل أن يقول:

- وهو أن تتم مراسم الزواج كلها اليوم، وفى هذه الليلة، دعونا نرى ماذا يستطيع أن يفعل أولاد الـ ... مجدوبة.

- لا حول ولا قوة إلا با .

قالها اليتيم وأبقى بصره معلقاً بوجه المتصرف، ها هو يكشف مرة أخرى عن براعته فى توظيف كل شئ

لمصلحته، كأن عقله رحى كبيرة لا يدخلها شئ إلا وتطحنه وتحيله إلى دقيق يصبح خبزا وطعاماً على مائدته، حتى هذه الرسالة التى أرادها صاحبها أن تكون تهديداً يمنعه من بلوغ أهدافه، وجد كيف يحيلها إلى شئ يسرع بتحقيق رغباته، وهذه الكلمات التى قالها اليتيم ليدفع عن نفسه شراً رآه يلوح فى الأفق ها هو يجدها توظف توظيفاً ماهراً ضده وتصبح هى الأخرى طعاماً لأحلام المتصرف ووسيلة لإرضاء شهواته.

ظل ينظر إليه مبهوراً بهذه القدرات العجيبة التى يملكها، مدركاً الآن أن الحكومة لا تختار رجالها عبثاً، ثم قال قبل أن يجد عبارات أفضل يتقى بها هذا المأزق الجديد.

- ولكن الأمر يحتاج إلى استعداد.
- سأتولى ترتيب كل شيء.
- لابد أن تمنحنى وقتاً.
- إذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل القرية فلم يبق إلا هذا الحل، وإلا ضاعت هيبتى وهيبة الحكومة.

حاول اليتيم بقوة أن يقنع المتصرف بجدوى الانتظار ولكن دون فائدة، وفى النهاية خضع لمشيئته واتفق معه على أن يبدأ العرس منذ هذه الليلة كما أراد، وفى الليلة التى تليها يكتب عقد القران لتصبح جميلة زوجته أمام ا والناس، على أن تؤجل ليلة الدخلة إلى ما بعد الامتحانات التى يحين موعدها بعد أيام قليلة فلا تحرم الفتاة من نيل شهادتها هذا العام، وضع المتصرف يده فى يد اليتيم يقرآن سورة الفاتحة قال مبتهجاً بعد ختام السورة:

لتملأ الزغاريد البلدة هـذه الليلـة، وليمـت بغـيظهم الحاقدون.

(٢٢)

سعيداً بانتصاره ذهب المتصرف يرسل وراء موظفيه وأعوانه لشراء المؤن ونحر الخراف وإحضار نسائهم لإحياء العرس الذى يريده أن يكون أعظم عرس تشهده القرية، فهو قبل كل شىء وبعد كل شىء عرس الحكومة وهيبتها التـى أراد بعض الصعاليك النيل منها، ومن أجل ذلك فقد جـاءت سيارات نقل الحكومة وخزانات الماء التى تجرهـا عربـات الحكومة وفتحت المخازن الكبيرة التى يحتفظون فيها بالخيام

والأبسطة والمصابيح والقدور للاحتفال بالمناسبات الرسـمية ونقلت جميعها إلى بيت اليتيم. وفـى سـاعات قليلـة أقـيم السرادق ومدت البسط وصفّت الكراسى وأضيئت مصـابيح الكهرباء بأعداد لا تحصى وجاء من يضرب الطبلة ويعزف الناى والمقرونة كما جاء من مركز الشرطة من يحمل سلاحاً يطلق به النار فى الهواء إظهاراً للفرحة والابتهـاج بعـرس المتصرف، وبعيون تمتلئ فضولاً تتوافـد الأطفـال الـذين أرسلتهم أمهاتهم لمعرفة الخبر يملئون ساحة الاحتفال أمـام البيت، وأرسل المتصرف عماله يدقون أبواب البيوت يدعون الناس لحضور العرس ويذهبون إلـى المسـجد والحوانيـت يدعون الرجال لتناول العشاء، ووجد أهل القرية أنفسهم فجأة أمام عرس لا يدرى عنه أحد شيئاً.

- إنه عرس كأعراس الجن، ما تدرى إلا وقد ضـج الليل من حولك فجأة بالموسيقى والغناء والبارود.

- قل إنه عرس كالموت، فالموت وحده الـذى يـأتى فجأة ويطلق حناجر النساء بالعويل دونما ترتيب أو تمهيد.

- ها هى الحكومة تذكر قريتنا بعـد إهمـال طويـل فجاءت تقيم بدل المصنع عرساً.

فاجأهم العرس فمنهم من ذهب مهرولاً يمنى النفس بوليمة عظيمة ويتقى غضب المتصرف ومنهم من أزعجه ما حدث فاختار البقاء فى البيت ومنع زوجته وأطفاله من الذهاب.

لم يكن قد جاء أحد من المعازيم عندما وقفت جميلة فى فناء البيت الداخلى تصيح فى وجه أمها وهى ترى الاستعدادات فجأة تقام لمباشرة العرس، غاضبة تبكى وتشتم المتصرف وتهدد أمها بالانتحار، سمع اليتيم صراخها وهو يشرف على بناء الخيمة أمام البيت فدخل مهرولاً يحتوى ابنته بين ذراعيه ويضع يده على فمها محاولاً إسكاتها قائلاً لها:

- إنك تفضحيننا أمام الناس.

بشراسة دفعته عنها حتى ارتطم بالجدار وسقط يتدحرج فوق الأرض، صرخت الأم وهى تدارى وجهها خجلاً ورعباً، قام اليتيم غاضباً وكأن بركاناً اشتعل فى صدره، تناول قطعة خشب وهجم على ابنته يضربها ويشتمها، حاولت الأم أن تمنعه عنها فبدأ يشتمها هى الأخرى لأنها أفسدتها بالتدليل ويشتم المدرسة التى ملأت رأسها

بالأفكار الغريبة فخرجت على آداب القرية وتقاليدها ويقسـم بأن الزواج سوف يتم فى موعده شاءت أم أبـت. انتزعـت نفسها من قبضته ونائحة ينزف الدم من جبينها هربت إلـى غرفتها وأقفلت الباب خلفها، وضج البيت بزغاريـد النسـاء القادمات لإحياء العرس.

ما إن وصلت أمى سعيدة حتى طالبت من فورها بـأن ترى جميلة، كانت أمها تعتذر للنساء قائلة بأنها كأى فتاة فى سنها لا تحتمل فكرة الفراق القريب عن بيت أهلها فلازمـت غرفتها وما أن يهدأ خاطرها حتى تأتى إليهن، لكـن نسـاء العرس يعرفن أنها تقول ذلك مداراة للحقيقة وخجـلاً منهـا، ويعرفن أن جميلة تجلس الآن فى غرفتها تندب سوء طالعها وترفض تزويجها من المتصرف لأنها تحب العيـد وتريـده زوجاً لها، إنها ليست أول ولا آخر فتاة فى »قرن الغـزال« يقوم والدها بتزويجها رغماً عنها، هن يعرفن ذلك ويعـرفن أيضاً أنه لا فائدة من مقاومة تقليد ظل لأزمانٍ طويلـة قـدر النساء فى هذه القرية وسيظل قدرهن لأجيال كثيـرة تـأتى، ولاشك أن جميلة بعد أيام سوف ترضى وسوف تقبل بقسمتها كما حدث لنساء كثيرات من قبلها.

هبت أكثر من امرأة تتطوع لمرافقة أمى سعيدة عند ذهابها لترى جميلة فى غرفتها، قائلات بأنهن سيشرحن لها الأمور التى لا تعرفها صبية لم تر دنيا مثلها، وسيقنعنها بالخروج من غرفتها للترحيب بالزائرات، إذ ليس من اللياقة أن يقام العرس فتغيب العروس.

قالت إحداهن ضاحكة:

- سأشرح لها تلك الأشياء التى سوف تلقاها عند العريس فتنسيها أمها وأبيها.

- سأتولى بنفسى تخضيب يديها وقدميها بالحناء هذه الليلة، إنه فأل سيئ أن يكتب الكتاب والعروس بلا حناء.

ولكن أمى سعيدة برفق سألتهن البقاء فى أماكنهن لأن هناك ما يكفى من الوقت للحديث معها فيما بعد، فلا داعى لخلق تظاهرة تفزعها، ثم ذهبت تطرق بابها، أدخلتها عندما عرفت أنها أمى سعيدة ثم أقفلت الباب، زاد بكاؤها حدة وهى ترى المرأة التى جلست تنتظرها فلم تتأخر عنها، لم تكن جميلة قد اهتمت بإزالة الدم الذى سال فوق وجهها وثيابها، أخذت أمى سعيدة منديلاً تمسح عنها الدم وتكمد الجرح الذى فوق عينها دون أن تسألها عما حدث.

- لم يخطر ببالى أنه سينقض علينا بعرس كأنه ضربة من ضربات القضاء والقدر.

واصلت جميلة البكاء وهى ترتمى فى حضنها:

- لابد أن أهرب هذه الليلة.

مهسترة، تنتفض وتبكى ظلت تعيدها.

- لابد أن أهرب الآن، لا أطيق أن أبقى فى هذا المكان دقيقة واحدة، لابد أن أهرب الآن.

لابد أن تهرب الآن، لأنها إن لم تهرب هذه الليلة فإنها لن تستطيع أن تهرب أبداً، غداً سيعقد القران وستكون فى عرف المجتمع ونظر القانون امرأة متزوجة، وسيكون الهروب بعد أن أصبحت على ذمة رجل آخر شيئاً مستحيلاً، لن تتولى المحكمة عقد قرانها مع العيد هذه المرة وإنما ستعاملهما باعتبارهما زانيين يستحقان السجن إن لم يكن الرجم بالحجارة حتى الموت كما كانوا يفعلون قديماً، أمى سعيدة تدرك رعب ذلك كله وتدرك ما تعانيه جميلة الآن من عذاب، ولكن إلى أين يمكن أن تهرب والرجل الذى تريد أن تهرب معه سافر بعيداً ولا سبيل إليه، وكيف يمكن أن تهرب ومن حولها عرس يمتلئ بالبشر والعيون والبنادق، حتى لو

انتظرت إلى أن ينتهى الحفل وتسللت مع الفجر خارج البيت فأين يمكنها أن تذهب خلال الساعات التى تفصلها عن طلوع النهار، وفى قرية صغيرة مثل »قرن الغزال«، سيكتشـفون بعد لحظات هروبها ويأتون لإعادتها وإرغامها على الذهاب إلى بيت الزوجية مجللة بالعار والفضيحة، الوقـت يمضـى وموعد عقد القران لا يفصلهما عنه سوى هذه الليلة ونهـار الغد، فما الذى يمكن عمله خلال ما تبقى من ساعات، لعلهـا تجد نصيراً فى زوجة المتصرف التى لابد أنها تجلس باكيـة فى بيتها، سترغمها على أن تفعل شيئاً هى الأخرى، سـتأتى بها فى يوم الغد وستأتى بأولادها وبناتها يقيمون مناحة فـى هذا البيت ويبطلون هذا العرس، وإذا لم يفلح ذلك كله فإنهـا ستقف لهم وسط الخيمة عند كتابة العقد، وطالما أن الشـرع يشترط موافقة المرأة فسوف تطالب علـى رؤوس الأشـهاد بإحضار جميلة وأخذ رأيها بحسب ما يأمر بـه الـدين وإلا أصبح عقد القران باطلاً وبات هذا الزواج حراماً، هم عـادةً يتظاهرون بإرسال من يأتى بموافقة المرأة قبل كتابة العقـد، يذهب ويعود ليقول إنها موافقة بدون سؤالها، إجراء شـكلى هم يقولون، ولكنها ستكشف هذه المرة لعبتهم وستمنع كتابـة

هذا العقد المجافى للقرآن والسنّة. وبكلمات مقتضبة حاولـت أمى سعيدة أن تنقل هذه الأفكار إلى جميلة التى توقفت منـذ لحظات عن البكاء وظلت شاردة، ساهمة، كأنها لا تعى شيئاً من كلام المرأة العجوز.

قالت جميلة من خلال شرودها:

- ماذا لو لم تفلح هذه الجهود؟

- ستفلح بإذن اللّه.

وبلهجة باردة خالية من أى انفعال قالت جميلة:

- عندها سأقتله وأقتل نفسى.

كان الجو ثقيلاً داخل الغرفة، والظلام صار دامساً، ولم تعبأ أى منهما بأن تضىء النور، فى حـين كـان الصـخب خارج الغرفة يبلغ منتهاه.

(٢٣)

وقبيل الفجر جاء الدرويش.

كان قد هبط مع منتصف الليل من أحد الشقوق التى يأوى اليها فى الشعاب القريبة، وجاء إلى مقره القديم بمقبرة القرية يبحث فى بقايا الندور التى يحملونها إلى ضريح سيدى

أبو قنديل أو بين أكداس القمامة القريبة من المقبرة عن شئ يسكت به آلام الجوع.

تناهت إليه الزغاريد وأصوات المغنين والعازفين تنطلق من بيت العرس، ورأى المصابيح الملونة تسطع فوق بيت اليتيم، نسى جوعه وتذكر جميلة، أدرك أنهم الآن يحتفلون بزفاف (جميلته) على رجل آخر، وضع طرف جلبابه فى فمه ومسكوناً بالغضب والجنون وانطلق يعدو باتجاه بيت العرس، رأى شبح رجل فى البعيد، ظنه شرطياً فارتد مفزوعاً خائفاً من القبض عليه، اختبأ فى الضريح وانتظر حتى توقف العزف والغناء، وقبيل الفجر بقليل انطلق الدرويش مثل كرة من النار حتى وصل بيت اليتيم، تسلق إحدى المواسير وجلس فوق سطوح الغرف الملونة لاهثاً يستطلع المكان،كأن أهل القرية الذين حضروا العرس قد عادوا إلى بيوتهم رأى على ضوء النجوم العازفين الثلاثة يحملون آلاتهم الموسيقية ويبتعدون، انتهى الصخب والضجيج وبقى الصمت، صمت لا يقطعه إلا غناء الجنادب والحشرات أو ثغاء شاة من الشياه التى تقبع فى الزريبة تنتظر الذبح، نظر من فوق السطح إلى غرفة جميلة، ازداد

اهتياجاً وازدادت عروقه انتفاخاً وصار يصدر فحيحا كأن أحداً أشعل فى جوفه ناراً، لم يجد قريباً منه سلماً أو مأسورة يتسلقها هابطا، أراد أن يقفز ولكنه عندما القى نظرة على فناء البيت ورآه عميقاً كقاع البئر عدل عن رأيه، وجد على السطح وتداً يشدون إليه حبل الغسيل، حاول أن يستعمل الحبل فتقطع بالشهوة وحلم الارتماء فوق جسد جميلة خلع جلباباً وبنطلوناً ممزقين، بقى عاريا من فوقه النجوم ومن خلفه الظلام، عروقه نافرة وأحليله منتصباً والنار فى جوفه تصدر فحيحاً لاهبا، بسرعة ربط أسماله بعضها ببعض وجدل منها حبلاً لكى يستعمله فى الهبوط إلى فناء البيت، شد الأسمال إلى الوتد وما أن تدلى جسمه متعلقاً بها حتى تمزق وسقط إلى الأرض، أطلق وهو يرتطم بالبلاط صرخة أخيرة، عالية، مدوية، كأنها انطلقت من حنجرة حيوان خرافى،ترددت أصداؤها فى جوف الليل فأيقظت البشر وأفزعت الطيور، وهبت الكلاب فى وقت واحد تملأ ليل القرية بالنباح، خرج أهل البيت مذعورين على ظهره فى فناء البيت، عارياً كيوم ولدته أمه، تهشم رأسه وسال الدم

خيوطاً تخضب وجهه، يده تقبض فى تشنج على مزق من ثوبه، وأحليله نافر.

تواقد الناس من أركان القرية الأربعة بجلابيب نومهم يفركون أعينهم بأيديهم ويسألون بعضهم بعضاً عن سر هذا الصراخ الغريب الذى انطلق من بيت اليتيم، وجدوا أن سيارة الشرطة قد سبقتهم وتوزع أفرادها يعاينون المشهد ويمنعون الناس من الاقتراب، عرفوا أن الدرويش وجد عارياً فى بيت اليتيم، وهو مهشم الرأس، أخذوا العناصر الأولى للقصة وصاروا يضيفون إليها، ويعيدون خلقها وروايتها بأشكال مختلفة، فالدرويش فى إحدى هذه الروايات لم يمت لأنه سقط من السطح، وإنما لأن اليتيم اكتشف أمره عندما جاء هاجما على دار ابنته فضربه بعمود من حديد على رأسه وحطمه، ورواية أخرى تقول بان جميلة عندما استيقظت مرعوبة على جسد الدرويش يرمى فوقها عارياً مدت يدها إلى جرة من الجرار وكسرتها فوق رأسه، تنوعت الروايات، وبدأت الشرطة تباشر روتينها، جاء من عاصمة المحافظة ضابط يتولى التحقيق كما هى العادة عند حدوث مثل هذه الفعلة، واعتبر كل من كان موجوداً فى البيت ليلتها متهماً حتى

يتجلى الأمر، اعتزل اليتيم الناس ولم يعد أحد يراه إلا أثناء ذهابه إلى مركز الشرطة عندما يستدعونه للتحقيق،لا أحد يزوره سوى المتصرف الذى كان يحرص على حضور جلسات التحقيق بنفسه مؤكداً لليتيم بأن الأمر لا يعدو كونه استكمالاً لبعض الإجراءات الروتينية التى لا تناله أسرته بشئ يمس الشرف، ومريض لازمت جميلة الفراش، أصابها مشهد الدرويش وهى تراه ملقى على تلك الشاكة فى فناء البيت بصدمة جعلتها تفقد توازنها وتسقط أمام الدار مغشياً عليها، وعندما أفاقت ورأت أن إجراءات العرس قد توقفت، أدركت أن حلقة من حلقات العذاب قد انتهت وأسلمتها إلى حلقة أخرى، كانت تحس بحزن غامض نحو الرجل الذى مات كأنها مسؤولة عن مصرعه، ظل مشهد موته لاصقاً بأهدابها، ما أن تغمض عينها حتى تراه فتقوم مفزوعة من نومها، كان الدم الذى وجدوه يلطخ أحد فساتينها سبباً للاشتباه بها وإدخالها دائرة التحقيق، ونقلها إلى مستوصف القرية لأخذ عينات من دمها، مرات أيام ثقيلة قبل أن تأتى نتيجة التحليل من المعامل الطيبة فى المدينة، بان الدم الذى وجدوه على الفستان إنما هو دمها وليس دم الدرويش، وبعد أن

انتهى التحقيق إلى أن موت الدرويش كان موتاً عرضياً بسبب وقوعه من فوق سطح البيت، ظلت تلك السحابة التى أحدثتها الفاجعة معلقة فوق بيت اليتيم، لا تذيبها شمس الصيف القائظة ولا تزيحها من مكانها رياح القبلى المحملة برمال الصحراء.

اقتنعت الحكومة ببراءة اليتيم، ولكن خيال القرية ظل مولعاً بالحكايات التى صاغها رافضاً أن يتخلى عنها، ومقهى القرية تحول إلى فم لا يجد علكة يمضغها أفضل من هذه العلكة:

- ما هى صداقة اليتيم للمتصرف تؤتى نتائجها، تنجيه من تهمة القتل، وتبعد عنه حبل المشنقة.
- ذهب الدرويش ضحية الحب الأعمى، وقد يصبح قبره ذات يوم مزاراً للعاشقين.
- من كان يظن بأن للدرويش هذه القدرة العجيبة على الحب، حتى بعد أن مات ودفن بقى ذلك الشئ واقفاً.
- جسمه فى القبر ولكن روحه المعذبة ستظل تسكن بيت اليتيم إلى الأبد.

كان العيد قد دخل المقهى، ووقف بجوار سلطان وهو يصنع له القهوة، متجنباً مشاركة الآخرين الثرثرة ولعب الورق، متأملا صراع الآلهة الرومانية فوق جدران المقهى، رأى كيوبيد يملأ جرابه بالسهام ويستعد لإطلاق إحداها، فتساءل بينه وبين نفسه منذ متى ظ هذا السهم مشدوداً بين القوس والوتر دون أن ينطلق.

قال عاشور غامزاً بعينه العيد:

- ما اتعس مصير من يحبك يا جميلة يا ابنة عامر اليتيم

دعابة ضحك لها رواد المقهى، ولكن العيد ونقيضاً لما يعرفون عن طبعه الهادئ، فاجأهم بأن تحرك من مكانه غاضباً وهجم على الرجل يضع يديه فى عنقه، تعاون عدد من الرجال على فك الاشتباك بينهما وسحب العيد بعيداً عن عاشور.

- سأقتلك إذا عدت لمثل هذا القول.

متبرماً بالمقهى ورواده الذين صار حياة جميلة طعاماً لأقاويلهم وشائعاتهم، ترك فنجان القهوة دون أن يمسه،

وذهب متسكعاً فى الطرقات على غير هدى، وجد نفسه يطوف قريباً من بيت اليتيم دون أن يجرؤ على الاقتراب منه، ها هو يبعثر أيامه فى القرية، استنفذ مدة الإجازة، وتخلى عن مطالعة دروس الجامعة، وظل ضائعاً يفتعل المعارك فى المقاهى ويحوم بينها كالطائر الذى هدموا عشه، دون أن يجد سبيلاً إلى رؤيتها، شاهد من مكانها البعيد أمى سعيدة تخرج من بيت اليتيم يتبعها كلبها، انتظر حتى وصل إلى بيتها وذهب إليها، كان ق زارها مرة واحدة منذ عودته إلى القرية إثر موت الدرويش، سألها بلهفة وهى تضع أمامه كوباً من رحيق الأعشاب.

- أخبرينى كيف حالها.

- غداً سوف تذهب إلى المدرسة لأداء الامتحان.

قال مبتهجاً:

- إذن فقد تعافت.
- لم تتعاف بعد، ولكنها قالت بأن المرض لن يمنعها من أخذ الشهادة هذا العام.
- ألا يضر ذلك بصحتها.

- لم أستطع إقناعها بالعدول عن هذه الفكر، لقد صارت عنيدة، إذا ما حددت لنفسها هدفاً لا تتنازل عنه أبداً.

منحته هذه الكلمات بعض الطمأنينة، فهو أيضاً يقع ضمن دائرة أهدافها، ثم إنه يريدها قوية قادرة على مقاومة كل هذه القوى التى انطلقت من كهوفها تبغى بها شراً، إنه يحبها ويريد أن يكون عوناً لها ولكنه يرى نفسه عاجزاً عن تقديم أى شى يدفع عنها هذا العناء الذى تلاقيه، إنها مثل إلهة أحبت إنساناً فانياً ودخلت حروباً مع آلهة الرعد والبراكين والعواصف المرسومة على جداريات المقهى، وهى الإلهة الرقيقة التى تصنع الخصب وتحمل فى جعابها سهام الحب وتعشق بالشهب والنيازك ويثيرون فى وجهها الصواعق والبراكين والعواصف، وهو ملتصق بالأرض، يرقب فى عجز هذه الحرب ولا يجد القدرة على أن يفعل شيئاً.

لعله لو رآها لاهتدى إلى شئ عظيم يفعله من أجلها، إنه على يقين من أن لقاء يتم بينهما سوف يفجر فى نفسه القوة ويلهمه ويلهمها طريقاً للخلاص، قال يخاطب المرأة العجوز:

- كيف أستطيع أن أراها.

- لا أعتقد أن الوقت مناسب هذه الأيام.

إنه أيضاً يعرف ذلك، ولكن ما حيلته والعطش لرؤيتها يحرق حلقه، حاول أن يجد كلمات قادرة على احتواء هذا الصخب الذى يضج به صدره، لعل أمى سعيدة تجد سبيلاً لنجدته، لكن الكلمات عاجزة وأمى سعيدة لا تملك لعونه سبيلاً، كان من رأيها أن يعود إلى عمله ودراسته وأن يدع هذه الأيام الثقيلة تمر فلن يحدث شئ فى المستقبل القريب يستوجب منه البقاء.

قالت وهو تودعه:

- كل شئ بأوانه، فلا تجزع يا ولدى ولا تتعجل الأمر.

قال فى نفسه:

- امرأة مباركة، تعرف ما لا نعرف، وترى ما لا نرى.

(٢٤)

جاء مصرع الدرويش فأوقف العرس ولكنه لم يطفئ نهم المتصرف للفوز بجميلة، أو ينقص من رغبته الأكيدة فى إتمام الصفقة التى عقدها مع والدها، إنه الآن أكثـر حماسـاً

وتصميماً على اتمام العرس، والدرويش الذى لقى مصـرعه وهو يسعى إليها لم يزد عواطفه نحوها إلا توهجاً واشـتعالاً لقد أيقظت بجمالها العواطف الميتة لدى رجل لا عقل له، ولا رجولة فيه،حتى لقى حتفه فى سبيلها، فكيف يتركها من يملك عقلا كعقله ورجولة كرجولته، لم يخطر بباله لحظة واحدة أن انتهاء العرس على تلك الطريقة الفاجعة، يعنى نهاية أحلامه فى أن يأخذ جميلة إلى بيته زوجة جديدة يضيفها إلى زوجته الأولى، بل بالعكس من ذلك، إن الحادثة التى اعتبرها الناس نذيراً بهدم ما بناه، لا يعتبرها المتصرف إلا تعزيزاً وترسيخاً لهذا البناء، وإذا كانت قد زرعت هماً عظيماً فى بيت اليتيم، وجعلت ابنته أكثر ضعفاً وهواناً فمعنى لك أن مركـزه الآن فى مواجهة جميلة أكثر تفوقاً وقوة، إن المقاومة التى أبـدتها لفكرة الزواج منه سوف تتضاءل وتنهار بعد أن جاءت هـذه الضربة تكسر روحها المتكبرة العنيدة، وستأتى الآن إلى بيئة طائعة، ذليلة، مرة أخرى يجد المتصرف نفسه قـادراً علـى استخلاص نتيجة تخدم أغراضه من بين أنقاض الكارثة، ولقد حرص على أن يعرف كل الناس أنه ما زال وفياً لكلمته، لا يتخلى برغم الظروف الحالكة ورائحة العار والفضيحة مـن

إنسانة بريئة مثل خطيبته، ويطلق على بيت اليتـيم تسـمية جديدة هى "بيت صهرى" إذا كان عقد القران لم يكتب كمـا كان مخططاً له، فإنه لا شى يمنع من اعتبار الحفل الذى أقيم حفل خطوبة، واعتبار جميلة منذ ذلك اليوم خطيبته التى لـن يهنأ حتى يراها تتمدد كجدول العسل فوق سريره، ولقد انتهى الآن موسم الامتحانات، والحادث الذى عطل إتمام العـرس تقادمت عليه الأيام، وصار من حقه على اليتيم أن يفتح معه الموضوع ويحددان معاً يوماً قريبـاً لعقـد القـران وإتمـام الزفاف.

كان اليتيم قد مل جلوسه الدائم فى مربوعة البيـت، فصار على حياء وخجل يعود إلى حياة القرية ويصبح جزءاً من دورة أيامها الرتيبة، يذهب بانتظـام إلـى عملـه فـى المستودع، ويرتاد السوق يوم الجمعة ويذهب بانتظام إلـى عمله فى المستودع،ويرتاد السوق يوم الجمعة، ويذهب أحياناً إلى الحلقات التى تعقد أمام الدكاكين فى المساء، وجد فتـوراً واضحاً فى لقاء الناس به، وعزوفاً عن الحديث معه، اختفت تلك البهجة التى كان يراها فى أعين الناس عنـدما يلتحـق بمجالسهم وروح الدعابة التى يستقبلونه بها، لعل سلوكه إزاء

ابنته، أو انطفاء الأمل فى قلوب الرجـال الـذين يحملـون بالزواج بها بعد أن صارت موعودة للمتصرف، أو تفضـيله لرجل غريب عن القرية ليكون صهراً له بـدلاً مـن أحـد أبنائها، أو مصرع الدرويش فى بيته وما رافـق ذلـك مـن قصص واتهامات، لعل سبباً من هـذه الأسـباب أو لعلهـا مجتمعة هى التى أسهمت فى خلق هذه الجفوة بينـه وبـين الناس، أو لعله دافع آخر لا علاقة له بما تذكره من أسـباب وإنما بهذا الصيف الذى جاء ليكون أقسى فصـول الصـيف التى عرفتها القرية منذ أعوام، محمـلاً بـالعرق والـذباب وزوابع الرمل، يملأ العيون بالغبار ويذيب الطراوة فى قلوب الرجال، فيصبحون هم أيضاً أكثر قسوة وخشونة.

وبرغم أن أحداً لم يحاول يوماً استثارة مشـاعره أو الخوض معه فى موضوع من المواضيع التى لا يودد إثارتها أو سؤاله حتى من باب الفضول عن تفاصيل التحقيقات التى أجريت معه، بالرغم من ذلك فقد أحس بأن شـرخاً عميقـاً يصعب سده قد أصاب علاقته بهؤلاء الناس، إنه يـذكر الآن بحنين بالغ تلك الأيام عندما كـان مهمـلاً، لا يهـتم أحـد بحضوره أو انصرافه ولا يثير من حوله غضباً ولا نفـوراً

ولا بهجة ولا رضى، لقد كانوا هم أيضاً بالنسـبة لـه كمـاً مهملاً لا يهتم بهم ولا يعبأ برواحهم ومجيئهم، لقد كان غائباً عن الدنيا، أو لعله لم يكن غائباً عن الدنيا وإنما غائب عـن الناس، كان فى الدنيا كالريح اللينة التى تمر فلا تثير مشاعر أحد ولا تسعى لجلب اهتمامه، وكان مثل الـريح حـراً، ولا يرى هذا الصراع الذى ينشب بين النـاس ولا يحـس بهـذا الحصار الذى يحس به الآن ويجعله أكثـر ضـيقاً وتبرمـاً بالناس والحياة، لقد انتهت بسرعة حفـلات التكـريم التـى أقاموها له عندما عاد إليهم وأصبح واحداً منهم، لقـد كـان مجرد احتفال قصير مثل الذى يقيمونه لرجل عاد إلى القرية بعد غيبة طويلة، ثم ما يلبث هذا الرجل أن يصبح جزءاً من معاناتهم وأشجانهم وخصوماتهم وأحقادهم، إنه ليس غاضـباً من أحد، ولكن العبء كبير، لقد جاءت يد خفيـة، مجهولـة تدفع به من ظهره ليقفز من مكانه على السور إلـى داخـل الميدان الذى تدور فيه المعارك والصراعات ويصبح طرفـاً فيها، إنه لا يستطيع أن يعود كما مهملاً، بريئاً وحـراً كمـا كان، وعليه أن يواصل السير إلى آخر الشوط.

وجد اليتيم فى المسجد ملجأ هادئاً يبعده عن صخب الأسواق وحلقات النقاش الدائر أمام الدكاكين فاكثر من التردد عليه، رأى الشيخ نصر الدين، أمام القرية وعالمها الجليل، يرحب به ويبش فى وجهة ويظهر له وداً لم يعتقد أن أحداً فى القرية ما زال يحتفظ له بمثله، فأقبل على صحبته، وصار يواظب على حضور صلاة الجماعة فى الأوقات الخمسة، ويتأخر أحياناً بعد صلاة المغرب للجلوس على المحراب أمام المسجد يستمع إلى أحاديث الشيخ ويستفيد من علمه وتقواه، ويجد فى الجلوس إليه راحة وطمأنينة تمسح عن قلبه عناء النهار، بل صار أحياناً يدعوه إلى تناول الشاى فى بيته بعد صلاة العصر فيبقل الشيخ نصر الدين عزومته شاكراً، وتجرأ اليتيم ذات يوم وسأله أن يبارك البيت لئلا تكون روح ذلك المجنون الذى مات صريعاً قد سكنته كما يروج بعض الناس، فطاف الشيخ بكل غرف البيت مرتلاً التسابيح والأوراد، وداعياً لليتيم بالبركة ولبيته بالطمأنينة والسلام، كانت جميلة لا تزال فى تلك الأيام مريضة تلازم فراشها عندما جاء والدها يصحب رجلاً بدينا، قصير القامة تغطى

اللحية البيضاء صدره، عرفت أنه الشيخ نصر الدين الـذى أبلغتها أمها منذ لحظات بأنه سيأتى ليبارك غرفتها كما فعـل مع بقية غرف البيت، دخلت الأغطية وعادت إلى النـوم إلا أن والدها جاء يسألها أن تقوم وتقبل يد الشيخ وتتلقـى منـه البركة، رأته يمد نحوها يداً يغطى أصابعها شـعر كثيـف، وضعت فمها فوق الأصابع وهى تغمض عينها، ثم انصرف إلى قراءة أوراده وغادر بعدها الغرفة.

وبمثل ما كان اليتيم حريصاً على صـداقته الجديـدة للشيخ نصر الدين فقد كان حريصاً على العلاقة التى تربطـه بالمتصرف، مؤمناً بأنه أسبغ عليه عطفاً كبيراً عندما منحـه بيتاً جديداً، وعملاً كريماً مريحا، ووقف بجواره فى أوقـات الشدة والضيق، ورأى فى صداقته للشيخ نصر الـدين مـن جهة، وعلاقته بالمتصرف من جهة أخرى شـيئين يكمـلان بعضها البعض، قطبين ترتكز عليهما حياته ويمنحانها توافقاً وانسجاماً، أحدهما صار فى ذهنه معادلاً للدين والآخر معادلاً للدنيا، فهو هنا فى رفقة الشيخ وحمايته، وارتيـاد المسـجد وإقامة الصلاة فى أوقاتها يعمل لآخرته كأنه سيموت غداً، أما فى صحبته للمتصرف فهو يعمل لدنياه، كأنه سيعيش أبـداً،

كلاهما يكمل الآخر ويمنحان حياته غطاء يقيه عثرات الدنيا وظلمات القبر، لاحظ خلال هذه الأيام التى أعقبت الحادث أن المتصرف تجنب الحديث فى موضوع العرس طوال هذه المدة، فارتاح لذلك وتمنى أن يستمر الأمر على هذه الحال، ما ضر لو تأخر هذا الزواج الذى جاب إليه المشاكل لمدة عام آخر، فالمتصرف لن يصبح فجأة شيخاً هرماً وابنته لن تربى أجنحة وتطير، وهو لن يتراجع عن كلمته التى أعطاها للرجل طالماً أوفى بوعوده، كل ما فى الأمر أن ذلك يتيح لكل الأطراف وقتاً يتجاوزن فيه آثار هذه الفاجعة، ويتيح لابنته زمناً كافياً تطيب فيه نفسها لهذا الزواج الذى تنفر منه الآن، فلا يبقى مضطراً لإكراهها عليه، إنه ما زال لا يفهم لماذا ترفض ابنته رجلاً بيده مفاتيح النعيم الأرضى، إن كل أب فى القرية يتمنى مصاهرة رجل له نفوذ المتصرف وسلطانه، فلماذا تريد أن تقفل باباً فتحه ا عندما سخر هذا الرجل يغترفون من خيره، ولكنه أدرى بمصلحتها وسيعمل ما يراه نافعاً لمستقبلها، وهو على يقين من أنها ستفهم ذات يوم دوافعه وستدرك الخير الذى أراده لها من هذه الزيجة، فليت المتصرف يساعده بقليل من الصبر وقليل من الوقت،

ولكنه يعرف فى دخيلة نفسه أن المتصرف لن يستمر طويلاً فى سكوته وأنه الآن وبعد أن أكملت ابنته امتحاناتها،سـوف يأتى ليطالب بحقه فى إتمام العرس الذى بدأ ولم يتم، تـرى ماذا سيقول له، وكيف سيقنعه بوجهة نظره التى لا ترجو إلا الفائدة للجميع، رأى الشيخ نصر الدين يجلس قريباً منه وقـد خلا المجلس إلا منهما، أن يشركه فى حيرته وأن يستضـىء بنور علمه وحكمته بعض ما أدلهم عليه من أشياء قال مفتتحاً الحديث:

بمثل ما لأبنائنا من حقوق علينا، فإن لنا نحن أيضاً حقوقاً عليهم، أليس كذلك يا سيدنا؟

ارتاب الشيخ فى السؤال وأصدر دمدمة غامضة تبين منهـا اليتيم قوله:

- نعم، نعم، إن هذا صحيح.

- وأنا أريد أن أستشيرك فى أمر ابنتى جميلة التـى أرجو ألا أكون مقصراً فى حقها، لقد أوصيتنى بها خيراً، ولا شك أنك تعلم أن هناك من جاء يخطبها.

وقبل أن يكمل كلماته رأى الشيخ يقف منتفضاً، مرتجفاً إلى حد أن اليتيم أشفق عليه من السقوط فوق الأرض انفعالاً وغضباً، وقف هو الآخر مذعوراً يسأل فى دهشة:

- لا بأس يا شيخ نصر الدين.

قال الشيخ جافلاً:

- لا شيء، لا شيء، أريد أن أجدد الوضوء.

دخل مرتعشاً محموماً إلى حمام المسجد، وترك اليتيم مزروعاً فى مكانه يملأ وجهه الاندهاش، وقف اليتيم قلـيلاً حتى زايله الذهول، ومتطيراً متشائماً ذهب وجلس فى بيتـه يطرد عن وجهة الذباب الذى جاء يهاجمه بأعداد لا حصـر لها، وينتظر زيارة المتصرف، وما أن جاء وبدأ حديثه مهنئاً بانتهاء الامتحانات حتى أدرك اليتيم أن الموضوع الـذى لا يريده أن يفتح، سوف يفتح الآن، وأن عليه أن يقرر بنفسـه وبدون معونة من الشيخ نصر الـدين مـا يجـب عليـه أن يفعله،رأى أن يبدأ هو الحديث بدلاً من أن ينتظر المتصرف حتى يتكلم، ليأخذ المبادرة فى يده ويباغت المتصرف حتـى يتكلم، ليأخذ المبادرة فى يده ويباغت المتصرف الذى يتهيـأ

الآن للكلام، سيتيح له ذلك فرصة أفضـل للسـيطرة علـى الحديث لقد اتخذ دائماً موقف الدفاع ثم الإذعـان لمبـادرات المتصرف فليجرب هذه المرة الحديث من موقع الهجوم باشر كلامه قائلا:

- أعتقد أنه قد حان الوقت لأن نتحدث فى موضوع العرس.

- منذ متى صرت تقرأ ما فى الصدور، كأنك تعرف أن هذا ما أردته أن يكون موضوع حديثنا اليوم.

لم تكن قد تهيأت لليتيم فرصة يرتب فيهـا أفكـاره، وجد نفسه يخاطبه قائلاً:

- صار من المتعذر بعد فاجعة كتلك الفاجعة أن نقيم فى بيتنا عرساً هذا الصيف، وأرى أن يتأجل إلى الصيف القادم.

قال كل شئ دفعة واحدة، تمنى لو أنه تمهـل قلـيلاً وأطال فى المقدمات والمبررات حتى يكون حديثه أكثر ليونة ورفقاً، انتظر وقع ذلك على الرجل.

- لقد هولت الأمر يا يتيم.

رآه يقولها ضاحكاً، محاولاً تهوين الموقـف وكأنـه على يقين من أن المسألة لن تقتضيه سوى بضع كلمات حتى يقنع اليتيم بالعدول عن رأيه، يعرف اليتـيم مكـر الرجـل ودهاءه، وما هذا المضحك إلا نوع من الغش فـى اللعـب، ولذلك فهو سعيد لأنه بدأ الحديث، حريص علـى أن تبقـى المبادرة فى يده إلى آخر هذا الشوط مـن اللعـب، واصـل المتصرف حديثه:

- أن يرمى مجنون بنفسه إلى المـوت، فهـذه ليسـت مسؤولية أحد، ولا يجب أن يقف موتـه حـاجزاً عـن المضى فى مشروعنا، العن الشـيطان يـا رجـل ودع الأشياء تمضى كما خططنا لها.

ولكن اليتيم لم يلعن الشيطان، إنه بدلاً من ذلك قال:

- إنك تعرف أن ابنتى ما زالت عند موقفها من رفض هذا الزواج، ولن يضيرنا شـئ لـو

أمهلناها بعض الوقت حتى يطيب خاطرهـا وتذهب إلى بيتها سعيدة راضية.

توجس المتصرف شراً، ها هو اليتـيم يـدخل فـى الموضوع عاملاً جديداً لم يرد فى حديثه من قبل، هو رفض ابنته للزواج منه، فما الجديد الذى طرأ هذه المرة، كلاهمـا يعلم أنها رافضة، ولكن متى كان الآباء يعيرون انتباهاً لأراء بناتهم، أليس هو والدها ومن حقه أن يعطيها لمن يشاء.

- ما هذا الكلام يا يتيم، هل صارت الدنيا تمشى بالمقلوب، أم أنها فعلاً تمشى بالمقلوب وأسلمنا أمر تقريرها للنساء.

وغاضباً واصل حديثة:

- إذا كان ما يزعجها أنها تأتى إلى بيت بـه ضـره، فلقـد أعددت لها بيتاً منفرداً تكون هى سيدة الأمر والنهى فيه، ألا يكفى هذا لإرضائها؟

ظل اليتيم هادئاً لا يبدى تأثراً لغضـب المتصـرف وهياجه، لقد وجد فى نفسه القوة على قول ما قالـه، فـأحس براحة عميقة لم يفسدها ما أصاب المتصـرف مـن تـوتر وهياج، ولم يشعر بأدنى رغبة فى إرضائه أو التسرية عنه،

كأنه لم يعد يهمه كثيراً أن يغضب أو يرضى، أو كأن إرضاءه سيكون تسليماً للمواقع التى تحصن بها عندما بادر الهجوم، ولم يخرجه أن المتصرف تكلم بصوت عال يصل إلى أسماع ابنته وزوجته فى الغرف الأخرى، لن يضيره أن يعرفا أنه يتكلم مع المتصرف كما يتكلم الند للند.

هدأ صوت المتصرف قليلاً عندما جاءت سيرة الانتخابات، صار يتحدث بأسلوب يتفق مع خطورة القضية، كان اليتيم يعرف أنه لن يطول الوقت قبل أن يرمى المتصرف بأهم أوراقه فى اللعب، استمع إليه يعيد كلامه القديم عن هذه الانتخابات التى قرب موعدها وواجب الإسراع بالعرس ليباشر فور انتهائه خوض معركتها، وصار اليتيم يفتش فى ذهنه عن حقيقة رأيه الآن فى انتخابات، لقد ألهته الأحداث التى مرت عن التفكير فيها ولم يجد فرصة يختبر مشاعره نحوها ويعرف إذا ما كان قد لحقها التبدل أم أنه ما زال متحمساً لها كما كان سابقاً، فوجئ الآن بأن ذكر الانتخابات لم يعد يثير فى نفسه تلك النشوة القديمة التى كان يحس بها من قبل، إنه لا يكره أن يكون سيداً فى قومه، بل لعله لا يكره أن يسعى المتصرف لتمكينه من الفوز بهذا

المنصب، ولكن المسألة تبدو لأول مرة خالية من ذلك البريق الذى كان يدهشه ويخترق قلبه كالسحر، إنه الآن وهو ينظـر إلى الموضوع بهدوء ودونما إثارة أو حماس لا يجد فى نفسه القدرة على التسليم بأن القضية بهذه السهولة التى يتحدث بها المتصرف وكأنه يتحدث عن تعيين غفير أو سـائق يلحقـه بمكتبه، من أدراه أن الحكومة ليس لها مرشح أخـر يهمهـا الوصول به إلى هذا المركز، ثم لماذا تتخلى عن نائب أثـب ولاءه لها وتفضل عليه رجلاً مثله لا أحد فى الحكومة يعرف عنه شيئاً عدا المتصرف، ثم حتى لو سلم جدلاً أن للمتصرف من النفوذ ما يستطيع به إقناع الحكومة بقبوله نائباً عن هـذه المنطقة، فلماذا لا يبادله ثقة بثقة، لماذا هذا الإصرار العجيب على أن يضمن حقه أولاً، إنه صادق فى وعده له بـالزواج من ابنته بعد أن تنقضى هذه الأيام الحرجة، فلماذا الاستعجال إذن؟ خواطر ظلت تراوده ولكنه يعرف أنـه لـن يسـتطيع الإفصاح عنها، وبعد أن التقى المتصرف بكل الحجج التـى أراد أن يثبت بها صحة رأيه فى إقامة العرس الآن، أضاف شيئاً لم يكن اليتيم قد فكر فيه أو خطر له على بال، عنـدما قال بابتسامة لا معنى لها:

- أما إذا كان السبب وراء رغبتك هذه هو أن تستفيد من مرتب ابنتك بعد تعيينها، فإنه لا مانع عندى من أن تقدم إليك مرتبها كاملاً ولمدة عامين إذا أردت.

هل لابد أن يربط كل شئ فى الدنيا بالمال والمنفعة، ولكن لا بأس، فحقائق الحياة لابد أن تكون حاضرة فى أذهان أمثاله من أصحاب المناصب والطموح، وهى مسألة يستحق أن يفكر بها عندما يأتى الوقت لذكر الشروط وكتابة عقد القران، إن عليه أن يتعلم من هذا الرجل إذا أراد لنفسه النجاح، ولكنه يعلم الآن أن علاقته بالمتصرف قد وصلت إلى تقاطع طرق يوجب عليه أن يتخذ موقفاً وأن يتحمل نتيجة هذا الموقف، إن قضية كهذه أصعب من أن يتخذ فيها قراراً سريعاً فهو لا يريد أن يفقد العلاقة الحميمة التى تربطه برجل ملك مفاتيح المستقبل، ومن ناحية أخرى فهو لا يريد أن يذعن هذا المساء لمشيئته له كل مواقعه.

- أمهلنى بعض الوقت للتفكير واستشارة أهل بيتى.

ها قد هرب من المواجهة وأرجأها إلى مناسبة أخرى قال المتصرف ساخراً:

- لقد عدنا مرة أخرى للاستخارة برأى النساء.

لم يقل اليتيم شيئاً، إحساسه بالنصر لأنه لم يخضـع لطلباته لم يمنع شعوراً بالإثم يتسلل إليه وهو يرى علامـات الخيبة وقد ارتسمت على جبين الرجل الـذى غمـره دائمـاً بأفضاله، رآه يمد يداً فاترة للوداع، فأخذ يده يصافحها بقـوة وحرارة وكأنه يطلب منه الصفح.

(٢٦)

كان الشيخ نصر الدين أول من جـاء إلـى المسـجد، توضأ وصلى ركعتين تحية المسجد، قرأ حزباً كـاملاً مـن القرآن، وانتظر حتى امتلأ صحن المسجد وردهاته الداخليـة بالقادمين لصلاة الجمعة، حان موعد الصلاة وقام للجلـوس على المنبر وفى يده كتاب تمزق غلافه واصفرّت صـفحاته وامتلأ بالأشرطة اللاصقة تربط أجـزاءه المفككـة، ارتفـع الأذان الأول والثانى والثالث، فوقف وفـتح الكتـاب يقـرأ بأسلوب منغم أشبه بقراءة التراتيل الخطبة الأولـى لصـلاة الجمعة:

»الحمد للّه، الحمد للّه الذى خلق أبانا آدم مـن طـين وسواه، وجعل ذريته متفرقة فلا يعلمها أحد سـواه، ففريـق

أفقره وفريق أغناه، وفريق أسعده وفريق أشقاه، وفريق منعه وفريق أعطاه، وفريق أبعده وفريق أدنـاه، وفريـق أماتـه وفريق أحياه، أما بعد. .. «.

ثم مضى يكمـل الخطبـة التـى اختتمهـا بالحـديث الشريف:»أعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك«.

وجلس قليلاً يتمتم ببعض الأدعية ثم قام للخطبة الثانية وهى الخطبة التى يتكرر قولها فى كل صلاة جمعـة حتـى صار يقرأها من الذاكرة دون أن ينظر فى صفحات الكتـاب المفتوح بين يديه، دعا واستجار وطلب مـن اللّـه العـون والمغفرة والهداية لسائر المسلمين، ومـن خلفـه أصـوات المصلين تردد فى بطء وخشوع آمين، آمين، أقفـل الكتـاب وقال وهو يهم بالهبوط من فوق المنبر الكلمات التى تعود أن يخاطب بها المصلين استعداداً لإقامة الصلاة:

»عباد اللّه، اذكروا اللّه يذكركم، واستغفروه يغفر لكم، واشكروه على نعمه يزدكم، وأقم الصلاة إن الصـلاة تنهـى عن الفحشاء. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء ".

تكسر الصوت وتهدج، ترنح وهو يهبط الدرج وتعثر، تلاشى صوته، ثم أغمض عينيه وتهاوى ساقطاً بـين أيـدى

عدد من المصلين فى الصف الأمامى، أخذوه إلى جانب مـن المسجد وأسندوا ظهره إلى الحائط، رشوا فوق وجهه الماء، استعاد وعيه، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف، تقدم واحـد منهم ليؤم بهم الصلاة بدلاً منه، وعندما فرغوا من صـلاتهم نقلوه إلى بيته ليرتاح وينام، دون أن يعرف أحد سـبباً لهـذا المرض المفاجئ الذى أصاب الشيخ.

فى صباح اليوم التالى غادر الشيخ نصر الدين مسكنه متجهاً إلى مركز شرطة »قرن الغزال«، أثار وجـوده فـى المركز شيئاً من القلق والفضول لدى أفراد الشـرطة الـذين تحلقوا حول براد الشاى يتناولون إفطارهم، أدخله أحدهم إلى الضابط الذى تلقاه مرحباً مستفسراً عن صحته، متسائلاً عن السبب الذى دعاه إلى الخروج من بيته وهو مازال متعباً لـم يتعاف بعد، قال الشيخ:

- لقد جئت لأعترف أمام اللّه وأمامكم بما ارتكبت من إثم وخطيئة.

استغرب الضابط متسائلاً عما يمكن أن يرتكبه شـيخ تقى مثل هذا الشيخ من مخالفات، لعله نسى أداء فرض مـن الفروض أو تأخر فى أداء صلاة أو صدقة أو زكاة، وظن أن

مراكز الشرطة سلبت اختصاصات الملائكة وصارت تتدخل فى شؤون كهذه، واصل الشيخ حديثه:

- يريحنى كثيراً أننى جئت لأعتـرف، فـالاعتراف بالذنب فضيلة كما تعلم، ومن نعم اللّه على عباده أن جعـل باب التوبة مفتوحاً دائماً للعصاة التائبين.

قال الضابط وهو ما يزال غارقاً فى حيرته:

- إنك مثال للخير والصلاح والاستقامة يا شيخ نصر الدين، ولو أن البشر جميعاً كانوا صالحين مثلك لمـا وجـد ضابط مثلى عملاً ولانقرضت مهنتنا من الدنيا.

- كل ابن آدم خطّاء، ولكننى عازم بنية صادقة علـى إصلاح الخطأ وتصحيحه، ومن أجل هذا جئت لأضع نفسـى تحت تصرف العدالة.

وأضاف قبل أن يمنح الضابط فرصة للسؤال:

- إن الطفل الذى يتحرك فى أحشاء تلك الصبية إنمـا هو طفلى.

امتلأ وجه الضابط بتعبير غريب لم يكن اندهاشـاً أو استغراباً أو سخرية بقدر ما كان وجومـاً وسـكوناً، كأنمـا تعطلت حواسه، غير مصدق لما يسمع، أو غيـر قابـل لأن

يسمع ما يسمع، أو يرى ما يرى، فى حين واصـل الشـيخ اعترافه غير عابئ بما طرأ على وجه الضابط من تحولات:

- لقد ارتكبت معها الفاحشة التى نهت عنها السـماء، إنها الغواية التى يبثها فى قلوبنا الوسـواس الخنـاس الـذى يوسوس فى صدور الناس، فلم أعرف كيف أقاوم ضـعفى، وفعلت ما فعلته معها عندما جاءت مع الفجر تعترض طريقى عند برج النعام.

- ولكن من هى؟

قالها الضابط بصوتٍ واهن ضعيف لم يعبـأ الشـيخ بسماعه فمضى يقول:

- لذلك فقد جئت لأسجل اعترافى وأبـدى اسـتعدادى للزواج منها فى الحال.

وعاود الضابط طرح السؤال بصوت استعاد شيئاً مـن حيويته هذه المرة:

- ولكن من هى يا شيخ نصر الدين؟

- أريد أن أتزوجها ستراً للفضيحة ورحمـةً بـالجنين الذى فى بطنها.

عاد الضابط يلح على معرفة اسم المرأة التى زنى بها الشيخ:

- لم تقل لى من هى.

صمت الشيخ قليلاً قبل أن يقول:

- جميلة ابنة عامر اليتيم.

ما الذى جرى لهذا الشيخ الذى لابد أنه قد بلغ السبعين من عمره، لم يكن ما قاله قابلاً للتصديق، كان الضابط علـى يقين من أن شيئاً ما خطأ، لعله فى نظام الكـون، هـل هـو الجنون؟ ولكن الشيخ هادئ الأعصاب يتحدث بطلاقة وعفوية ويدلى بأقواله حول حادثة الزنى بوقار واتـزان، لا تحـس وراء سحنته أى أثر لتلك الشحنات البركانية التى تقذف بهـا عادةً الأعماق الموتورة لرجل مجنون.

لم يجد الضابط شيئاً يقوله للوهلة الأولى، ظل صـامتاً يتأمل الشيخ الذى يطفح وجهه بسعادة من أزال عن قلبه حملاً كبيراً، مهيباً، جليلاً، وقد بدت لحيته الكثيفة وكأنها صـنعت من السحب البيضاء، أحس برغبة لأن يخـرج إلـى فنـاء المركز يستنشق الهواء، وفى يقينه أن عطباً أصاب جـوهر الحياة حتى جعل عقلاً تربى فى رحاب كتاب اللّـه وصـمد

كالقلاع الكبيرة فى وجه أهواء النفس يتهاوى وينهار، تـذكر أن الشيخ كان ضحية مزاح ثقيل عندما أرسلوا إليـه غولـة وهمية تلاقيه عند الفجر قريباً من برج النعـام وتسـاءل إذا كانت تلك الحادثة قد تركت فى عقله أثراً لم يبرأ منه حتـى الآن، عاد وفى يده طاسة الشاى التى قدمها للشيخ قائلاً:

- يبدو أنك متعب قليلاً يا شيخ نصر الدين، وأرى أن تذهب إلى البيت لترتاح بضعة أيام وسوف تـدرك أن هـذا الإثم الذى ارتكبته مع الفتاة ليس إلا أضغاث أحلام، سأنسـى أنا الموضوع وأرجو أنت أيضاً أن تنساه فلا تـأتى بـذكره لأحد من الناس.

وقف الضابط ومد يده مودعاً، صافحه الشـيخ ولكنـه ظل جالساً فى مكانه لا يتحرك، ممسـكاً بيـد الضـابط لا يتركها.

- أعرف أنك تريد أن تتستر على، لكننى لا أسـتطيع أن أقبل هذا الفضل، لقد زارنى فى النوم كوكبة من الشـيوخ الأفاضل الذين أخذت على أيديهم العلم وكانوا غاضبين لأننى فعلت ما فعلت وكتمت الأمر، وأمرونى أن أعتـرف بـذنبى

وأعلن للناس خطأى وأتقدم للزواج منها علـى سـنّة اللّـه ورسوله.

حاول الضابط صادقاً أن يقنـع الشـيخ بـأن ينسـى الموضوع، استعمل كل ما اهتدى إليه من حجج، توسل إليـه أن يؤجل اعترافه بضعة أيام حتى يتأكد من أن هذه الحادثـة لم تكن مجرد شيء رآه أثناء النوم، رجـاه أن يفكـر فيمـا سيلحق باسمه الذى كان دائماً نقياً من أوحال وما سيسببه من كدر لأهل القرية الذين أحبوه واختاروه إماماً ومرشداً لهم فى أمور الدين، وأبلغه بأنه إذا ما فتح المحضر فلابـد مـن أن يأخذ التحقيق دورته الكاملة وسيضطر عندئذٍ للـتحفظ عليـه وإيداعه سجن المركز كما تقضى بذلك التعليمات وسـيلحق الأذى الفتاة التى قال إنه ارتكب معهـا الفاحشـة وستسـاق للتحقيق أمام الناس، وسيرفع القضية إلى السلطات المركزية فى عاصمة المحافظة، ولكن الشيخ استمر فـى إصـراره، رافضاً أن يغادر المركز أو يتنـازل عـن أقوالـه مكـرراً استعداده للزواج منذ هذه الليلة بابنة عامر اليتيم.

بقى الضابط يتأمله وهو يكتم غيظه، برغم شـيخوخته فهو مازال قوياً موفور الصحة، لعل الفتاة وجدت فيه شـيئاً

أغواها، أو لعله افتتن بجمالها فكتب لها تعويـذة مـن تلـك التعاويذ التى يعرف هؤلاء الفقهاء أسرارها، فجعلها تسير فى نومها للقائه عند تلك الخرائب، ثم لحق به الندم فجاء يسـجل اعترافه، كل شىء قابل للاحتمال والتصديق، وغاضباً صاح منادياً شرطى التحقيق، جاء الشرطى مهرولاً، فسأله بلهجـة حانقة أن يأتى بالسجل ويفتح محضراً للشيخ يأخذ فيـه كـل أقواله ويختمها بتوقيعه ثم يودعه غرفة السجن، فى حين قرر أن يذهب بنفسه إلى بيت اليتيم.

بدت المهمة صعبة وكريهة، تمنى لو عهد بها إلى أحد أفراد الشرطة، ولكنه أراد أن يذهب بنفسه لعله يسـتطيع أن يعالج الموقف بأقل قدر من الضجة والإثارة، سأل السائق أن يذهب إلى المستودع الحكومى أولاً، تنحـى بـاليتيم جانبـاً وأخبره بما حدث، قائلاً بأنه حاول إقناع الشيخ بالعدول عـن أقواله، رافضاً أن يفتح له محضراً أو يأخذه مأخذاً جـاداً إلا أنه أصر على إثبات أقواله، وهو ينتظر الآن مصـيره فـى سجن المركز، وإن التحقيق سيأخذ بالتالى دورته ولابد مـن سؤال ابنته وعرضها على الفحص الطبى.

بدا وجه اليتيم كوجه رجل مات وانطفأت فيه الحيـاة، حركه الضابط من كتفه وكأنه خشى أن يكون فعلاً قد مات، لكنه رآه يقول وهو مازال ميتاً:

- هل قلت الشيخ نصر الدين؟

قال الضابط فى اقتضاب وإعياء:

- شىء لا يصدق، ولكنه هو.

وجد اليتيم بجواره صندوقاً فارغاً تهالك فوقـه وقـد تحول إلى حجر جامد بلا حياة ولا حركة، كان الضابط يدرك مدى الصدمة التى أصابت اليتيم، فجلس بمحاذاتـه صـامتاً يجفف عرقاً غزيراً ينز من جبينه وعنقه وينتظر اليتيم حتـى يعود إلى الحياة.

لم يكن بمستوصف القرية ما يكفى من المعدات لإجراء الفحوص التى يتطلبها التحقيق، فكان لابد من أخذ جميلة إلى عاصمة المحافظة، كان الضابط قد أجرى معها تحقيقاً سريعاً فى مربوعة البيت، أبقى الباب مفتوحاً وسألها علـى انفـراد وبصوت بطيء، هامس، سؤالاً واحداً حول ما إذا كـان قـد جرى اتصال جنسى بينها وبين الشيخ نصر الـدين، باكيـة، محمومة، تنتفض غضباً، وحزناً، وحرجاً ومهانة، استنكرت

هذه التهمة، وباكية محمومة دخلت مع والدها والممرضة التى جاءت تصحبها، صندوق سيارة الإسعاف، فى حين ركب الشرطى المكلف بمرافقتها وجاب التقارير الطبية عن حالتها بجوار السائق، وما حدث بعد ذلك فقد كان كابوساً اختلطت فيه أصوات الصغار الذين تحلقوا كالجرذان حول سيارة الإسعاف، ورجال القرية الذين رأتهم من خلال زجاج نافذة السيارة المتسخ يقفون على جوانب الطريق يرقبونها وقد انعكس اتساخ الزجاج على وجوههم فبدت مشوهة، قبيحة، كأنهم أشباح خرجوا لتوهم من إحدى الخرافات، إلى أن وصلت إلى مستشفى المدينة، ووجدت جسدها عارياً، مباحاً لنظرات ولمسات أكثر من رجل وامرأة، بينهم أجنبى يتكلم لغة غريبة، كانت قد رفضت بقوة خلع ملابسها فى حضرة هؤلاء الناس، ثم وجدتهم يرغمونها على التعرى إرغاماً وينضون عنها ملابسها عنوةً، وهى صارخة متشنجة، تدفعهم عنها وتمنعهم عن جسمها بلا فائدة، واضطروا فى النهاية إلى إعطائها حقنة مخدرة أفقدتها وعيها، ولم يكن مهماً بعد ذلك أن تأتى التقارير مؤكدة سلامتها، كاشفة جنون الشيخ وتخاريفه، لم يعد مهماً بالنسبة لها أن تعرف ما يحدث لذلك

الشيخ، أو ما تقول ألسنة القرية عنها، فقد بدت وكأن حالـة الغيبوبة التى أحست بها عندما أعطوها حقنة التخـدير قـد استمرت معها ولم تشأ أن تفارقها، عادت إلى البيت ساهمة، واجمة، لا تكلم أحداً، ولا ترد على أحد، ولا تمد يدها بالتحية لأحد يمد لها يده، كأنها لا تريد شيئاً ولا ترغب فى شىء إلا أن تموت.

كانوا قد أخذوا الشيخ إلى محكمة بعاصمة المحافظة ثم اتضح جنونه فأبقوه أسبوعاً للعلاج وتركوه بعد ذلك يغـادر المصحة، رآه أهل القرية يعود من رحلته وقد حلقوا له شعر رأسه ولحيته، ضاع الوقار وضاعت المهابة وظهرت عيوب البدانة وقصر القامة ونتوء الوجه الذى صار مثل طائر ميت سلخوا عنه الريش، ذهب بعض أصحابه ومريديه ومن بينهم الشيخ مسعود يطرقون بابه للزيارة والمواساة، خرج إلـيهم يبصق فى وجوههم ويشتمهم بكلمات قبيحة نابية تطول شرف أمهاتهم ونسائهم، أطرقوا برؤوسـهم خجـلاً وأدركـوا أن فجيعتهم فى الرجل فجيعة دائمة، فى حين أقفل هو باب بيته، وظل هناك لا يغادره إلى أن مات بعد ذلك بأسابيع قليلة.

كانت القرية قد وجدت فى القصة الجديدة طعاماً شهياً لأحاديث السهر فى ليالى الصيف التى تدلت نجومها كبيـرة وقريبة من الأرض مثل القناديل، وعلى غير عادتهم صـار الناس يطيلون السهر فى الحلقات التى تعقد أمام الـدكاكين، ويرفض الواحد منهم أن يعود مبكراً إلى البيت لكيلا يحـرم نفسه من الاستماع إلى آخر التفسيرات والتحليلات لما حدث، كما دب نشاط جديد فى أوساط النساء، فصرن يكثـرن مـن التزاور والتجمع حول براريد الشاى وقد وجـدن موضـوعاً مثيراً لقصة تحدث أمام أعينهن عن شيخ تقى، ورع، تـرك الصلاة، والمسبحة، والعبادة، وهام على وجهه فى حب بنت اليتيم. وكانت أكثر التفسيرات لسلوك الشيخ رواجاً، التفسـير الذى يقول بأن روح الدرويش قد تلبست جسم الشيخ نصـر الدين، لقد ذهب إلى بنت اليتيم ليطرد تلك الروح المعذبة التى تسكنه ولكن الدرويش الذى خرجت روحه مطرودة من بيت معشوقته، انتقم لنفسه واستولى على جسم الشيخ يسكنه بكـل عذاباته ولوعته، وهكذا أصبح الشيخ نصر الـدين درويشـاً مهووساً بعشق جميلة، يتخيل أنهـا تواعـده لـيلاً وتأتيـه ليضاجعها بين الخرائب القديمة، ومنهم من مضى يؤكـد أن

الشيخ كان صادقاً فى كلامه عن ليلة الحب التى قضاها معها، لقد أغوته جميلة وراودته عن نفسه حتى نسى علمه وتقواه وسقط فى الإثم والخطيئة، فهى ليست إلا روحاً شريرة استهدفت أكثر رجال القرية تديناً وطهراً لكى تسلبه عقله ودينه، وإن التقارير الطبية التى تتحدث عن سلامتها ليست إلا حيلة تمنع بها الحكومة استفحال الأمر وارتكاب جرائم القتل، وعندما يأتى صوت يعترض على هذا الرأى قائلاً:

- ولكن هل تعتقد أن شيخاً فى عمره مازال قادراً على فعل ذلك الشيء.

يرد عليه الآخر مؤكداً:

- إن فى تاريخ قريتنا رجالاً تزوجوا وأنجبوا وهم فى التسعين.

ويرتفع أكثر من صوت محذراً بأنه إذا كان الدرويش أول ضحاياها فإن الشيخ نصر الدين لن يكون آخرهم، إن رؤوساً كثيرة سوف يصيبها الدوار وتسقط فى ذات الحفرة التى لا قرار لها والتى سقط فيها الشيخ والدرويش.

ترك العيد عمله وهجر دراسته وأقام فى القرية غير عابئ بالرسالة التى تلقاها من إدارته تهدد بطرده إذا لم يعـد إلى عمله، عافت نفسه الانضمام إلى هذه الحلقات التى يعقدها أهل القرية كل ليلة يلوكون فيها موضوعاً واحداً لا يلمونـه، رأوا شيخاً مهووساً يذكر اسم جميلة فوثبوا علـى الفرصـة يملئون بها الفراغ الموحش الذى يأكل أيامهم بعد أن بـارت أسواقهم ودكاكينهم وضاعت أحلامهم فـى المصـنع الـذى وعدتهم به الحكومة، جاءت جميلة شمساً تضىء ظلام الكهف فخرجت العناكب والعقارب والجعارين وطيور الليل تعـزف نشيداً واحداً ضد هذا الضوء، ابتعد عـن مجالسـهم كارهـاً الحديث معهم أو الالتقاء بهم، لم يعد كما كان سـابقاً يبـادر بالتحية كل من يلاقيه، بل صار إذا سمع تحية من أحد تظاهر بأنه لم يسمعها، أو هو فعلاً لا يسمعها، لأنه أغلق أذنيه عـن أصواتهم، وأغلق عينيه عن رؤيتهم، وأوصد عقله وقلبه فى وجوههم، هجر الجلوس فى المقهى والذهاب إلى الـدكاكين وسوق يوم الجمعة، ولم يعد يختلط بأحد أو يزور أحداً سوى أمى سعيدة التى صار يتردد على بيتها كل يوم، يسألها أسئلة معادة، مكررة، عن جميلة وتجيب نفس الإجابـة، وعنـدما

تتأخر يوماً عن الذهاب إليها، يلومها على هذا التقصير، ويلح عليها فى الذهاب، فكانت تذهب وتعود دون أن تأتيه بجديـد، فجميلة ما زالت فى ذهولها، غارقة فى صمتها، لم يسمع أحد منها كلمة واحدة منذ أن عادت من رحلة الكشف الطبى.

حاول العيد ذات يوم أن يذهب إلى المدينـة ليلتحـق بعملة على أن يعود فى عطلة نهاية الأسبوع ولكنـه مـا أن وصل إلى هناك حتى وجد نفسه يترك المكتب بعد أقل مـن ساعة، ومتبرماً ضجراً ظل يتجول فى شوارع المدينة علـى غير هدى، لم تكن "مغارة الحلم" مكاناً يرحب بضيوفه قبـل مجيء الليل، ولكنه مدفوعاً بالملل والكآبة وجد نفسه يـذهب قبل الظهر إلى هناك، فأجا صاحبه البيت نائمة، أدخلته على مضض وأدارت قرص الهاتف تبحث له عن جليسة ثم ألقت السماعة وعادت إلى نومها عندما لم تجد له أحداً، بحث عن شئ يبدد به الوحدة والملل فى انتظار مجيء الليـل وبدايـة السهر، وجد كومه من المجلات النسائية والفنية التى صـار يقبلها دونما رغبة، ثم ما لبث أن رمى بها وقد تذكر أنه جائع لم يتناول إفطاراً ولا غداء، ذهب إلى المطبخ يبحث عن شئ يأكله، رأى الرفوف تمتلئ بزجاجات النبيذ فأدرك أنه اهتدى

إلى بغيته، لم يكن يشرب الخمـر إلا لمامـاً وإذا شـرب لا يشرب إلا كأساً واحدة مسايرة لرفاق السهرة ولكنه لأول مرة يحس برغبة قوية فى الهروب إليها والاحتماء بغيبوبتها مـن سام ورتابة هذا اليوم الطويل الذى لا يريد أن ينتهى، أرغـم نفسه إرغاماً على ابتلاع الكأس الأولى والثانيـة، شـربهما بنفور واشمئزاز، راق له الشراب بعد ذلك، فأحضر صحون المزة التى تبقت فى المطبخ من سهرة الليلة الماضية وصار يرتشف الكأس وراء الأخرى بشراهة ولذة، صعدت الأبخرة إلى رأسه، وتضاءل الكون بكل ما يرزح بـه مـن همـوم ومشاكل حتى صار فى حجم عقب السـيجارة، جـاء الليـل سريعاً والعيد منتش مخمور، رأى المكان يمتلئ بنساء شـبه عاريات ورجال يعرف بعضهم ولا يعرف بعضهم الآخـر، يعانقون النساء ويغنون احتفالاً بعيد ميلاد إحدى الحاضرات، كان فى شبه غيبوبة غير واع بما يدور وما يقال، وعنـدما أفاق افى الصباح وجد بجواره امرأة نصف عارية تسيل فوق وجهها الدميم المساحيق والأصباغ وتفوح منها رائحة التبـغ والعرق والخمور، آثار القى على ملابسه ومطارق الألم فى رأسه، خرج هارباً، ناقماً على نفسه، وبحث عن سيارة أجرة

ذاهبة إلى قريته، حشر نفسه بين ركابها، وعاد إلى ضـياع آخر بين طرقات القرية.

- يجب عرضها على الطبيب دون تأخير.
- وهل أصابها ما أصابها إلا بسبب الأطباء.
- ليس من العدل أن نقف مكتوفى الأيـدى ونحـن نراها تضيع أمامنا.

هاهو مرة أخرى يقف عاجزاً غير قـادر علـى أن يفعل شيئاً من أجلها، تستحم وحدها فى نهر الجحيم وهو يقف على ضفة النهر يمسح عن وجهة العرق يلعن العجز والزمن ويبحث عن معنى لمعاناة الإنسان وعذابه فى عالم من العبث واللا جدوى، سمعته أمى سعيدة يقول كلاماً غامضاً يعبر به عن تبرمه بالدنيا وشكه فى أن هناك قـوانين تحكـم هـذه الفوضى، فقالت:

- لا تفقد إيمانك يا ولدى ولا تنس أن هناك واحـداً أحداً، فرداً صمداً، لا يغفل ولا ينام.
- ليس هناك من هو أكثر إيماناً من الشـيخ نصـر الدين.

- إنه ليس أول إنسان يفقد عقله.

ولن يكون آخر إنسان، فما هذه الطبول التـى تمـلأ الآن رأسه بالضجيج إلا إشارة لقدوم شئ، قال يسألها:

- متى تأتى الإشارة بنهاية الكون؟

قالت المرأة العجوز وكأنها أخذت كلامه مأخذاً جاداً، وكأنها تنتظر مجيء هذا اليوم فى زمن قريب.

- عندما تشرق الشمس من الغرب.

لعلها قد أشرقت من الغرب الآن، ولكـن لمـاذا لا تحاول أمى سعيدة إحضار جميلة إلى هذا المكان ولو لمـرة واحدة، إنه على يقين من أن لقاء يتم بينه وبينها سوف يعيـد لكون شيئاً من توازنه ويمنع الشمس مـن أن تشـرق مـن الغرب.

قال يشرك أمى سعيدة فى حيرته:

- إننى لا أجد تفسيراً لهذه الحمى التى أصابت القرية، رأيت أكثر الناس طيبـة وسـذاجة

يمشون فى الطرقات وقد نبتت لهـم أنيـاب زرقاء.

- الدنيا أكثر تعقيداً من أن تعرف امرأة مثلـى تفسيراً لأسرارها.

- قد أفهم دوافع الرجال الذين تمنوها لأنفسـهم وعندما عزت عليهم صاروا ناقمين يكحتون التراب فى وجهها، ولكن ما سر هذا السعار الذى أصاب النساء، إننى اشتبك فى عـراك دائم مع أمى لأنها تصر علـى عقـد هـذه المجالس التى تقتات على سيرة جميلة، فـى بيتها كل يوم، تشفياً من عامر اليتيم.

- إن النساء لن يغفرن لها هذا الجمـال الـذى أبطل كل جمال آخر.

لعن فى سره هذه القرية التى تقدس القبح وتكـره أن تنبت فى تربتها الكالحة السواء زهرة جميلة واحدة، قال بين أسنانه:

- من قال إن العصر الحجرى قد انتهى؟

اشتعل فى قلبه حنين عارم لأنـه يـرى عينيهمـا، ويراهما الآن وفى هذه اللحظة، دقات الطبـول فـى رأسـه تدعوه أن ينطلق من هذا المكان ويذهب الآن إليها، تساءل إذا كان هذا الإحساس الذى يعذبه الآن هو ذاته الذى تتحدث عنه القصص ويتغنى به المغنون، ولكن من يحب جميلـة لـيس كمن يحب امرأة أخرى، إنها نسيج وحدها بين النساء، تذكر الدرويش وكيف أحاله حبها من نبات بشرى لا يفهم ولا يعى قوة بركانية هائلة جاءت تزلزل الأرض وتقذف الحمم، كـان حباً بائساً فجاء يرمى بكتل النار فوق جميلة، يدمرها ويدمر نفسه، وتذكر الشيخ نصر الدين، عمر كامل من الزهد وقهر العواطف ونكران الذات وإخماد الرغبـات الإنسـانية التـى تعتمل فى مجاهل النفس، ما إن رأى وجهها حتى اسـتيقظت تلك العواطف المشنوقة وعادت إلى الحياة تحولت إلى سرب من الطيور الجارحة التى انطلقت مجنونة تفتـك بفريسـتها، وهاهو ذات الحب يدفعه الآن لأن يرتكب حماقة كبرى فـى حقها، رغبة مجنونة لا يستطيع كبحها تطالبه الآن بأن يذهب إليها ويروى عطش عينيه إلى رؤيتها، تمنـى لـو أن أمـى

سعيدة تعده الآن بإحضارها وتجنبه مغامرة الـذهاب إليهـا واقتحام بيتها كالمجنون.

لكن أمى سعيدة لا تعد بشيء.

كان نداء الطبول يزداد عنفاً فى رأسه، وطائر النار يحوم فى قلبه ويجعله لا يقوى على البقاء، فقام مـن فـوره ويخطى سريعة سار باتجاه بيت اليتيم.

(٢٨)

أسدل عامر اليتيم الريش فوق جراحه، قـرر بينـه وبين نفسه أن يعتبر ما حدث صفحة سواء يجب أن تطـوى بعد أن تأكد للناس سلامة شرفه وشرف ابنته، أو هكذا يجب أن يظهر أمام الناس، اعتكف فى البيت ليومين أو ثلاثة أيام، وجد أن البقاء فى البيت يطيل عمر المحنة، يزيـده مرضـاً وينقص شيئاً من كبريائه أمام الناس ويمـلأ رأسـه بـأحلام سوداء تأتيه فى النوم واليقظة يرى خلالها نفسه يأخذ مديـة ويغرسها فى قلب الشيخ نصر الدين، ما ذنب رجل سـكنت روحه العفاريت وفقد عقله، هاهو البناء الذى ظنه آمناً ينهار

فوق رأسه حجراً حجراً، الشيخ الذى وعده بالجنة فر هارباً إلى عالم الجن والأبالسة بعد أن قذف به إلى الجحيم، المتصرف خرج من بيته غاضباً وامتنع عن زيارته ولن يأتى مرة أخرى إلا إذا حدد له موعداً قريباً لإقامة العرس، والعروس ذابلة مريضة، تحتمى بالصمت، وتنتظر فى أية لحظة أن تذوب وتتلاشى فى الهواء، ولكى لا يفقد هو أيضاً عقله، فقد ترك جلسة البيت، وبنفس مكسورة عاد إلى عمله بالمستودع، وبقلب تسلل العطب إلى إيمانه عاد إلى حضور صلاة الجماعة فى المسجد، يمشى فى الطريق وهو يدير وجهة إلى الناحية الأخرى لكيلا يرى حلقات الرقص البدائية التى يعقدها أهل القرية حول فريسة ابنته التى عادوا بها تواً من الغابة.

وما أن يأتى الصباح ويذهب اليتيم إلى عمله حتى تترك زوجته ابنتها فى البيت بصحبة إخوتها الصغار، ترتدى لحافها وتذهب لتطوف بأضرحة الأولياء، تحمل لهم النذور، وتضىء لهم الشموع وتحرق الأبخرة وتدعو لابنتها بالشفاء، وتبحث عن الفقهاء الذين يكتبون لها أحجبة تعود بها لابنتها وتطلب منها أن تعلقها فى عنقها أو تحرقها وتستنشق دخانها

أو تنقها فى الماء وتشرب ماءها، ولكن جميلة ترمى بها فى كل مرة بعيداً عنها وهى جافلة لا تقول شيئاً، ليتهـا تـتكلم، تسب أو تشتم، ولكنها دائماً صامتة، تقـرأ الكتـب وتسـمع الأغانى فى المذياع وتساعد أحياناً فى أعمال البيت، ولكنهـا لا تقول شيئاً، ولا تعلق بشيء، حتى ذهب فى ظن أمهـا أن ابنتها قد أصبحت بكماء غير قادرة على النطق.

كانت قد عادت لتوها من إحدى جولاتها بين القبور، خلعت لحافها وبحثت عن ابنتها، رأت باب غرفتهـا مغلقـاً فجاءت تدق عليها الباب، لـم تسـمع رداً، فـدفعت البـاب ودخلت، كانت جميلة تتمدد فوق سريرها مستغرقة فى النوم صاحت بها:

- هيا انهضى، لقد انتصف النهار وأنـت مازلـت نائمة.

ارتفع صوتها ينادى جميلة مرات عديدة، ولكن ابنتها ظلت نائمة لا تسمع النداء، تقدمت من سـريرها وأمسـكت بكتفها تهزها برفق، ظلت جميلة نائمة فهزتها بعنـف هـذه المرة، وعندما لم تسمع من ابنتها رداً أدركت أن الأمر ليس

طبيعياً فصرخت تناديها وتمسك بكلتا يديها تهزها بكـل مـا تقدر عليه من قوة، أصابها الذعر وهى ترى ابنتها غارقة فى نوم غريب لا تقوم منه، صارت تبكى وتصرخ، ترتمى فوقها ثم تشدها من شعرها وتصفعها فوق وجهها وقد جـاء ذلـك الخاطر يملأها رعباً وجنوناً، خاطر أن تكـون ابنتهـا قـد أسلمت الروح، فهى فعلاً تبدو جثة هامدة، احتبست أنفاسـها وفارقتها الحياة، وقبل أن تبدأ فى النـواح وشـق الجيـوب والخروج إلى الشارع تصرخ وتكحت التراب طالبة النجـدة، رأت ابنتها تفتح عينيها وتديرهما فى وجهها فشهقت وانهارت على ركبتيها فوق الأرض وتمسك قلبها بكلتا يـديها كأنهـا تخشى عليه السقوط، خرجت الكلمـات مـن بـين أنفاسـها اللاهثة، متقطعة، مرتعشة، باكية.

- لقد أفزعتنى، كدت أظن أنك فارقت الحياة، فمـا الذى حدث؟

كان الفزع يرتسم على ملامح جميلة أيضاً، لأن مـا حدث لها شئ لا تفسير له سوى أنها ماتت وعادت إلى الحياة مرة أخرى، إنها تعلم الآن جيداً أنها لم تكن نائمة، ولم يكـن ما رأته حلماً من أحلام النوم أو اليقظة، لقد اسـتقلت فـوق

الفراش تقلب صفحات كتاب مدرسى، أحست بتعب فى عينيها فوضعه بجوارها تستريح قليلاً وذهبت تتجول ببصرها فى سقف الغرفة، ثم فجأة رأت نفسها وكأنها خرجت من جسمها، وارتفعت تحوم فوق السرير ثم وقفت قريباً من السقف، كانت تستطيع أن ترى جسمها هامداً وقد فارقته الحركة والحياة، ممدداً على السرير كأنه جسم مرة أخرى، وأن ترى وجهها هادئاً وشاحباً شحوب الموتى، وشبه ابتسامة ترسم على شفتيها، وأن ترى أيضاً تلك الظلال الباهتة الزرقاء تحت عينيها المغمضتين وأكثر من ذلك كله كانت تستطيع أن ترى من خلال الجدار، رأت أمها عندما دخلت البيت وخلعت عن جسمها اللحاف الذى ترتديه عند الخروج، ورأت أطفالاً من بينهم إخوتها يلعبون أمام البيت، ورأت العيد وهو يقطع الطريق فى خطى سريعة باتجاه بيتهم، ثم رأته يقف قريباً من البيت عندما رأى رجلاً يحمل سلة خضار وبقى يشيعه بنظراته حتى يختفى، كانت تستطيع أن ترى هذا كله، وكانت تحس بسعادة عظيمة وهى تطفو فى الهواء متحررة من الضيق الذى كان منذ لحظات يأخذ بخناقها، لقد اختفت كل تلك الهواجس التى قذفت بها إلى دنيا

الصمت والكآبة، وحل مكانها سلام وطمأنينة، وراحة عميقة لا تذكر إنها أحست بمثلها فى حياتها، كأنها اتحـدت بـروح الكون وصارت جزءاً منها، رأت أمها تدق بـاب غرفتهـا فكرهت أن تأتى الآن وتأخذها من هذه الحالة الآمنة البهيجة، وتبدد هذا الصفاء وهذه النشوة التى تغمر الآن روحها، رأتها تدخل الدار وسمعت الكلمات التى قالتها ورأتها عندما تقدمت نحوها تهزها بعنف وهى تحاول إيقاظها، ثم حالة الذعر التى أصابتها عندما عجزت عن النهوض والاستجابة لدعوتها كى تستيقظ، ثم رأت حالة الأمن والسلام تغادرها وهـى تفـتح عينيها لتجد أمها منهارة تبكى، وعندما سمعت بعد ذلك الباب يدق وعرفت أن العيد هو الذى جاء ازدادت يقيناً بـأن مـا حدث لها لم يكن حلماً أو وهماً أو خيالاً وإنما تجربة غريبـة رأت العيد يدفع الباب بقوة ويقتحم البيت كالزوبعة قائلاً:

- أريد أن أراها.

سألته من فورها أن يعود من حيث أتى، سألته وهى ترتعش خائفة من أن يكون قد جرى لعقله شـئ، مـذعورة وهى ترى ابنتها ما أن تنتهى من مجنون حتى يظهـر لهـا

مجنون آخر، كأن السماء صارت تمطر مجانين، ولكنه عاود السؤال صارخاً:

- أريد أن أراها الآن.
- اكفنا شرك، واذهب إلى حال سبيلك، يكفى مـا نحن فيه من البلاء.
- لن أذهب حتى أراها.

كانت جميلة قد سمعت ذلك كله فأصـلحت شـعرها وخرجت من غرفتها لترى العيد، زادها الضعف والشـحوب شفافية فبدت فى عينيه كأنها تنتمى إلى عالم آخر أكثر جمالاً وعذوبة وسحراً، وقف مبهوراً صامتاً، يطفئ لهف عينيه إلى رؤيتها، افترت شفتاها عن ابتسامة ترحيب وفرحة باللقـاء، تمنى لو أنه يستطيع أن يعانقها، ولكنه اكتفى باستمرار البهجة التى غمرته لحظة ظهورها، توقف نداء الطبول فى رأسـه، وعاودته طبيعته الهادئة، تحقق ما جاء من أجله ولن يطالـب بالمزيد، ولكن جميلة منحته أكثر مما أرد عندما مدت يـدها قائلة:

- أهلاً يا عيد.

دفقة أخرى من النشوة جاءت تسرى فـى شـرايينه وهو يضع يده فى يدها ويستمع إلى الكلمـات التـى قالتهـا ويغمض عينيه كأنه يرى حلماً، والأم التى كانت تقف فى بهو البيت حانقة، غاضبة، تصرخ فى وجـه العيـد أن يـذهب صارت الآن تكبر وتهلل وتشكر ا وقد انبسـطت تجاعيـد وجهها ودمعت عيناها غبطة وفرحة، ومسرعة ذهبت إلـى المطبخ وأحضرت المشروب احتفالاً بالمناسبة وإكراماً للرجل الذى أعاد النطق لابنتها.

لم تستطع أن تدعوه إلى الجلوس والبقاء خشـية أن يأتى أحد الناس ويلقاه جالساً مع ابنتهـا، فظلـوا جمـيعهم واقفين، قالت وهى تمد له كوباً من رحيق الرمان الممـزوج بالماء:

- كدت أفقد الأمل فى أن تعود ابنتى إلـى الكـلام مرة أخرى، لم يكذب من أسماك العيد، فها قـد صنعت لنا عيداً فى بيتنا.

ثم التفتت إلى ابنتها تعاتبها:

- لماذا يا ابنتى تلقين هذا الرعب فى قلبى، لمـاذا بقيت صامتة، تاركة أماك وأبيك للحزن وشماتة الأعداء؟

غرفت جميلة فى الصمت من جديد، والعيد يتأملهـا بعيون عطشى ولا يقول شيئاً، والأم تركت مطبخها وظلـت واقفة تجفف رطوبة عينها وتحاول أن تسمع ابنتها تتكلم مرة أخرى، وكأنها لا تصدق أنها حقاً قد قالت للعيد أهلاً، تكلمت عن الأولياء الصالحين الذين استجابوا لدعوتها، وعن الوعـد الذى قطعته لسيدى أبو قنديل بأن تذبح كبشاً تطعمه لزائـرى ضريحة إذا ما وعد النطق لابنتها، ألحت بالأسئلة ترغمهـا على الكلام، قالت جميلة مصهورة فى وهج المعانـاة التـى عاشتها:

- لو عرفت بهجة الصمت مثلى لما وجدت رغبـة بعد ذلك فى الكلام.

جاء الخبر كالعاصفة التـى تهـب فـتملأ عيـونهم بالتراب، نسى أهل القرية أحاديث جميلة والدرويش ونصـر الدين وانشغلوا بالخطر الذى جاء يـداهمهم ويهـدد قـريتهم بالانقراض.

بدأ الخبر شائعة جاء بها القادمون من المدينة قائلين بأن الحكومة لم تعد ترى فائدة من وجود قرية مثـل "قـرن الغزال" بعد أن نضبت الصحراء من البدو وانتهـى دورهـا كمركز تجارى واختفت منها مصادر الرزق الأخرى، ولذلك فقد وضعت الحكومة خطة لترحيل أهلها ضمن مشروع جديد للحد من الإنفاق، وستنقل العائلات التى تقطن "قرن الغـزال" إلى مناطق أخرى للاستفادة مـنهم فـى استصـلاح أرض زراعية جديدة بالمناطق الساحلية يستوطنون بها، وتسـاءلوا عما حدث لمصنع الزجاج الذى سـتقيمه الحكومـة ليكـون مورداً جديداً للرزق، فأخبروهم أن البعثة العلمية التى جاءت لإنشاء المصنع لم تكن إلا لجنة عسـكرية يرأسـها ضـابط أمريكى لبحث إمكانية الاستفادة من موقعها وأبنيتها فى إنشاء قاعدة تدريب عسكرية للأمريكيين، وأن مصنع الزجاج لـم

يكن إلا ذريعة لإخفاء هذه الحقيقة ولضمان تعاون المواطنين وعدم استفزازهم للضابط الأمريكى وبين مصـدق ومكـذب صاروا يتناقلون الخبر ويضربون كفاً بكف اسـتغراباً لهـذه البدعة الجديدة التى لم يسمع أحد بمثلها من قبل:

- القرى الأخرى فى الدنيا تكبر وتتحـول إلـى مـدن، وقريتنا تمحى من فوق الأرض، إنها مهزلة

وذهب بعضهم ممن يتقنون القراءة والكتابة ينقبون فى الكتب القديمة التى بحوزتهم، والتى أوردت اسـم القريـة قائلين بأنها تأسست مباشرة بعد انتهاء عصر الجليد، وأنها قرية ذات تاريخ عريق تمتلئ بآثار القلاع التى حارب منها أجدادهم الغزاة، وأن اختفاء "قرن الغزال" سيكون خسـارة للجنس البشرى بأجمعه.

لم يتوقف أحد منهم ليسأل عن النفع الـذى سـيعود عليهم إذا انتقلوا عن القرية، كلهم اعتبروا الأمر كارثة تحـل بهم، وفكرة مجنونة تريد أن تقتلعهم من جذورهم وتخـرجهم من ديارهم وترمى بهم فى الخلاء، كثرت الاجتماعات التـى صاروا يعقدونها لتدارس الموقف، ما أن يفرغوا من اجتماع حتى يهرولوا إلى اجتماع آخر، أمام المسجد بعد كل صلاة،

ولدى دكان الشيخ مسعود وبيته، وفى ساحة السوق، حلقـات تعقد وحلقات تنفض سعياً للوصول إلى وسيلة يواجهون بهـا الموقف.

- كيف نترك أرض آبائنا وأجدادنا وأوليائنا، وقبور من ماتوا من أهلنا وأحبائنا؟

- إن فى الحكومة وزيراً أمه من قبيلة "المهـاريس" التـى ظلت تناصبنا العداء لأجيال وأجيال، ما إن وصل إلـى الوزارة حتى جاء يطالب بالثأر والانتقام لأخواله.
- لقد أعجبته (اللاقبى) الذى عبه تلك الليلة، فقـرر ذلك الضابط الأمريكى أن يستولى على القريـة وأشجار نخلها.
- سيتشتت شملنا وتذهب ريحنا إلى الأبد، وتشمت القبائل الأخرى بنا إذا نحن استسلمنا لهذه البدعة التى اخترعها الحكومة.
- إنهم سيقومون بتهجيرنا كما فعل اليهـود بأهـل فلسطين.

وفى النهاية عقدوا العزم على إرسال وفـد برئاسـة الشيخ مسعود لمقابلة المسؤولين لاستجلاء الحقيقـة وتقـديم عريضة للحكومة يلتمسون منها العدول عن هذا القـرار إذا كانت حقاً قد قررت ترحيلهم عن قريتهم، ملئـوا صـفحات كثيرة بالحديث عن مآثر القريـة وتـاريخ المعـارك التـى خاضتها ضد الغزاة، والأولياء والعلماء الـذين أقـاموا بهـا وماتوا فوق أرضها، ثم أخذ الوفد العريضة وبدءوا بالـذهاب إلى المتصرف الذى لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنه تجنباً للظهور بمظهر الجاهل الذى لا يعرف شيئاً عن مخططات الحكومة، لم يجزم لهم بشئ، بقـى يقـول كلامـاً عائماً دون أن يؤكد الخبر أو ينفيه وهو يحس بالحرج خوفـاً من أن يكتشف هؤلاء الناس جهلة فتهتـز مكانتـه وتضـيع بالتالى هيبته فى القرية، أوقعوه فى ورطة أكبر عندما سألوه عن المصنع الذى وعدتهم به الحكومة، لم يكن متأكـداً مـن شئ بعد أن جاءت هذه الشائعات التى تنـذر بقـرب نهايـة القرية، فتش فى ذهنه عن حيلة تنجيه مـن هـذا المـأزق، أخبرهم بأن المشروع يحتاج إلى دراسة جديـدة لأن هنـاك صناعة ظهرت حديثاً تهدد المصـنوعات الزجاجيـة هـى

صناعة "البلاستيك" رمى بهذه الكلمة التى لا أحد منهم يعرف لها معنى، فأدرك أنه أربكهم وأن أحداً منهم لن يعـود إلـى سؤاله مرة أخرى، تركوه وذهبوا إلى المحافظ فى عاصـمة المنطقة، دخلوا عليه يقدمون له العريضة، وضـع المحـافظ العريضة جانباً لكى يقرأها فيما بعد وسألهم عـن حـاجتهم، أبلغوه بالأخبار التى يتناقلها الناس عن تفكير الحكومـة فـى إعادة توطينهم بمناطق أخرى، وعما إذا كان ذلك حقيقـة أم مجرد شائعات كاذبة، أفادهم بأن البعثة العلمية التـى زادت قريتهم وضعت تقريراً أوصت فيه بترحيلهم وأن الموضـوع مازال قيد البحث، ولكنه وعدهم خيراً قائلاً بأنه سيعمل على إقناع الجهات أرض جديدة خصبة بدلاً من بقائهم فى قريـة مجدبة قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وانقاذهم من حياة الفقر والبطالة، وقف لكى يودعهم صححوا له سوء التفاهم الـذى وقع بينهم قائلين بأنهم بالعكس من ذلك إنما جاءوا يطـالبون بإبقائهم فى قريتهم ويرفضون ترحيلهم عنها، وأن العريضـة التى يحملونها إنما هى التماس من أهل القرية إلى الحكومـة بأن تعجل عن قرار الترحيل.

قال بوجه محتقن تمكن منه الغضب والاندهاش.

- هل تقصدون بأنكم تريدون حياة الجوع الفقر والمذلة؟

- رمى فى وجوههم العريضة وطـردهم مـن مكتبه.

عاد الوفد فى مهمته خائبا، وخيمت فـوق الـرؤوس سحابة ثقيلة من الهم وانتظار المجهول، بحثوا عن نائبهم فى البرلمان عله يرفع الأمر إلى سلطة أعلى ولكنه اختفى بحجة أنه ذهب للعلاج بإحدى المصحات فى الخارج، غرقوا فـى دوامة القلق والهوان، يسيرون فى طرقات القريـة يقلبـون النظر فى أبنيتها كأنهم يعيدون اكتشافها، كأن كل واحد منهم يريد أن يملأ عينيه بمشاهدها قبل أن يغرقها الطوفان القادم، وكانوا عندما تجمعهم لقاءاتهم الليلية قريبا من شجرة الأثـل فى ساحة السوق ويتطلعون إلى السماء وهى مليئـة بنجـوم تتدلى فوق رؤوسهم كالعناقيد، متوهجة ولامعة، وقد طـاب الهواء ورطبت أنسامه بعد نهار شديد القيظ، يحسون بالأسى لأنهم قد لا يلتقون هذا اللقاء مرة أخرى وقد لا يجدون نجوماً كهذه النجوم أو سماء كله السماء فى أية بقعة أخرى، ويدور

الحديث مراً، ساخراً، حول الكارثة التى تواجه بلادتهم، وحول عالمهم الذى ينهار ويتلاشى أمام أعينهم.

- إنهم يعدوننا بالجنة فى الأرض التـى سـينقلوننا إليها.
- ولكنهم لا يعلمون أننا نحيا هنا عيشـة الملـوك، النوم والبطالة، وهيهات أن نرضـى بغيرهمـا بديلاً.
- إنك لا تعرف جنة الحكومة، سـيأخذونك إلـى أرض خلاء ويعطونك فأساً ويقولون لـك هيـا احفر يا كلب.
- يقولون إنهم أعدوا لنا فـى المشـاريع الجديـدة أكواخاً من الصفيح كأنها القصور.
- سيتم توزيعنا بين منـاطق مختلفـة وعليـك أن تتصل بأمك أو أختك أو أخيك عن طريق برنامج بريد المغتربين فى الإذاعة.
- ها هم حكامنا الوطنيون ينفذون مـا فشـل فيـه بالبووجرسيانى وبودوليو، فيؤجرونهـا قاعـدة عسكرية للأجانب.

- لا ترفع صوتك فقد جاء الطربوش.

لم يكن من عادة المتصرف أن يخرج ليلاً يتجول فى القرية، ولم يكن من عادته أيضاً أن يختلط بالناس فى مثل هذه المجالس التى تضم رجالاً اختلفت أقدارهم ومستوياتهم فهو يحتفظ دائماً بتلك المسافة بينه وبين الناس التى يراها ضرورية لحفظ الهيبة والاحترام، رأوه قادماً نحوهم فوقفوا جميعاً يرحبون به، كانوا يجلسون فوق الأرض، تحرجوا من دعوته للجلوس مثلهم، فأسرع أحدهم واحضر كرسياً من دكانه القريب، استغرقتهم كلمات الترحيب والمجاملة ولم يتطوع أحد منهم لفتح الموضوع حتى بادر المتصرف بالكلام.

- ما أكثر الذين يضعون اللوم على الحكومة وينسون أن الحكومة جزء من الشعب.

قال أحد الجالسين مداهناً:

- والشعب جزء من الحكومة.

قال المتصرف جاداً:

- بارك ا فيما قلت، وينسون أن الأموال التى تنفقها إنما هى أولاً وأخيراً أموال الشعب.

كانوا قد عادوا إلى جلوسهم فوق الأرض فى حـين ظل هو جالساً فوق الكرسى الوحيد الذى جاءوا به إليه فبـدا أمامهم كبيراً شامخاً كأنه رجل عرف أسرار الكون، رفعـوا أبصارهم إليه ينتظرون النتيجة التى يريد أن يصل إليها.

- ولذلك فإنه ليس من العدل أن تنفق الحكومة كل هذه الأموال فى مكان لم يعد يخدم غرضـاً ولا يحقق لأهله مورداً ولا يجنى الوطن مـن وراء ذلك خيراً ولا فائدة غمرتهم سحابة من القلـق، هل يعنى ذلك أن ترحيلهم قد صار قراراً يـأتى المتصرف الآن لتنفيذه.

- إن أرض الوطن زاخرة بـالخيرات والمنـاطق الخصيبة التى تنتظر السواعد الشـريفة تعـزق أرضا وتخرج كنوزها، فما الذى يبقينا فى هـذه البقعة التى لا مورد فيها ولا رزق، سوى بضعة أشجار من النخل التى قاومت الجفاف لسـنوات طويلة وسوف لن تلبـث أن يصـيبها العطـش وتموت وهى الأخرى، تقولون إنها أرض الآباء

والأجداد، وما رأيكم فى ذلك المجاهد الذى ذهب من هذه القرية ليستشـهد فـى معـارك الشـط والهانى وسوانى بنيـادم والقرضـابية والجبـل الأخضر، هل يرضى بهذا الكلام الغريب الـذى تقولونه.

تبادلوا النظرات فى صمت، ها هو يوظـف جهـاد آبائهم لصالح فكرته وفكرة الحكومة ناسياً أنه إنما يجليهم عن قريتهم ليبيعها إلى مستعمر جديد، أراد أحد الجالسـين بـأن يقول ذلك ولكنه تذكر بأنه عامل تنظيفات بالمتسوصـف وأن المتصرف سوف يطرده من عمله إذا قال كلاماً يغضبه، رآه المتصرف بهم بالكلام فقال مشجعاً:

- نعم، تفضل.

أحس بالورطة التى أوقع نفسه فيها فبحث عن كـلام آخر يقوله بحيث لا يغضب المتصرف.

- لقد عاشت "قرن الغزال" فى حمى ولى من أولياء ا الصالحين هو سيدى أبو قنديل، فكيف بـا عليك تريدنا أن نتنكر له ونرحل عن هذه القرية

تاركين ضريحه بـلا مـزارات لا شـموع ولا نذور.

- سأنقل لك ضريحه إذا شئت.

رآهم يتبادلون النظرات فأحس بأن جملته اسـتفزت إيمانهم بالأولياء والصالحين، ولكنه لم يكثرت، لقـد وصـل الآن إلى ما يريد أن يقولـه، وسـيقوله بحسـم واختصـار ووضوح.

- ما أنصحكم به الآن هو أن تكتبوا عريضة جديدة ممهورة ببصمات وتوقيعات كل كبير وصـغير فى القرية، تطالبوا فيها الحكومة بأن تسرع فـى تنفيذ المشروع وترحيلكم إلى الأرض الجديـدة، ومن يمتنع عن التوقيع فلتعلموا جميعاً أنه عـدو لأهل هذه القرية، لا يريد لكم خيراً ولا نفعاً.

ألقى بتهديـده وانصـرف، هـا قـد اتضـح كـل شئ،فالحكومة لا تريد فقط ترحيلهم ولكنها تريد أن يركعـوا تحت أقدامها متوسلين إجلاءهم عن قريتهم.

- ها قد جاء الطربوش وصاحبه يضعاننا فى محنة جديدة.
- رأيت طربوشه من بعيد فبدا لى فى الظلام كأنه يحمل فوق رأسه غراباً.
- لن أضع توقيعى على هذه العريضة حتـى لـو تنازل لى عن طربوشه.
- إنها المهانة والإذلال إنها اللعنة تطـارد "قـرن الغزال".
- ما أحرانا بأن نذهب ونطلب الصفح من جميلـة ابنة عامر اليتيم، فلا شك أنها هى التى تطـارد القرية بلعناتها.
- لو كان ذلك صـحيحاً فإنهـا تسـتحق الرمـى بالحجارة.

أدى المتصرف المهمة التى كلف بها وعاد إلى بيتـه يفكر فى هذه التطورات الجديـدة وتأثيرهـا علـى حياتـه ومشاريعه، لقد ذهب صباح اليوم إلى عاصـمة المحافظـة مستجلياً حقيقة الأمر، معاتباً لأنهم أبقوه فى الظلام لا يـدرى ما يقول لأهل القرية، أبلغه المحافظ بأن الموضوع أكبر من

هذه الاعتبارات الصغيرة فهو مخطط سياسى للدولـة أملتـه المصلحة العليا للوطن وما على أمثالهما من مسئولى الحكـم المحلى إلا الطاعة والتنفيذ، إنه يتصل بعلاقة الحكومة بدولة صديقة تريد تأجير مكان فى الصـحراء يصـلح للتـدريب العسكرى فأعطتهم هذه القرية التى لا حاجة لأحد بها، ولكن الحكومة لا تريد أن يأتى ترحيل أهل القرية بالإكراه وإنمـا تريده أن يتحقق بناء على طلب الجماهير ورغبتها، لكـى لا يأتى من يقول بأن الحكومة قد أجلت النـاس عـن قـريتهم لتقديمها قاعدة عسكرية للأجانب، وتجد أبـواق المعارضـة والإذاعات المعادية فرصـة للتنديـد بالحكومـة ومهاجمـة سياستها، وعلى المتصرف أن يتدبر الأمر ويأتى بعريضـة أخرى من أهل القرية تشكو الفقر والبطالة وتطالب الحكومة بالتدخل السريع لإعادة توطينهم فى مناطق أخرى تتوافر فيها مورد الرزق والحياة، وستكون بعد ذلك مكرمة من الدولـة تتحدث بها الصحف والإذاعات عنـدما تتنـازل عـن إرادة المواطنين وتلبى حاجتهم وتجهد نفسها فى البحث عن مكـان لائق لاقامتهم ويتحول اللوم إلى شكر وثناء وتضـيع علـى

الأبواق المعادية فرصة ثمينة لإحراج الحكومة، وأنهى حديثه قائلاً:

- وأنت بلا شك أكفأ من يقوم بهذه المهمة.

نعم، نعم، بكل طيبة ورضا، بل هو يجد متعة عظيمة عندما تواجه الحكومة أزمة يستطيع أن يثبت فيها أنه أقدر الناس على فرض إرادتها وتنفيذ أوامرها، ولكنه لا يريد أن يخرج من هذه القرية التى كتب عليها الفناء خاوى الوفاض، لا يريد لهذا الجهد الذى بذله من أجل الحصول على جميلة يضيع مع الرياح التى جاءت تعصف بالقرية وتقتلعها من جذورها، لم يعد هناك ما يكفى من الوقت لأن تجرى الحكومة انتخابات فى هذه القرية بعد الآن، ومعنى ذلك أنه فقد أهم أوراقه فى اللعبة التى يلعبها مع عامر اليتيم، إنه لا يعترض على هذه السياسة التى أملتها المصلحة العليا للوطن، ولكنه كان يتمنى لو تأخر هذا القرار بضعة أشهر أخرى حتى لا تتناقض المصلحة العليا مع المصالح الدنيا لرجل مثله، لابد أن يبحث عن أساليب أخرى يعالج بها الموقف، فاليتيم ليس إلا عاملاً تابعاً له، وجميلة لن تكون لأحد غيره، وعليه أن يحسم الأمر الآن وقبل ظهور مفاجآت جديدة.

وهذا كبش آخر ينحر اليوم فى بيت اليتيم، لم يكن هذه المرة لإطعام زائرى ضريح سيدى أبو قنديل، إنما أنه يـذبح لإطعامهم وإطعام زوار بيتهم من نساء وصبايا جـئن إلـى جميلة مهنئات بالنجاح فى إجازة التدريس، البيت الذى عشش فيه الحزن يستعيد الآن شيئاً من بهجة الحياة، والأم تطـوف بين الزائرات تخدمهن وتقدم لهن الطعام، نشـطة، سـعيدة، كأنها عادت إلى صباها، فها هى جميلة تخـرج مـن حالـة العبوس والشرود، وتستعيد قدرتها على المرح مـن جديـد، تضحك وتتكلم مع البنات فى يسر وعفوية ولم يبق من تلـك الحالة القديمة التى لازمتها لأيام طويلة إلا بعـض الوقـدات التى تتفجر فى حالات الضيق والغضب.

- نسأل اللّه أن يديم علينا هذه النعمة.

لم تجد على لسانها سوى هذه الجملة، تقولها، وتعيـد قولها بلا ملل، وكأنها صارت تدرك بالحدس الذى اكتسـبته من خلال المحن التى رأتها، أن هذه اللحظـات إنمـا هـى لحظات نادرة فى هذا البيت، وأن السحب السوداء التى تنعقد فوق سماء القرية، إثر تواتر الأخبار بنقل أهلها إلى أمـاكن

أخرى، سوف تفرغ قريباً ما فى جعبتهـا مـن عواصـف ورعود.

قالت لزوجها بعد أن انتهى الحفل، وهما فـى غرفـة النوم:

- جميلة.

- ما بها؟

- لقد عانت كثيراً، ولم يعد ممكناً أن تقسو عليها كـل هذه القسوة.

- كنت دائماً أبحث عن مصلحتها.

- قل الحق يا رجل، لقد كنت تضع مصـلحتك هـى الأولى.

- ما هذا الكلام الذى تقولينه يا امرأة، منذ متى كانت مصلحتى تتناقض مع مصلحة ابنتى.

- الشهادة التى نالتها ضمان للمستقبل فلا خوف عليها بعد الآن.

- أفصحى يا امرأة، ما الذى يشغل بالك؟

- ما أن تسمع سيرة المتصرف حتى تركب جسـمها العفاريت.

ـ سأمهلها حتى ترضى.

- أليس من سبيل لأن تصرفه عنا؟ لماذا تذعن له وكأن ابنتنا لن تجد زوجاً غيره؟

- لعلك تفكرين في ابن تلك المجنونة التي جاءت تتهجم علي في بيتي.

لم تكن قد أخبرته بزيارة العيد إلى بيتهم وأثر ذلك في شفاء ابنته، لقد خافت من غضبه، فهي تعرف أنه منذ أن تخاصم مع أمه صار لا يطيق سماع اسمه، فما بالك إذا ما عرف أنها استقبلته في بيتها، ولكنها جازفت بالقول:

- ليس هناك في البلدة كلها من هو أليق بالعيد ليكون زوجاً لابنتنا.

عرفت الآن أنها قد أخذت جانب العيد في الصراع الدائر وأنها تضع نفسها مباشرة في مواجهة العاصفة.

أمسك اليتيم بذراعها غاضباً، أمسكه بقوة حتى أوجعها.

- لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام مرةً أخرى. قطع اللّه البنات وخلفتهن.

وفي اليوم التالي جاء المتصرف زائراً.

- تأخرت عن المجىء إلينا، فجئنا نسعى إليك.

- ما أنت إلا صاحب البيت.

هنأه، بنجاح ابنته فرد له اليتيم التهنئة عندما تـذكر أن ابنة المتصرف أيضاً تدرس مع ابنته، تقبل المتصرف التهنئة شاكراً وعقّب قائلا:

- هذه ليست إلا الفرحة الصغرى التى ستعقبها الفرحة الكبرى بإذن اللّه.

أدرك اليتيم ما يرمى إليه فأراد أن ينتهى من حسم هذا الموضوع بلا إبطاء.

- مازلت أطلب أن تمنحنى وقتاً، فها هـى المشـاكل تعصف بنا من كل جانب.

ولكن الوقت يمضى، وما تبقى من وقت علـى نهايـة القرية لا يسمح بهذا الترف الذى يطلبه اليتيم، اختار أولاً أن ينفى عن نفسه تهمة أن يكون مسؤولاً عما ألمّ بالقريـة مـن أحداث، قبل أن يدخل فى الموضوع الخاص.

- ليس هناك مشاكل وعواصف، الأمر مرهون بإرادة أهل القرية، هم يقررون بإرادتهم الحرة ما يريدون، وما على الحكومة إلا التنفيذ.

- سأكون بعون الله أول الراحلين.

أمعن المتصرف النظر إليه كأنه لا يصدق أن يقـول اليتيم هذا الكلام، ها هو يكشف أوراقه كلها، ضاعت أحـلام المجد القادم مع الانتخابات وجـاء يتحلـل الآن مـن كـل الارتباطات والمواثيق التى تربطه معه، قال محاولاً أن يبنى أرضاً يقف عليها بعد أن جاءت كلمات اليتيم تقـوض كـل شىء":

- لا تستعجل الأمر يا يتيم، هذه مسألة يقتضى تنفيذها سنوات وسنوات، إنها ليست خيمة تطوى وينتهى الأمر.

بادره اليتيم قائلاً:

- لقد عودتنا الحكومة دائماً سرعة الإنجاز والتنفيذ.

لم يجد المتصرف مفراً من أن يلجأ إلى الكـذب هـذه المرة.

- ولكن الانتخابات ستمضى كما كان مخطط لها، وها أنت بعد أن تعلمت القراءة والكتابة صرت أكثر الناس جدارة بها، وليس من شك أن فوزك سيكون بالتزكية.

ارتسمت على وجه اليتيم ابتسامة ساخرة.

- لم أعرف من الكتابة والقراءة غير أن أرسم اسمى، بل لعلى قد نسيته فى خضم الأحداث، لا شك أن فى الـدنيا من هم أكثر جدارة منى.

أدرك المتصرف أن حلم الاختلاء بجميلة فى غرفة نوم مغلقة صار يضيع الآن من بين يديه، وأن اليتيم يلعب لعبة لا يدرك خطورتها، جاء يتظاهر بالزهد فى المناصب بعـد أن عرف اتجاه الريح، كتم غيظه قائلاً:

- ها أنذا أرى أجنحة الأحلام الكبيرة تتكسر، فما الذى حدث؟

لم يقل اليتيم شيئاً. ليس لذلك إلا معنى واحد فى ذهـن المتصرف وهو أن اليتيم يقفل فى وجهه الباب، ولكـن مـا مصير الهدايا التى جاء بها، الأموال التى أنفقها بغير حساب، الخدمات التى قدمها لليتيم وأسرته، هل يذهب كل ذلك هبـاء كمن يحرث السباخ، هل ينسى أنه صنع منه سيداً بعد أن كان رجلاً عديم القيمة يسكن وسط الخرائب مع العقارب والفئران والصراصير، وأذل نفسه بالمجىء إلى زيارته طيلـة هـذه الأشهر، أم أن الغرور لعب برأسه حتى ظن أنـه نـد لـه، سيعرف كيف يرد له الضربات، وسيرغمه على أن يأتى إليه

خانعاً، ذليلاً، يتوسل أن يرضى بابنته زوجةً لـه، وقبـل أن ينصرف أراد أن يعطى اليتيم فرصةً أخيرة لعله ينفى هـذه الظنون.

- أما أنا فما زلت ملتزماً بالعهد.

وصمت قبل أن يضيف:

- ومازلت راغباً فى عقد أواصر المصاهرة بيننا كما تم الاتفاق.

وعندما بدأ اليتيم يسوق الحجج التى تمنعه من الموافقة على إقامة العـرس قبـل مجـىء الصـيف القـادم، أدرك المتصرف أن هذا إيذان بالقطيعة بينهما، وأنه سوف لا يدخل بيته بعد الآن أبداً، لأنه صار منذ هذه اللحظة عـدوه الـذى سيستعمل كل الأسلحة لسحقه وهلاكه.

ضرب الباب خلفه بعنف وخرج.

انتفض اليتيم وهو يسمع دوى الباب، وأدرك أنـه الآن قد صار يتيماً مرةً أخرى.

(٣١)

انطلق أفراد الشرطة يطوفون شوارع القرية يلتقطون السائرين فى الطرقات ويدقون الأبواب ويخرجون الرجـال الذين اعتكفوا فى بيوتهم ويذهبون إلى المصلين فى المسـجد والجالسين فى المقهى وأصحاب الدكاكين وزبـائنهم أو مـن جاء يجلس ويشرب الشاى معهم، وعمال الورشة والمستودع، وزوار المستوصف وعماله، والمشتغلين بمحطـة الكهربـاء ومحطة الوقود ومضخة المياه ومعلمى المدارس وعمالهـا، ويذهبون يتجولون بسياراتهم خارج القرية يلتقطون الرعـاة وساكنى العشش يسوقونهم إلى قصر المتصرفية للتوقيع على الالتماس الذى يطالبون فيه بنقلهم مـن قـريتهم، يهـددونهم بالضرب والسجن، ويرغمونهم على الذهاب، رفض عاشور أن يذهب مع الشرطى الذى جاء به المقهى يأخذهم للتوقيـع قائلاً بأنه سيبقى ليرعى أشجار النخيل التى أورثها له والـده وأوصاه قبل أن يموت ألا يتركها أبداً، وأنه لا يريد شيئاً من الخدمات التى تقدمها الحكومة وسيعرف كيف يتـدبر حياتـه بدونها، تكاتف معه بقية الجالسين فى المقهى، اشـتبكوا فـى عراك مع الشرطى الذى أطلق صفارته فجاء عدد آخر مـن

أفراد الشرطة يسوقونهم إلى المركز، أدخلوهم واحـداً بعـد الآخر إلى دار "العروسة" التى يضعون بها "الفلقة" ضربوهم على أقدامهم حتى تورمت، وفتحوا لهم محضراً بحجة أنهـم اعتدوا على شرطى أثناء تأدية واجبه الرسمى، ولم يطلقـوا سراحهم إلا بعد أن رضوا بالتوقيع على الالتماس، أشـاعت هذه القصة جواً من الرعب فى قلوب أهل القرية فتقـاطروا على مبنى المتصرفية يلتمسون النجاة لأنفسهم بالتوقيع علـى ما تريده الحكومة.

قال المتصرف عندما جاء كاتبه يضع أمامه الالتماس مصحوباً بقوائم طويلة امتلأت بالتوقيعات والبصمات:

- هل بقى أحد فى القرية لم تأخذا موافقته؟
- لم يبق إلا النساء والأطفال.
- إذن فهو قرار اتخذته القرية بالإجماع.
- نعم بالإجماع يا سيادة المتصرف، لم يبق إلا أن يعتمدها شيخ القرية، وقد أرسلت فى طلبه.
- وماذا تراهم يقولون؟

- إنهم يلهجون بالثناء على الحكومة التى أتاحـت لهم هذه الفرصة للتعبير عـن مشـاعر الحقـد والكراهية ضد قريتهم.

قالها ضاحكاً فرد المتصرف على سخريته قائلاً:

- كنت أتمنى لو أتيحت لنا فرصة من الوقت لتهيئة الأذهان وإقناع الناس بالفكرة، ولكنهـا أوامـر الحكومة وقد وجب تنفيذها.
- إن أحداً لا يلومك يا سيادة المتصرف، ولكـنهم يلومون ابنة اليتيم.
- وما دخل ابنة اليتيم فى موضوع كهذا.
- لقد صورت لهم عقولهم إنها سبب اللعنـة التـى تطارد القرية.

لمعت عيناه اندهاشاً وإعجاباً، قفز على الفكرة باحثاً فيها عن شئ بفضله من العمل نتيجة إهماله وغيابه المتكرر، وسيتدبر الآن طريقة يستفيد بها من هذه المعتقدات السـاذجة التى يحملها أهل القرية عن ابنته ويستغلها لقهـره وإذلالـه، سينتقم لنفسه من هذه الفتاة التى رفضت بلا خجل ولا حيـاء اليد التى بسطها إليها لانقاذها من الفقر والمذلة، ولن تمضى

سوى أيام قليلة حتى يأتى بها والدها ضارعاً متوسلاً طالبـاً الصفح، إنه يعرف هذا النوع من البشر.

قال يخاطب كاتبه:

- من يدرى إن لاعتقـاد هـؤلاء القـوم أسـبابه ودوافعه، أليست هى من دفعت بأحد الناس إلـى الموت ودفعت برجل آخر إلى الجنون.
- إنك لا تصدق مثل هذه الخرافـات يـا سـيادة المتصرف.

ولكن المتصرف شرح لكاتبه كيف أنه يصـدقها، وأن علـى الكاتب أيضاً أن يصدقها، وأن يجعل الناس جميعاً يـزدادون اقتناعاً وإيماناً بأن الشر الذى يطارد القرية إنما جاء بسـبب هذا الشؤم الذى ولد مع ميلاد ابنه اليتيم، لأن أبخرة الغضب والنقمة التى تتصاعد الآن فى الصدور سوف تتحـول إلـى سحب تنذر بمجيء العواصف، وإذا لم يبحثوا عـن سـبيل لتصريفها فى اتجاه آخر فإنها ستتحول نحـوهم وسـيجدون أنفسهم ذات صباح فى مواجهة جمهور هائج لا يحكمه عقل ولا منطق يريد هلاكهم.

أدرك الكاتب ما يهدف إليه المتصرف، لقد عاشـره طويلاً، وانتقل معه إلى مكان إلى آخـر، عينـا لـه علـى الآخرين، وحافظاً لأوراقـه وأسـراره، قـال وهـو يهـم بالانصراف.

- عرفت ما تريد، وسأفعل ما يمليه الواجب.

خرج من المكتب ليجد الشيخ مسعود واقفـاً بالبـاب ينتظر الإذن بالدخول، كان بجواره ضوء الهلال الذى كـان آخر من جاء للتوقيع، لقد اقتضى الأمر إرسال ثلاثـة مـن أفراد الشرطة لإجباره على الحضور، كـان يقـول للشـيخ بصوت متهدج كأنه البكاء، غير عابئ بوجود الكاتب الـذى وقف يأذن برأسه للشيخ بالدخول:

- هل نرضى بتنفيذ مشيئتهم كما تفعل النساء.

رد عليه الشيخ وهو يخطو باتجاه مكتب المتصرف:

- لا تعاند من إذا قال فعل.

بادره المتصرف قائلاً عندما رآه:

- لم يبق إلا توقيعك يا شيخ مسعود.
- من أجل هذا جئت.

ثم أضاف بعد لحظة وصمت.

- ولكن هل كان لابد من استعمال هـذا الأسـلوب لإرغام الناس على التوقيع؟

كان الغضب واضحاً فى صوته وملامح وجهة، قال المتصرف بأسـلوب نـاعم، مخاتـل، تعـود أن يسـتعمله لامتصاص المواقف المتفجرة:

- إننى فى حيرة مثلك يا شيخ مسعود، هـل كـان لابد أن نجرهم إلى الجنة بالسلاسل، أمـا كـان الأجدر بهم لو جاءوا طواعية ودون إكراه.

قال الشيخ مسعود دون أن يعبـأ بمـا فـى لهجـة المتصرف من تظاهر بالبراءة:

- ليت الحكومة احتفظت بجنتها وسلاسـلها بعيـداً عن هذه القرية.

قالها وكأنه يخاطب نفسه ثم أضاف:

- وهل تريد أن ترغمنى أنا أيضاً على التوقيع؟

- قال المتصرف وكأنه لا يشك شكلاً صامتاً كمن يبغى أن يقذف بنفسه من فوق الجبل.
- لقد رأيتنى بنفسك أطوف على مكاتب الحكومـة أطالب بالغاء هذا القرار، فكيـف بـا عليـك تريدنى اليوم أن أرفع إليهم التماساً بعكـس مـا كنت أطالب به.

كان واضحاً انه يرى فى الأمر مسألة تمس كرامتـه الشخصية، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

- إننى لا أستطيع التوقيع.

لم يكن المتصرف متهيئاً لسماع مثل هذا القول، فتح عينيه وفمه اندهاشاً ثم تدرك نفسه وأطلق قهقهة عالية كمـن سمع نكتة أعجبته وأرد أن يستعيدها.

- ما الذى تقول يا رجل؟

- أقول إننى لا أستطيع التوقيع.

انطفأت ضحكة المتصرف، قال وهو يتـرك مكتبـه ويقف فى مواجهة الشيخ الذى وقف مجاراة له:

- إن هذا عصيان للحكومة.

وبغشامة البدوى الذى اتخذ قراره ولم يعد يعبأ بالنتـائج قال الشيخ:

- اعتبره عصياناً إذا شئت، واعتبرنى مستقيلاً من مشيخة القرية.
- لم تعد هناك قرية حتى تكون شيخاً عليهـا، وسأجد نفسى مضطراً للقبض عليك وإرسالك للمحاكمة.
- ما هى التهمة يا ترى؟

ودونما تفكير وكأن له جهازاً فى رأسه يتولى تجهيز الاتهامات وتقديمها إلى لسـانه فـى يسـر وسـهولة قـال المتصرف:

تحريض الناس على الشغب.

دارت الشمس دورتها وعادت مرة أخرى تنفث قيظها الشديد الذى تشربه الأرض وتعيده صهيداً لافحـاً كـالوهج الطالع من الأفران، ورجال القرية غارقون فى موجة الحـر والذل والغبار، يبحثون عن ظل حائط أو شجرة يدسون تحتها رؤوسهم ويناقشون فى همس أمر الشيخ مسعود الذى أخذوه إلى السجن، لقد قالوا نعم فجاء هو يقول لا، ويحسون بـالإثم لأنه الآن يدفع الثمن بالنيابة عنهم جميعاً، ويجهدون أنفسـهم فى البحث عن وسيلة يخرجون بها الرجل من محنته. عندما كان الحاكم إيطالياً يرتدى برنيطة ويرطن بلغة غريبة ويضع فوق رأسه علماً مثلث الألوان ويقدس تمثالاً للبـؤة ترضـع شبليها، كانوا يعرفون أن هذا هو الاستعمار، فيرفعون فـى وجهه البنادق ويحاربونه بالسكاكين والعصى والحجـارة إذا عزت البنادق، ويجاهدون من أجل يوم تؤول فيه أمورهم إلى حاكم من أبناء الوطن، وعندما جاء هـذا الحـاكم واسـتعار أسلوب الأجنبى فى معاملتهم وقعوا فى الحيرة والهوان، إنـه يملك ملامح كملامحهم وسحنة لوحتها الشـمس كسـحنتهم، يتكلم ذات اللغة التى يتكلمونها بل هو يتكلمها بأسلوب أكثـر

فصاحة وإشراقاً منهم، ويحفظ بأفضل مما يحفظون أحاديث النبى وآيات القرآن الكريم ويأتى على ذكرها فى أحاديثه معهم، يضع فى يده مسبحة ويعتمر طاقية أو طربوشاً ويحضر معهم صلاة الجمعة وفوق رأسه يرفرف علم يحمل هلالاً ونجمة ولوناً أحمراً يرمز إلى دم الأجداد المسفوح فوق تراب الوطن، ماذا يفعلون معه وكيف يجدون القوة لمحاربته، كانوا يحاربون الأجنبى، لأنه أجنبى جاء يحكمهم فهو استعمار وعدو للدين والوطن ويتحملون الموت فى سبيل ذلك لأنه شرف ووطنية وشهادة جزاؤها الجنة. يغرقون فى دوامة الحر والذل والغبار، ينظرون إلى الأهلة والنجوم التى تملأ الأعلام التى ترفرف فوق أبنية الحكومة، ويتأسفون على اليوم الذى سلموا فيه بنادقهم للجالسين فى ظل هذه الأعلام.

إنه موسم نضوج البلح، أكثر مواسم القرية نشاطاً وبهجةً، انتهت مواسم الحرث والحصاد والخروج لملاقاة الربيع بعد أعوام الجفاف الطويلة، ولم يبق إلا هذا الموسم يقيمون له الأعياد والأفراح، يرسلون الغناء ويعزفون المزامير ويضربون الدرابيك ويلتقون بعائلاتهم تحت أشجار النخيل التى تشابكت تصنع سقفاً يقيهم الحر ويعودون بالليل

يقيمون السهرات فى ضوء القمر ويشتغلون بتقطيع العراجين وتعبئة الرطب فى الصناديق والعودة بهـا لتجفيفهـا فـوق السطوح أو لشحنها فى سيارات نقـل صـغيرة يؤجرونهـا لتسويق البلح فى المدن الأخرى.

ولكن بهجة هذا الموسم انطفأت، قد يذهب أحدهم بـلا احتفال يقطع عرجوناً لإطعام أهله أو لوضعه فى صـندوق أمام دكانه إذا كان صاحب دكان، أما البقية فقد تركوا الـبلح فى عراجينه طعاماً للطير وانشغلوا بهذا الهـم الـذى جـاء يداهمهم على حين غفلة وينتظرون يوماً تنفـرج فيـه هـذه الأزمة ليقيموا بعد ذلك الأفراح ابتهاجاً بنضوج ثمار النخيل.

ولكن الحلقات لا تعقد إلا لتنفض مرةً أخـرى دون أن يهتدوا إلى شىء محدد يفعلونه، تعبير أخرس عن السـخط، وخوف من مجابهة وبطش الشـرطة، وإحسـاس بـالهوان يجعلهم يفقدون الشهية للنوم والطعام.

قال ضوء الهلال الذى يحن ليوم يدوى فى الرصاص، ويحلم بمجيء الحرب، وقد رأى جماعة مـن أهـل القريـة يعقدون اجتماعاً فى الضحى تحت شجرة الأثل:

- لعن الله الجبناء والمخنثين.

وبصق فى الأرض.

لقد تعودوا بذاءاته، فضحكوا ولم يردوا عليه.

كان رواد المقهى الدائمين أمثال عاشور وسليمان مع صاحب المقهى سلطان قد جاءوا هم أيضاً ينضمون إلى الجالسين تحت الشجرة بعد أن سحب الشرطى الذى عاركوه رخصة المقهى واستصدر أمراً بإقفاله لمدة أسبوع، قال عاشور وهو يمسح العرق الذى يتصبب غزيراً فوق جبينه وعنقه وصدره:

- لقد خلقنا لنكون أحطاباً للنار، وإلا ما الذى يجبرنا على البقاء فى قرية فتح اللّه عليها باباً من أبواب جهنم، ونتحمل فى سبيل ذلك الأهوال التى رأيناها فى دار العروسة.

قالها بسخرية ولكنها حركت شيئاً فى قلوب الرجال الذين تضمهم الحلقة، ما الذى يدعوهم حقاً إلى البقاء فى هذه الأرض التى ما أن يأتى الضحى حتى يصير ترابها حديداً مصهوراً، إذ مهما كان نوع الحياة التى سينقلونهم إليها فلن تكون بأية حال أسوأ مما هم فيه الآن، جلسوا صامتين كأنهم يحاولون أن يجدوا شكلاً واعياً لهذه الرغبة الغامضة فى التشبث بأرض ميتة نضبت منها كل أسباب الحياة، وينظرون

حولهم يستنجدون بالهضاب البعيـدة والبيـوت والـدكاكين والأبراج وأشجار النخيل المتناثرة عبر دروب القرية فتبـدو صامتة، حيادية، كأن الأمر لا يعنيها، ويهبطـون بأنظـارهم إلى الشجرة التى يجلسون فى ظلها وقد نفرت عروقها وامتلأ جذعها بالثقوب والحروق من آثار رصاص معركة قديمة.

- من أين سنلقى شجرة مثل هذه اخترقـت جسـمها مئات الرصاصات ومع ذلك ظلت عنيدة تتحـدى بأعرافهـا الخضراء زمن القحط والطرابيش؟

قال أحدهم ذلك محاولاً بلهجة سـاخرة تفسـير هـذه الرغبة فى البقاء.

- لكنها عقيم لا تطرح ثمراً ولا تطعم من جوع.

- يكفى أنها تمنحنا الآن ظلاً، فلا تكن جاحداً نـاكراً، إن هذه الشجرة وطن.

لازال فى القرية من العجائز مـن يعتبرهـا شـجرة مباركة يستجير بها ويقيم تحتها الصلاة ويستنجد بهـا فـى الملمات.

- إذا كانت حقاً شجرة مباركة فلعلها لن تتخلى عنا.

- ها قد عدنا نستنجد بالأشجار لحمايتنا بدلاً مـن أن نحمى نحن الأشجار.

- ليته قال نعم فأنقذ نفسه من السجن وأنقذنا نحن من هذا الإحساس بالعار.

دارت الرؤوس تلتفت شمالاً ويميناً خوفاً من أن يكون أحد الوشاة قد جاء يتصنت إلى كلماتهم، إنهم يحاولون تجنب الخوض فى الموضوع الذى يستفز الحكومة لأنهم لا يريدون زيارة أخرى إلى دار العروسة، ولكن الحديث فى المواضيع الأخرى لا يطاوعهم، فيصـمتون طـويلاً ويعـودون إلـى الموضوع بالهمس والإشارة.

رأوا على البعد رجلاً قادماً نحوهم، خشوا أن يكـون عيناً من عيون الحكومة فسكتوا عن الكلام، وعندما تبينـوه وجدوا أنه عمران يرسف فى ظله الذى يجره تحـت قدميـه كالأغلال، لقد صار هو أيضاً مهموماً بهذا الخبر الجديد الذى سيحرمه كنزاً جاهد عمراً فى سبيل العثور عليـه، فأصـبح يأتى ويشارك فى جلساتهم بالصـمت والاسـتماع، اسـتفزه عاشور قائلاً:

- هناك من يقول بأنك قد عثرت على الكنـز وأنـك تخبئة فى بيتك مدعياً الفقر خوفاً من أن تأخذه منك الحكومة.

ظنه يتكلم جاداً فأقسم باللّه وكتبه ورسله أنه لم يعثـر على شيء حتى الآن، ولكن الأمد لن يطول، فقد أكمل حفـر أغلب المناطق ولم تبق إلا المناطق التى ينتهى عندها ظـل الجدار، ولهذا فهو لن يستجيب لنداء الحكومة بترك القريـة الآن، حتى لو فقد عمله وأقفلوا المخبز فسيبقى فى مكانه حتى يعثر على الكنز الذى وعدته به الملائكة، أفهموه بأن المسألة لا خيار فيها وأنهم سيقومون بشحن أهل القرية جميعـاً فـى سيارات نقل كبيرة.

- سأعود حتى لو أخذونى إلى آخر الدنيا.

- ولكنها ستكون منطقة عسكرية يضـربون حولهـا سياجاً من الأسلاك الشائكة المكهربة.

- ومع ذلك سأعود.

- ستصعقك الكهرباء أو يخترق جسـمك رصـاص الحراس.

تقلصت ملامح وجهه وكأنه يريد أن يبكى، نظر إلـى وجوههم يطلب النجدة، ولكن أحداً لا يتقدم لنجدته، هل يضيع

جهد العمر هباء، تساءل فى حيرة إذا كان ثمة وسيلة لمنـع الحكومة من تنفيذ هذا القرار، قال عاشور:

- إنها مشكلتك وحدك يا عمران، فليس كـل إنسـان موعوداً بكنز مثلك، ولكن. .

- ولكن ماذا؟

- سنقف معك إذا وعدت بأن تقاسمنا الكنز.

أقسم باللّه وكتبه ورسله بأنه سيجعل فى كنـزه حقـاً للسائل والمحروم وسيبنى لهم مسجداً كبيراً وسيتقاسم كنـزه مع كل من يقف معه فى سبيل إلغاء هذا القـرار، فوعـدوه صادقين بأنهم سيتكاتفون معه وسيقفون من أجله صفاً واحداً حتى تتراجع الحكومة عن قرارها.

كان العيد عائداً من غابة النخيل يحمل سلة وضع بهـا عرجوناً من البلح جاء به إلى أمه عندما التقى بضوء الهلال يمشى بجوار الحائط يطارد الظل، كان ساخطاً يتكلم مع نفسه ويلوح بيديه فى الهواء بعصبية كأنه يعارك الأشـباح. لقـد حمل السلاح وهو صبى يحارب الطليان وسافر فـى زمـن الهجرة مع المهاجرين وأقام بقرية خلف الحدود يرعى أهلها الأغنام ويضع أذنيه على الأرض ينتظر أن يسمع وقع خطى

الطليان وهم يرحلون، وعندما رحلوا عاد، مات أهله جميعـاً ولم تبق معه سوى طفلة ولدت هناك أسماها »راجعة« أمـلاً فى يوم يعود بها إلى قريته، جاء سعيداً يحمل طفلتـه بـين ذراعيه، وجد أن عساكر الطليان قد حـل مكـانهم عسـاكر الإنجليز، فعاش متأزماً يمنى النفس بالحرب، لقـد اقتضـى الأمر حرباً كونية حتى خرج الطليان، وهو يريد الآن حربـاً كونية أخرى تصلح الخلل الذى أصاب الكون، كبرت ابنتـه وأصبحت ممرضة بمستوصف القرية فأخذ مرتبها يشترى به زيتاً ودقيقاً يخزنهما للأيام المهولة القادمة وينذر أهل القريـة بقرب مجىء الحرب، كان يسأل العيد كلما لقيه أن يكتب لـه مذكراته التى سيكشف فيها الخونـة الـذين بـاعوا الـوطن ويتنعمون الآن بالنياشين والأوسمة، ولكنه اليوم كان غاضباً يزفر ويبصق فى الأرض ولا يقول شيئاً.

- ماذا يا عمى ضوء الهلال، هل قامت الحرب؟

- حتى أنتم يا من ذهبتم إلى المدارس تتفرجون كـأن الأمر لا يعنيكم.

- ما الذى حدث؟ لعلك لا تعلم أن الدوتشى قد شـنقوه فى شوارع روما.

- ولكن من يشنق دوتشى هذه البلادة، أحمد اللّه أننـى مازلت أحتفظ بالبندقية التى حاربت بها الطليان وإذا ما بقيت الأمور على هذه الحال فسأخرجها من الحفرة التى خبأتها بها وسأذهب وأعتصم بالجبل وأبدأ بإطلاق النار.

قال العيد وهو يعلم أن الرجل لا أمان له، وقـد يعلـن الحرب فى أية لحظة:

- أرجوك أن تنتظر حتى أعود إلى المدينة ثـم ابـدأ بإطلاق النار على كل من تراه.

- الهروب، هذا ما تفكرون به جميعاً، بلادكـم تبـاع للأجانب وأنتم تهربون، ألم تعلمكم هذه المدارس شيئاً آخـر غير المذلة والخنوع؟

- لقد طال شوقنا إليها، فأين هذه الحرب التى وعـدتنا بها؟

لم يكن الأمر فى نظر ضوء الهلال مزاحاً، فـالحرب بالنسبة له قد بدأت فعلاً.

- كنت دائما أعتبر الشيخ مسعود شيخاً ضعيفاً، جباناً، لا رأى له ولا موقف، ولهذا أبقت عليه الحكومة، ولكنه هذه

المرة أثبت أنه رجل، وعلى بقية أهل القرية أن يثبتوا أنهـم أيضاً رجال.

إنه الرجل الوحيد الذى يتكلم فى هذه المواضـيع بـلا حرج، تحرر من خوفه حتى صارت صراحته شـذوذاً فمـا عادت تثير أعوان الحكومة ووشاتها، لم يكن العيد قد فكـر كثيراً فيما حدث، لقد جاءوا إليه يدقون باب بيته كغيره مـن أهل القرية، اعتذر بأنه مقيم فى المدينة حيث مقـر عملـه، ولكنهم رفضوا أن يتركوه، ساقوه كغيره من النـاس ليضـع إمضاءه على الورقة، لم يكن حتى ذلك الوقت قد حدد موقفـاً مما يجرى، بل لعله رأى فيه انتقاماً عادلاً تلاقيه قرية ظلمت نفسها ومنحت أيامها عطاء سخياً للفراغ والبطالة ولـم يعـد أمام أهلها شىء يفعلونه سوى أن يبعثوا بطلبات إلى الحكومة يتسولون العمل بمكاتبها عسساً ومباشرين، منهم من تحقـق حلمه وصار يتقاضى أجراً ضئيلاً مقابل هذه البطالة الجديدة ومنهم من ينتظر، وتفرغوا جميعاً لسف التراب الذى تأتى به الرياح القادمة من الصحراء، يفتعلون المعارك لأتفه الأسباب وليس على ألسنتهم سوى الشتائم والسباب وتسقط الشـائعات والأكاذيب، قرية تتآكل وتتلاشى وكان لابد أن تلاقـى هـذا

المصير، حتى وإن لم يكن انتقاماً فهو إنقاذ لهـم مـن هـذا العطب الذى تسلل إلى أرواحهم فصـارت تصـدأ وتشـيخ ويتبخر منها الدفء والحب، ويستسلمون فى بلادة لهذا الواقع ويتآلفون معه كأنهم سعداء بهذه الحياة التى لم تعد حياة وإنما انتظاراً لمجىء الموت، لقد ترك هو أيضاً عمله وأقام بيـنهم يتناول الطعام من صحافهم ويتنفس الهواء الـذى يتنفسـونه ويستسلم مثلهم إلى حالة البلادة التى تغلف الحياة فـى هـذه القرية، تسبح بهم الأرض فى دورتها اليومية وكأنهم ليسـوا جزءاً منها، بنوا فى عقولهم أسواراً تعزلهم عن ضجيج الحياة وإيقاع العصر واستكانوا لحياة الكسل والبطالـة وارتضـوا بالعيش تنابلة فى قرية انتهى زمانها.

لا شك أنه كان سيفر من هذه القريـة طلبـاً للنجـاة وهروباً من هذه الرمال الرخوة اللازجة التى صارت تمتصـه مثلهم، لولا ما يربطه بجميلة، ولا يسـتطيع أن يغفـر لهـم سلوكهم العدائى ضد هذا الشىء الوحيد المبهج، المضىء، فى قرية يأكلها البؤس وتملؤها أكداس القبح، تيبسـت أرضـها وأملحت عيون مائها فلم تعد تلد إلا العقارب وأشواك العوسج وثمار الحنظل، لقد كان سعيداً بأن يـرى عـالمهم يتقـوض

وينهار ويغمره الطوفان، حتى لو لم تكن الحكومة صادقة فى منحهم أرضاً زراعية جديدة فإن مجـرد أن يتركـوا هـذه الخرائب ويبتعدوا عن هذا الخلاء سيكون فى ذلك علاج لهم. لقد كانوا بحاجة إلى هذا النبأ الـذى زلـزل الأرض تحـت أقدامهم لكى يعودوا إلى بشريتهم التى صاروا ينسلخون عنها يوماً بعد يوم. هذا كان رأيه قبل أن تأتى رسـل الحكومـة يسوقونه مكرهاً للتوقيع ويجعلونه يرى الأمور فـى ضـوء جديد، لقد عرف لحظتها عمق الإهانة التى تلحقها الحكومـة بالناس، إنها لا تأخذهم بعيداً عن قريتهم لأنها تحبهم أو تشفق عليهم أو تريد لهم الخير. إن ما تفعله مجرد حلقة أخرى من حلقات الإذلال والمهانة التى تبدأ بتزييف الانتخابات وتنتهى إلى أخذ هذه القرية التى تمتلئ بقبور الرجال الذين ماتوا وهم يكافحون الأجنبى وتأجيرها إلى أجنبى جديد، لقد كان بإمكان الحكومة أن تبنى مصنع الزجاج الذى وعدتهم به فتمـنحهم بذلك عملاً وتعيدهم بشراً وتجعل قـريتهم صـالحة لحيـاة الإنسان، ليتها كانت صادقة فى الاستفادة من جهـودهم فـى استصلاح أرض زراعية جديدة يرحلون إليها لا مجرد حيلة لجعل هذه القرية قاعدة عسكرية للأحلاف الأجنبية، إن فـى

الأمر استفزازاً لكل تلك المشاعر التى تأصلت وتعمقت عبر قرون طويلة من مصارعة الموجات المتلاحقة من جنود الغزو، لعل الذى بنى هذه القرية فى عمق الصحراء كان هارباً من بطش حاكم أجنبى، فجاء يبنى قلاعه ويمنع أى إنسان غريب يطأ أرضه، فكيف بهم الآن وهم يواجهون حكومة تريد أن تأخذ منهم قريتهم بأبنيتها وهضابها وأوديتها وغابات نخلها وسمائها ونجومها وشمسها وقمرها، تعطيها لدولة أجنبية وتقذف بهم إلى المجهول. لقد كانوا ضائعين فقدمت لهم الحكومة الآن هدفاً يجتمعون عليه ويتوحدون حوله أحاديثهم، يعطى لجلساتهم معنى وينتشلهم من أحاديث السحر والأشباح والتلهى بالشائعات والأكاذيب، أيقظ الخطر الداهم الخلايا التى تآكلت ودفع الدماء فى شرايين القلب قوية دافقة تعيد النبض للوجوه التى تكلست وتمنح كلماتهم التوهج والحرارة، وفى قلب الصورة يقف ذلك الموظف البائس الصغير الذى عينوه متصرفاً فى هذه القرية فاحتمى ببعد المنطقة عن المدينة ونصب نفسه ملكاً يحكم بالحق الإلهى، فشلت الرشوة والمداهنة فى أن تجعله يفوز بجميلة فجاء اليوم يفرقع سوط القوة فوق الرؤوس، يفصل والدها عن عمله لكى

يرغمه على تقديم ابنته له اتقاء لشره، يضرب الناس ويقودهم إلى السجن دون أن يلقى عقاباً.

رأى أمه فرحة بعرجون البلح الذى كان باكورة إنتاج النخيل لهذا الموسم، صارت تأخذ العرجون وتقلبه بين يديها، تشمه وتقطف منه بلحاً تذوقه وتدعو الأطفال الذين تصـادف وجودهم أمام المنزل تفرق بعضه عليهم وترسل بعضه الآخر للجيران، وتلومه لأنه لم يأخذها إلى هناك لترى الـبلح وقـد نضج، وتقطع على نفسها عهداً بأن تذهب كل يوم مع بقيـة العائلات لقضاء الأمسيات بجوار النخيل، تأكد له عند ذلك أن أمه سوف لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن شـجيرات نخلهـا حتى لو منحوها كل مزارع الملك.

عندما جاء الليل وانضم العيد إلى الحلقة الكبيرة التـى عقدت بساحة القرية، لم يكن ذلك لأن لديه شـيئاً يريـد أن يقوله، أو لأن فى ذهنه تصوراً لما يجب أن يعمله، كل ما فى الأمر أنه أحس بأن عليه فى مثل هذه الأوقات أن يكون بينهم وأن يتصرف مثلهم وأن يعانى معاناتهم وألا يبقـى منطويـاً على نفسه لا يفعل شيئاً سوى التفكير فـى الهـروب. كـان التجمع كبيراً، ودار الحوار هامساً، يطوفون حول الموضوع

ولا يتحدثون عنه بشكل مباشر، ولكن عبارة واحدة قالها أحد الجالسين أمدتهم بشحنة جديدة من الانفعال والحرارة وجعلتهم يتخلون عن صمتهم وتحفظهم، قال الرجل:

- إن السجن أرحم لنا من هذا الحال.

حقاً، ما الذى سيخسرونه لو أنهم قالوا كلمتهم فى وجه الحكومة، قد يسوقونهم إلى السجن، ولكن السجن لن يكـون أكثر وطأة من هذا الإحساس بالقهر والعجز والمذلـة الـذى يجعلهم يكرهون أنفسهم، دار الحديث صريحاً حول القريـة التى ستعود مرة أخرى إلى قبضة الأجانب، والشـيخ الـذى سجنوه ظلماً، ومصنع الزجاج الذى وعدوهم به ثم اكتشـفوا أنه مجرد خدعة ومكيدة، والعمل الذى يجب أن يقومـوا بـه لإسماع صوتهم إلى الحكومة، وجد العيد نفسه يتحدث لأهـل القرية عن المدينة التى عرف شيئاً حول أسـاليب مكافحتهـا لقمع الحكومة، إن فى المدينة أصواتاً كثيرة تجاهر بالعـداء لسياستها، هناك نقابات عمالية واتحادات طلابيـة ورجـال وطنيون ينظمون المظاهرات ضد القواعد الأجنبية ويكتبـون المقالات والمناشير التى تندد بها، وإن صوت القرية لابد أن يصل إلى كل هؤلاء الناس، يجب ألا تبقى قضيتهم محصورة

فى حدود القرية يعبث بها المتصرف كما يشاء، وإنما يجب أن ينتقلوا بها إلى ساحة أوسع وأكبر لتصبح بالتالى قضية كل هذه القوى التى تصارع الحكومة، وأبلغهم أنهم إذا ما كتبوا عريضة أخرى فإنه على استعداد لأن يأخذ نسخاً منها إلى المدينة ويقوم بتوزيعها على هذه الاتحادات والنقابات والصحف الوطنية، استقبلوا كلماته بشىء من الاندهاش والفرحة، فهم لأول مرة يعلمون أن هناك فى الدنيا من يعادى الحكومة أو يثور فى وجهها ويرفض سياستها، فالحكومة إذن ليست غولاً كبيراً قادراً على زرع الرعب وفرض إرادته على الناس، وإذا كان أبناء المدينة المرفهين، الناعمين، الذين يمضغون العلك، ويعيشون فى قصور على شواطئ البحر، ويتناولون أكلهم جاهزاً فى المطاعم، يستطيعون مقاومة الحكومة فكيف إذن يصيب الذل رجالاً جدتهم المجدوبة التى أرعبت الصحراء وجدهم صانع البارود وصاحب برج النعام وطعامهم الشمس والريح.

وفى الصباح جاء رجال الشرطة يطوفون على البيوت، يلتقطون كل الذين حضروا الاجتماع ويقودونهم إلى مركز الشرطة للتحقيق، كانت قد ظهرت على جدران القرية

كتابات تندد بالحكومة وتطالب بإقالة المتصرف وإطلاق سراح الشيخ مسعود، نفى العيد أن تكون له علاقة بهذه الكتابات، سألوه عن سبب إقامته الطويلة فى القرية مع أن عمله يقتضى منه البقاء فى المدينة فأجابهم بأنه جاء لقضاء إجازة الصيف بجوار أمه وحضور موسم قطف ثمار النخيل، أبلغوه بلهجة حاسمة أن وجوده فى القرية غير مرغوب فيه، وأن عليه أن يعود منذ هذه اللحظة إلى عمله ويبتعد عن إثارة المشكل إذا أراد لنفسه النجاة.

ظلت جميلة تنتظر كل يوم أن تعود إليها تلك الحالـة التى رأت فيها نفسها تترك جسمها فوق السرير وتطوف فى عالم من البهجة السماوية وتخترق برؤيتها الجدران وتستمتع بالالتحام بروح الكون وصفاء الأبدية، كانت تعيد نفس المشهد الذى رأت فيه تلك الرؤية وعاشت فيه تلك التجربة النـادرة المبهجة، تتمدد فوق سريرها وتحدق بعينيها فـى السـقف، وعندما لا تعود إليها تلك الحالة كانـت تحـاول أن تطـوى ذكراها فى صدرها وتتنسى أنها قد رأت ما رأت، ولكنهـا لا تستطيع، ما أن تقرر أن تمتنع عن التفكير فيها حتى تجد أنها قد عادت إلى تلك التجربة تستحضر تفاصيلها وتجهد نفسـها فى البحث عن تفسير لها، ورأت أن سمعها قد ازداد إرهافـاً بعد ذلك اليوم إلى حد أنها تتصور أحياناً إنهـا تسـتطيع أن تسمع حركة السحب الصيفية البيضاء وهى تزحـف علـى بطونها فى أديم السماء، تمنت لو أنها تجد الشجاعة لأن تخبر أحد الناس بما حدث لها وتشركه معها فى حيرتها، أمها على وجه الخصوص، ولكنها تعرف أن أحداً لن يصدقها، حتـى أمها سوف تظن أنه قد جرى لعقلها شىء ما، وسوف تـزداد

خوفاً عليها، تابعت بفتور الأحداث التى مرت بهـا القريـة وموجة الخوف التى تجتاح الناس بسبب إرغامهم على تـرك بلادتهم، أخبرتها أمى سعيدة بأن العيد بخير وهو مازال مقيماً بالقرية ينتظر موعداً للقائها، لم تعد بشىء، فهى تحس بأنهـا لم تتحرر بعد من وطأة تلك الكآبة التى لازمتها طويلاً، حتى حبها للعيد صار حباً بائساً، البؤس أصبح رداء ينسحب على كل شىء حولها، كأنها لم تعد تجد معنى للهدف الـذى مـن أجله يولد الإنسان ومن أجله يعيش، إنها لا تستطيع حتى أن تزهو بجمالها بعد أن أصبح هذا الجمـال مصـدر آلامهـا ومعاناتها، لقد أحست بشىء من الراحة وهى ترى المتصرف يتوقف عن زيارة بيتهم، ويسحب ظله الثقيل من فوق رأسها، ولكنه عندما رأته يطرد والدها من عمله فى اليـوم التـالى أدركت أن الأمر لن ينتهى عند ذلك الحد، وأنه مـازال فـى جرابه ما يملأ به كؤوساً أخرى من الشقاء يسقيها لهم جرعة جرعة، والدها يدخل البيت صامتاً ويخرج صـامتاً ويجلـس وحيداً فى المربوعة لساعات طويلة وليس على فمـه سـوى »لا حول ولا قوة إلا باللّه« كان واضحاً أنه بدأ ينسحب إلى عالمه القديم عندما كان كمّا مهملاً لا يعرف كلاماً غير هـذه

الكلمة ولا يعبأ بأحد ولا يعبأ به أحد، يسدل ملامحه فى رتابة وانكسار وقد عاد إلى وجهه ذلك الإعوجاج الذى يبدو بارزاً فى طرف فمه الأيسر، يشيعها بنظرات آسية حزينة تشـعر معها وكأنه يتهمها بأنها مسؤولة عن فصـله مـن العمـل، وتتساءل أحياناً إذا ما كان حقاً يريدها أن تقبل بالمتصـرف زوجاً لها لكى يرفع نقمته عنهم، وتحس بالأسـى لأنهـا لا تستطيع أن تساعده، فهى فى حالة نفسـية تتضـاءل معهـا الأشياء وتفقد معناها، ذابت الألوان جميعها فى لون سـديمى وما عادت تستطيع التمييز، عالمها ضيق، وصغير، ومحدود، لا تكاد تخرج لحظة واحدة من البيت، ومنذ أن أقامت أمهـا حفلاً بمناسبة الشهادة التى نالتها لم تعد ترى أحداً يزورهـا سوى أمى سعيدة، لقد ظنت أن خبر نجاحها سوف يسـعدها كثيراً باعتباره حلماً طالما تمنت تحقيقه، ولكنها وجدت نفسها تستقبل الخبر ببرود كأنه لم يعد يعنى لها شيئاً، لعـل هـذه الجدران التى تحاصرها من كل جانب هى المسؤولة عن هذا البرود الذى تسلل إلى روحها، أو لعل روحها التى عاشـت تجربة الفرح السماوى لم تعد تطيق البقاء فـى هـذا العـالم المجدب الرتيب، وتحن إلى الذهاب إلى عالم أوسع وأرحـب

وأكثر بهجة وجمالاً، تأتى لحظات تتمنى معها لو أنها تستطيع أن تنطلق تتسلق الجبل أو تجرى فى الصحراء أو تعود طفلة صغيرة تعدو بين أشجار النخيل وتقذف عراجينها بالحجارة، لقد استيقظت اليوم على صوت المؤذن لصلاة الفجر تردد أصداءه الهضاب المحيطة بالقرية فبدا لها كأن الهضاب تناديها وتدعوها لأن تترك البيت وتخرج راكضة عبر المدى الرحب، فتحت باب غرفتها تريد الذهاب وتلبية هذا النداء لكنها رأت والدها قد استيقظ يباشر الوضوء والاستعداد للصلاة، فعادت إلى سريرها ودخلت فى روتينها اليومى تسمع المذياع وتقرأ كتاباً أو مجلة ثم تمل السماع والقراءة وتحاول أن تعين أمها فى أعمال البيت ولكنها تحس بالإعياء والسأم فترتمى مرةً أخرى فوق سريرها تحدق فى السقف وتنتظر غيبوبة الفرح بلا جدوى، وما أن جاء الضحى وتبخرت طراوة الصباح وصار جو البيت خانقاً تحت وهج الشمس اللافحة حتى قررت أن تخرج، لا تدرى إلى أين ولكنها لابد أن تخرج الآن ولو للحظات قصيرة ثم تعود، وضعت المنديل فوق رأسها، واتجهت إلى الباب غير

عابئة بأحد، هرولت أمها وراءها تسأل بلهفة عن المكان الذى تنوى الذهاب إليه، أجابتها دون تفكير:

- وهل هناك مكان آخر غير بيت أمى سعيدة؟

رجعت الأم ترتق جوارب زوجها ولم تقل شيئاً.

مرحِّبة، مستبشرة، استقبلتها أمى سعيدة، فهـذه هـى المرة الأولى التى تأتى فيها جميلة إلى بيتها بعد غيبة طويلة، قالت لها بعد أن مدت المندار ووضعت فوقه الوسائد ودعتها إلى الجلوس:

- ها قد عدت إلينا بعد غربة طويلة.

فجّرت هذه الجملة كوامن الوجع فى أعماقها، هل حقاً عادت من غربتها، وهذه العزلة التى تعيشها، وهذه المـرارة التى تملأ حلقها، وهذه الأشياء التى فقدت طعمها ومعناهـا، وهذه السحب التى تعبر السماء وتملأ أذنيها بالضجيج، حتى إذا كانت قد عادت، فهى لم تعد إلا لتشهد آثار هذا الحريـق الهائل الذى اجتاح الدنيا أثناء غيبتها فامتلأ العـالم بحقـول الرماد. انهمكت أمى سعيدة فى حديث طويل عن الأحـداث التى تمر بها القرية ولكن جميلة كانت غائبة تتسـاءل بينهـا وبين نفسها إذا كان من الصواب أن تحكـى لأمـى سـعيدة

الرؤية التى رأتها، وما تزال تملأ عقلها وقلبها، وتشيع جـواً من الفوضى فى تفكيرها، لعل لدى هذه المرأة الحكيمـة مـا يعيد إلى الأشياء نظامها الذى فقدته، ولكنهـا مـرة أخـرى ترددت فى أن تقول شيئاً، ليبقى ما رأته سراً غالياً تحتفظ به لنفسها، تتعذب به عذاباً شهياً دون أن تشرك فيه أحداً غيرها، انتبهت إلى أن أمى سعيدة تتحدث عن الشهادة التى أخـذتها وتسأل عن مشاريع للمستقبل، كأنهـا لا تعلـم أن حماسـها للأشياء قد خبا، وأن هذا النجاح لا يعنى لها شيئاً، المستقبل، الكلمة ذاتها بدت غريبة، لقد وقفت زمناً على حافة الدنيا، أو أنها اعتقدت بأن ما عانته إنما هو وقوف على حافـة الـدنيا وعلامة من علامات النهاية، فكيف تستطيع أن ترى أبعد من هذه الحافة التى وقفت عندها، حتى الرؤية التى رأتها لم تجد تفسيراً لها سوى أنها تمرين مبدئى على الموت، لقد كان اللّه رحيماً بها فأراد قبل أن يأخذها إلـى جـواره أن يريهـا أن الموت ليس بالبشاعة التى يتصورها البشر وأن ما أحسته من أمن وسلام وسعادة قصوى خلال تلك اللحظـات يجعلهـا لا تخشى الموت إذا جاء، إنها الآن لا تخشاه، بل هـى تنتظـر بشوق وحنين اليوم الذى تعاودها فيه تلك الأفـراح الإلهيـة

وتعرف أنه لن يكون بعيداً، وسوف لا تستجيب هذه المـرة لنداء أمها عندما تأتى لتوقظها، ستستمر فى معانقـة الفـرح الأبدى. المستقبل، وجدت نفسها تعيد الكلمة فـى خاطرهـا وكأنها تسمعها لأول مرة.

- هل قلت المستقبل؟ إننى لا أدرى.

إنها تحاول الآن سبر عواطفها، تحاول أن تتفحص ما الذى صارت تعنيه هذه الكلمة بالنسبة إليها وتمـد بصـرها لترى ما تحمله الأيام القادمة فوق جناحيها، ولكنها لا تستطيع أن ترى غير الشظايا المتناثرة هنـا وهنـاك، لقـد عرفـت مصيرها، وها هو حاكم القرية يواصل حصاره ويتفنن فـى التنكيل بوالدها وها هى القريـة كلهـا مهـددة بـالانقراض والاختفاء، وها هو الضجيج الذى يملأ الدنيا تسـمع صـداه كالأنين تعيد ترجيعه الجبال المحيطة بالقرية، وها هو نـداء يتحرك فى أعماقها بأن تترك كل شىء وترحل بعيداً عن هذه الدنيا، فأى صورة للمستقبل يمكن أن تتكون لديها.

- يجب أن أكون أكثر احترازاً فى حديثى معك. فهذه أول مرة فى حياتى أتحدث إلى معلمة.

إن طنيناً عظيماً كان يملأ رأسها عن المعلم ورسـالته فى الحياة، كانت تحس بأنها عندما تملك هذه الشهادة فكأنهـا انضمت إلى قافلة الأنبياء الذين يصنعون الضوء ويطاردون عساكر الجهل والظلام، ولكنها كانت بريئة لم تسـمع أنـين الجبل ولا آهات السحب التى تزحف على بطونها فى السماء.

تناهى إليهما طرق على الباب فقامت أمى سعيدة لترى الطارق، كان العيد قد جاء لتوه من مركز الشرطة، أخبرتـه بأن جميلة قد جاءت لزيارتها وأنه ليس من اللائق أن يـراه الناس يدخل بيتها وهى موجودة، وإن من الأفضل ترتيب لقاء آخر كما حدث فى المرات السابقة، أدرك حرج الموقف ولعن فى سره الناس الذين لا هم لهم إلا مراقبة الآخرين، وقف لا يدرى ماذا يفعل، إنه لا يستطيع أن يـدخل ولا يسـتطيع أن يكبح توقه الشديد لرؤيتها، رأته أمى سعيدة مرتبكاً لا يقـوى على الذهاب فسألته أن ينتظر قليلاً لكـى تشـاور جميلـة، وجدتها غير عابئة بما يقوله الناس، ماذا يمكنهم أن يقولـوا أكثر مما قالوه فليدخل وليكن ما يكون، ترددت المرأة العجوز تهيباً للموقف وعندما رأت إصرار جميلة وإلحاحها عـادت

إليه، أطلت برأسها تستطلع الشارع وعندما لم تر أحداً سألته أن يدخل.

صافح المرأة التى أحبها أكثر من أى شىء آخر فى الحياة، أبقى يدها فى يده وكأنه لو تركها لانسلت من حياته كالشعاع ،. وجلس بجوارها فوق المندار يتأمل عينيها وقد أصبحتا هالتين تحيطهما الكآبة الزرقاء، وتفيضان حزناً وجمالاً وحباً، لقد ازدادت شحوباً ونحولاً وشفافية عن آخر مرة رآها فيها فأصبحت خيطاً رفيعاً من الضوء، سوف لا يتوقف أبداً عن حبها لأنه لو توقف يوماً واحداً لفقد كل مبرر للحياة، بدت فى عينيه وكأنها لحن عذب حزين يعزفه على الناى أحد الرعاة فى حقل أخضر فسيح تسيل فيه جداول الماء وتبتسم من فوقه النجوم، أدرك أنه فى حضورها يصبح إنساناً آخر، لقد نسى الآن دوامة الحر والغبار وأيام التشرد والطواف اليائس حول بيتها ومطاردات الشرطة وعرائض الاحتجاج على الحكومة، إنسان تحرر من أحزانه وارتفع محلقاً فوق همومه ومشاكله وتخلى عن هذا القطيع الذى تسحقه الحياة اليومية بروتينها وتفاهتها وصار أكثر قرباً والتحاماً بالينابيع التى تصنع النور وتجدد دورة الحياة وتمنح

الإنسان الوسامة والفرح. هنأها بنيل الشهادة واعتبـر ذلـك انتصاراً فى معارك التحدى التى خاضتها منذ أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة، وبداية انتصارات أخرى على كل المتاعب التى عاشتها، ما أكثر النساء اللاتى فى سنها من أهـل هـذه القرية ممن حرمن أية فرصة للخروج مـن دائـرة الجهـل والأمية، وها هى الآن قد كسرت الطوق ونفذت من حصـار الظلام وصارت قادرة على أن تصنع حياتها بنفسـها ودون حاجة إلى عون من أحد.

لا شك أن موضوع هروبهما قد صار الآن مسـألة لا ضرورة لها، فها هو المتصرف كالثعبان الذى فقد ذيلة إثـر ضربة فأس، يعود مذعوراً إلى الشق الذى خرج منـه فـى الجدار المتهالك الهرم الذى سيؤول قريباً إلى السقوط، جلس هناك يلعق جراح هزيمته ويلجأ إلى أسلوب رخـيص فـى الانتقام وذلك بطرد والدها من العمل، إنه الآن يواجه أعتـى العواصف - قال لها يطمئنها - التى لن تتوقف حتى تطـيح به عن عرشه الوهمى، وسيكون العيد أحد الـذين يصـنعون هذه العواصف ويطاردونه بها، أخبرها بالزيارة التى قام بها رجال الشرطة صباح هذا اليوم إلى بيته يأخذونه إلى المركز

للتحقيق، بدا الانزعاج فى عينى جميلة التى توقعت شراً كأن هذه القرية أصبحت عشاً للعقارب، وسـألته أمـى سـعيدة غاضبة إن كانوا قد جرءوا على مسه بسوء، طمأن المرأتين إلى أنه خرج من المركز سليماً دون أن يناله أذى، كل ما فى الأمر أنهم طلبوا منه أن يعود إلى عمله بالمدينة ولذلك فهـو لن يستطيع أن يقيم بالقرية، سيبقى هناك وسيكتفى بزيـارات سريعة فى أيام العطلات، وهو لا يمانع فى ذلك لأن وجـوده فى المدينة سيجعله أكثر نفعاً لقضية القرية حيث سيباشر فور وصوله الاتصال بالاتحادات والنقابات لتكون شـريكة فـى مكافحة المخططات التى تسعى لتأجير القريـة إلـى جـيش أجنبى، وستكون قرية »قرن الغزال« التى عاشـت مهملـة مجهولة حديث الناس فى المدينة، يأتى على ذكرها الخطبـاء وتكتب اسمها الصحف وتكون رمزاً للنضال ضـد العسـف والظلم، وسوف تجد الحكومة نفسها مرغمـة علـى طـرد المتصرف وأعوانه والتراجع عن قرارها بتحويل القرية إلى قاعدة عسكرية وبناء المصنع الذى وعدت كاذبـة بإنجـازه. مضى يتحدث بتدفق وحماس كأنه عثر فى هذه القضية على شىء أمضى زمناً طويلاً يبحث عنه، لقد كان يرى الصراع

يدور شرساً، عنيفاً، ينال من حبه ويلحق الأذى بحبيبته دون أن يهتدى إلى وسيلة يدفع بها هذا الشر، فوقف عاجزاً لا يفعل شيئاً، ولكنه الآن يحس بأن هذه القضية قد فتحت أمامه باباً كبيراً للعمل من أجل خلق بيئة جديدة لا ترتضى القمع ولا تخنق الحب ولا تنبت حكاماً يستعيرون دور الآلهة ويملكون الأرض ومن عليها، ومنحت صراعه ضد المتصرف معنى أكثر نبلاً من مجرد النزاع الشخصى، وأضافت إلى حبه بعداً جديداً يجعله أكثر عمقاً وارتباطاً بالأرض والجذور، وهو حريص على أن تعرف جميلة كل هذا، فالصراع الآن يأخذ شكلاً أكثر شمولاً واتساعاً ونتائجه ستكون أبعد أثراً فى حياتها وحياته. تابعت جميلة حديثه باهتمام وهى تضم قلبها على الشوق العظيم الذى تحمله له وتمنت فى نفسها ألا يكون العيد قد اقتحم هذه المعارك وارتضى أن يعرّض نفسه للخطر من أجلها، إنها تحبه ما تزال، ولكنها صارت ترى الأشياء فى ضوء جديد، إنها كمن عرف موعد موته فلم يعد يثيره شىء، ولم يعد يسعى إلى شىء، لا يعقد آمالاً على أحد، ولا يرى فائدة من أن يعقد أحد آمالاً عليه، ولذلك فهى تتمنى أن يعتنى العيد بنفسه التى

أهملها طويلاً، بدروس الجامعة التى التحق بها، وبعمله الذى تخلى عنه وجاء ليقيم فى قرية تطاردها الشرطة والريـاح، ينتظر لحظة مسروقة من عمر الزمن يلتقيان فيها، لا تريـده أن يستيقظ ذات يوم فيجد أن الأيام قد سرقت منه جزءاً مـن العمر الذى يجب أن يكرسه لبناء حياته ومستقبله، إنها لا تثق بما تأتى به الأيام، وهى تحت وطأة هذا الأسى الـذى يمـلأ قلبها لا تحس بأنها قادرة على تقديم شىء له، إنهـا متعبـة حزينة لا تجد فى نفسها القدرة على أن تمنحه السعادة التـى يرجوها من هذا الحب، ولا تستطيع أن ترى غير هذه الحبال الثقيلة السوداء التى تشدها إلى واقـع بـائس مـريض، ولا تستطيع أن تقفل أذنيها عن دبيب الموت الذى تسمعه يتقـدم بخطى بطيئة نحوها، ومن الظلم له ولها أن تبقيه مرتبطاً بها يدور فى هذه الدوامة حتى يصيبه الإنهاك والـدوار ينتظـر أملاً لا يتحقق. سمعته يقترح عليها أن تطالب بتعيينهـا فـى المدينة، سيقيم لها عرساً عظيماً هناك وسيدعو عائلتها للإقامة معهم فى البيت الذى سيؤجره لها وستصفو لهما الحياة بعـد هذا العناء الكبير.

كانت أمى سعيدة قد تركتهما وذهبت تسـقى أعشـابها وتطعم دجاجها.

شعرت جميلة بالارتباك وهى تبحث عن كلمات تشرح بها موقفها، ظلت صامتة لا تقول شيئاً، علق العيـد عينيـه بشفتيها ينتظر كلمة منها، أحست بقلبها يبكى تحت وطأة ثقل الأحلام التى تتهاوى وتسقط وتتحول إلى جبل من الأنقـاض والركام. سمعها تقول بصوت واهن ضعيف:

- لا أرى فائدة من كل هذا.

أصابه كلامها بالاندهاش والاضطراب، بذل مجهـوداً كبيراً للتغلب على نفسه التى تريد أن تتحول إلى شظايا، لـم يكن ينتظر منها إجابة كهذه وهى التى اقترحت منذ أسـابيع قليلة أن تهرب معه. لأول مرة يسمع هذه الرنة الغريبة فـى صوتها الذى بدا مخنوقاً وكأن يداً تطبق على عنقها، كأنهـا تكره نفسها إكراهاً على قول كـلام لا تريـد قولـه، لعلـه المتصرف مرة أخرى، لعل والدها قد خضع لتهديده وأقنعها بقبوله زوجاً تضحية من أجل أسرتها، تساءل فى ألم وحيـرة إذا كان الأمر كذلك، أسرعت ترجوه ألا يسىء الظـن بهـا، فهو يعرف أنها لن تكون لأحد غيره. ليت للإنسـان أجنحـة

مثل الطيور فشوقها للرحيل إلى المدن البعيدة لا يعادلـه إلا الحب الذى تحمله للعيد، ولكن ماذا نفعل للأحلام الكبيرة التى تأبى أن تتحقق فى يسر وسهولة، لابد أنه يعرف أن الأمـور أكثر تعقيداً من هذه الصورة البديعة التى جاء يرسمها عـن عرس عظيم ترن فيه الأوتار وتصدح فيه الحناجر بالغنـاء وهما فى ثياب العرس يتعانقان عناق العشاق الـذين حققـوا أقصى أمانيهم فى الحياة، ومن حولهما أسرته وأسرتها وقـد اجتمعوا على الحب والصفاء، وهل تتوق لشىء أكثـر مـن ذلك، ولكن هل تستطيع أن تخدع نفسها وأن تدير وجهها عن حقائق الحياة القاسية المرة التى تنتصـب أمامهـا كأحجـار القبور. سمعت صوته يأتيها وكأنه يأتى من قاع بئر مهجورة تمتلئ بصفير الرياح:

- هل هو حكم على علاقتنا بالموت؟

هدأت من خاطره قائلة بأنها لا تعنى ما ذهب إليه، كل ما فى الأمر أنها تريده أن يرجئ التفكير فى موضوع الزواج الآن لكى يمنح نفسه وقتاً يعيد فيه ترتيب حياته ويهتم قلـيلاً بالأشياء التى أهملها طيلة وجوده قريباً منها، وإنها سـتتوقف عن لقائه عدة أشهر لكى تتيح لنفسها فرصة أن تلقاه وهـى

أكثر استعداداً له، فليس من العدل أن تذهب إليه وتستمر فى لقائه وهى محملة بكل هذه الأثقال من البؤس، ولا تريد له أو لنفسها أن يفتحا معركة جديدة مع والدها الذى مازال غاضباً منه، ولن يمضى وقت طويل حتى تكون هذه الفوضى التـى تشيع فى دنياهما قد وجدت حلاً. ولكن العيد دافـع بشراسـة عن حبه الذى رأى الخطر يتهدده من الداخل هـذه المـرة، أفهمها أنه لن يستطيع أن يتأخر أسبوعاً واحداً عن رؤيتهـا ولن يستطيع أن يتوقف دقيقة واحدة عن حبها، وفـى ختـام حديثه أطلق استغاثة أخيرة كاستغاثة قـارب يشـرف علـى الغرق:

- إننى الآن بحاجة إليك أكثر من أى وقت مضى.

انسحبت جميلة إلى عالمها الخاص، وتركته ينظر فـى بلاهة إلى عينيها غير مصدق أن دفاعه قد وصل إلى طريق مسدود.

لم تشأ أن تقول له إنها شاهدت ذات صـباح روحهـا تغادر جسمها ثم تعود إليه مرةً أخرى، وإنها رأت فى ذلـك إنذاراً بقرب نهايتها وإنها تريده صادقة أن يوطن العزم على فراق لا لقاء بعده.

ثم رأى الدموع فجأة تملأ عينيها، وتنهمر فى البكـاء بحرقة وأسى. لم يدر ماذا يفعل، حاول أن يقول شيئاً يعتـذر به عن إثم اقترفه فى حقها دون أن يعلم، ولكنه قبل أن يفـتح فمه بالكلام رآها تقف وتسوى المنديل فوق رأسها اسـتعداداً للخروج، قفز واقفاً أمامها حائلاً بينها وبين الباب كأنه يريـد أن يمنعها من الذهاب، وجهه فى وجهها وعيناه فى عينيهـا، وجسمه مرتعش لا يكاد يقوى على الوقوف، كانت هى قـد توقفت عن البكاء ولاحظ وهو يراها واقفة مدى ما أصـابها من النحول كأنها طيف هبط من السماء، رآها تقتـرب منـه وتضع رأسها على كتفه وتعلـق ذراعيهـا بعنقـه، طوقهـا بذراعيه وضمها إلى حضنه وأحنى رأسه فوق رأسها، بقيـا لحظة على هذه الحال، ثم وجد نفسه يأخذ وجهها بين يديـه وينظر فى عينيها المليئتين بالفجيعـة المبللتـين بالـدموع، اقتربت بفمها من فمه، أسلمت شفتيها إلى شفتيه، رحل إلـى مدينة أسطورية تمتلئ بغناء الطيور وتغتسل فـى بحيراتهـا النجوم وتقيم فيها الأشجار أعراساً للعاشقين، بقى فى مكانـه يستمرئ الخدر اللذيذ الذى سرى كالنسغ فى عروقه، ثم أفاق من خدره وقد اختفت الطيور والنجوم والأشجار والبحيـرات

وينظر حوله فيرى فراغاً موحشاً بانتظاره، لقد منحته قبلتهـا ومضت فى طريقها كما تمضى سحابة العطر، خرجت دون أن تقول وداعاً.

أراد أن ينطلق وراءها ولكنه رأى أمى سـعيدة تقـف قريباً من الباب تسأله أن يبقى ساعات أخـرى لكـيلا يـراه الناس خارجاً بعد لحظات من خروجها فيعرفوا أنه كان يلتقى بها ويملئوا القرية بالشـائعات. استسـلم لتعليمـات المـرأة العجوز، لم يخبرها بشىء مما حدث بينهما ولم يكن صـعباً عليها أن تتكهن بما جرى، لقد سمعت جزءاً مـن النقـاش، اكتفت بأن سألته قائلة:

- هل ستذهب اليوم إلى المدينة؟
- حالما أخرج من هذا البيت.
- إنه عين الصواب.
- وستمضى أشهر طويلة قبل أن أعود إلى هنا مـرةً أخرى.

سكت قليلاً ثم أضاف:

- هذا إذا لم تشرق الشمس من الغرب إيذاناً بأفول نجم هذه القرية إلى الأبد.

- حتى وإن لم تكن هناك قرية فستجدنى أسقى أعشابى فى هذا المكان الذى لن أغادره إلا إلى مقبـرة سـيدى أبـو قنديل، إننى أدعو فى صلاتى بألا يتأخر ذلك اليوم طـويلاً، فأنا كما تعلم امرأة وحيدة، لا أحد بجوارى يعيننى على تحمل شيخوخة عاجزة.

- بعد عمر طويل إن شاء اللّه.

- أرجو أن تلقى الأمور أكثر يسراً وسـهولة عنـدما تعود.

- هذا ما أرادته هى، لقد حكمت علـى بالحيـاة فـى المنفى دون أن تمنحنى فرصة للدفاع.

- إن لديها أسبابها التى تعرفها، فلا تحزن يـا ولـدى وكن على يقين بأنها تحبك أكثر مما تحبها.

منحته كلماتها شيئاً من الهدوء والسكينة، انتظر وقتـاً كافياً ثم استأذن قائلاً:

- أرجو أن تذكرينني دائماً بالبركة والدعاء.

- ليجعل اللّه لك فى كل خطوة سلامة.

عارية، قاسية، صخرية، غارقة فى ضـوء الشـمس، أطلت الهضاب القريبة، تمتلئ بالحزن وجلال الصمت.

ومن بيته فى الطرف الآخر من القرية جاءوا يحملون على أكتافهم نعش الشيخ نصر الدين الذى مات مع الفجر فلم ينتظروا بجنازته حتى صلاة العصر كما جرت العادة وإنمـا خوفاً من أن يصيب هذا القيظ جثمانه بالتعفن، جـاءوا مـع الضحى لتشييعه ودفنه بمقبرة سيدى أبو قنديل.

بدأ الموكب بعدد قليل من الناس، وعلى امتداد الطريق كان مزيد من الرجال ينضمون إلى الجنازة، ويتناوبون على حمل التابوت الذى يضم رفاته، وما أن وصلوا إلى المقبـرة حتى تجمع حشد هائل من أهل القرية يرددون فـى صـوت واحد:

- لا إله إلا اللّه.

صلوا عليه صلاة الجنازة، وأودعوا جثمانه التـراب، وقدموا لأفراد أسرته العزاء، ولم يبق إلا أن يعـودوا إلـى أعمالهم وبيوتهم، وفى حين جلس بعض الشيوخ حول القبـر

يقرءون سورة يس وانهمك بعض أقارب الميت فى البكـاء، ظل بقية الناس واقفين فى أماكنهم لا يغادرون المقبرة كمـا هى العادة فى مثل هذه المناسبات، برغم القيظ الـذى يلفـح الوجوه ويحيلها إلى وجوه سوداء، ظلوا جمـيعهم واجمـين، تحرقهم الشمس ويغطيهم الحزن، يمسحون العرق ويطردون الذباب ويستمعون فى صمت إلى سورة يـس التـى يرتلهـا المرتلون، ويرفضون الذهاب كأنهم ينتظرون حدثاً لا يعرف أحد منهم ماذا يكون.

" يس، والقرآن الحكيم، إنك لمـن المرسـلين، علـى صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً مـا أنـذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول علـى أكثـرهم فهـم لا يؤمنون، إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهـم مقمحون، وجعلنا بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشـيناهم فهم لا يبصرون ".

ووسط هذا الجو الذى يخيم فوقه جلال الموت، ارتفـع صوت ضوء الهلال صائحاً دون أن يحس بحرج وهو يقاطع المقرئين:

- هل انقرض الرجال من »قرن الغزال«؟ هل نبقى ننوح كالنساء الأرامل وهم يسجنون شيخنا ويضربون رجالنا ويبيعون قريتنا إلى الطليان؟

قال أحد الحاضرين مصححاً:

- إنهم الأمريكان هذه المرة.

- كله استعمار فلماذا تكذبون على أنفسكم، لن تمضى سوى لحظات حتى تأتى الشاحنات تنقلكم كالأبقار بعيداً عن أرضكم وترمى بكم فى الخلاء.

عندها فقط، عندما ارتفع هذا النداء، أدركوا سبب بقائهم جميعاً فى المقبرة، لقد كانوا بانتظار كلمات كهذه حتى لو جاءت من رجل لا أحد يثق بسلامة عقله مثل ضوء الهلال، إذ سرعان ما ارتفعت الأصوات من هنا وهناك تؤيد كلام الرجل وتطالب أهل القرية بالوقوف صفاً واحداً فى مواجهة الظلم.

ولكن رجلاً من أهل الميت وقف غاضباً يطالبهم بالإنصات إلى القرآن الكريم، وتأجيل النقاش إلى حين الانتهاء من التلاوة، فامتثلوا لما قال وسكتوا عن الكلام فى حين واصل المقرئون ترتيل السورة:

" واضرب لهـم مـثلاً أصـحاب القريـة إذ جاءهـا المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنـا ومـا أنـزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين، قالوا إنا تطيرنا بكـم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عـذاب ألـيم، قـالوا طائركم معكم أين ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون، وجـاء مـن أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ".

منذ أن سجن الشيخ مسعود وقادوهم مـرغمين إلـى التوقيع وهم تائهون، الغضب الذى يأكل أعصابهم لا يتحـول إلى شىء يريدونه أن يكون، بقى ساكناً فى عظامهم يصيبهم بالوهن والإعياء والعجز، يدمرهم بدلاً من أن يتحـول إلـى شىء يدمر من يريدون له الدمار، يجتمعون ويفترقون بحثـاً عن سبيل لتصريف هذه الشحنات الغاضبة دون الاهتداء إلى شىء، ولكنهم الآن وقد أتاحت لهم جنازة الشيخ نصر الـدين هذه الفرصة للتجمع واللقاء، يحسون بأن الغضب الذى سكن النفوس لم يكن ينتظر إلا مناسبة كهذه ليعبر عن نفسه، ها هم الآن جميعاً يلتقون فى مكان واحد، يتكلمون بصوت واحـد،

والغضب الآن يبدأ فى تشكله البطىء خارج أنفسهم، له شكل الهواء الذى تجمد وصار كتلة من الرصـاص، لـه رائحـة الموت وله صوت الصمت المفعم بالتراتيل، يغطى الوجـوه ويغطى حجارة القبور التى انتصبت كأنها حقل كبيـر مـن النبات المتحجر حيث ينام أسلافهم يعانقون تراب هذه الأرض ويتحللون فيه ويصبحون جزءاً منه.

" وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هـم مظلمـون، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ".

إن ما تريده الحكومة لـيس أمـراً هينـاً يسـتطيعون السكوت عنه، إنه قلب لكل الموازين وتقويض لكل الأسـس التى بنوا عليها حياتهم وارتضوها لأنفسهم وارتضاها اللّه لهم منذ بدء الخليقة، فكيف يتركونها تنتزعهم من جذورهم كأنهم أعشاب ميتة، إنهم لن يتركوا هذه القرية، لن يتركوا أشـجار نخلها ومزارات أوليائها وقبور من ماتوا فيها من أهلهم يعبث بهم جنود يأتون من وراء البحـر لا يعرفـون قيمتهـا ولا يحترمون قدسية هذا التراب، وهم أيضا لا يحتملون فكرة أن يموت الواحد منهم فيدفن فى أرض غريبة وبين بشر غرباء،

بعيداً عن أهله وأقاربه، سيعيشون فى هذه القرية وسيموتون بها، وسيذهبون الآن فى مسـيرة كبيـرة يرفضـون قـرار الحكومة ويطالبون بعزل المتصرف ويرغمونهم على إطلاق الشيخ السجين، انتحى أحد المدرسين بمجموعـة مـن أهـل القرية جانباً يسند الورق فوق رخام أحد المقابر ويكتب لهـم العريضة الجديدة التى سيقدمونها للحكومة، اقتربت السـورة من ختامها وارتفعت الهمهمات استعداداً للكلام.

" إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لـه كـن فيكـون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون " صـدق اللّه العظيم.

انتهت التلاوة وارتفعت أصوات عـدد مـن الرجـال يتكلمون فى وقت واحد، كان بين الواقفين عدد كبيـر ممـن يعملون بالمرافق التابعة للمتصرفية ولكنهم جميعاً من أهـل القرية، جاءوا يشاركون فى تشييع الجنازة ثم بقـوا واقفـين عندما بقى الناس، لم يشعر أحد بأى حرج من وجودهم، بـل هم يرون فى وجود هؤلاء الموظفين والعمال الذين لا يبالون بفقد وظائفهم ما يعزز قيمة وقوة هذه المظاهرة التى لم تشهد القرية مثيلاً لها منذ عهد الحماية البريطانيـة، تـلا علـيهم

المدرس العريضة التى جاء فيها على ذكـر مطـالبهم وقـد عززها بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وأبيات من الشعر العربى القديم، فصفقوا له طويلاً وهتفوا معه بسـقوط المتصرف وأمثاله من الحكام الفاسدين، وقام أحـد العـاملين بالمتصرفية يتكلم بلهجة حانقة غاضبة معبراً عن ثورته ضد الحكومة مبدياً استعداده للاستقالة من إدارتها التى تظلم الناس لأن الأجر الذى يأخذه سيكون حراماً إذا كان علـى حسـاب قهر وإذلال أبناء قريته، فهو على استعداد لأن يعيش علـى تمر وفكريس النخيل وحشائش الأرض فى سـبيل كرامتـه، صفقوا له طويلاً تعبيراً عن إعجـابهم بشـجاعته وجرأتـه وفصاحة كلماته التى هزت بصدقها القلوب، مع أنهم يعرفونه تابعاً ذليلاً للمتصرف يبعث به كل يوم إلى الدكاكين يشـترى له اللحم والخبز والبيض ويتسول اللبن من الرعـاة ليأخـذه إليه، ثم سمعوه يقول إن من رأيه أن يبـدءوا بأنفسـهم وأن يقتلعوا الأعشاب الضارة من حديقتهم، فإن اللّه لا يغير مـا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولذلك فهو يقتـرح أن تتجـه مسيرتهم إلى بيت عامر اليتيم الذى كانت ابنته جميلة سـبباً فى الأذى الذى أصاب شيخاً جلـيلاً مـن رجـال القريـة

الصالحين ها هم اليوم يشهدون نهاية المأساة التى عاشها على يديها، فهى ليست إلا تجسيداً لهذه اللعنة التى جاءت تطـارد القرية وتؤدى بها إلى الخراب، ولن ينتهى سوء الطالع إلا إذا ذهبوا الآن إليها وطردوها من أرضهم وقاموا بحرق بيتهـا وأمتعتها المسكونة بأرواح شريرة كافرة.

ران على الجميع صمت ثقيل لا يقطعه إلا بكاء طفـل صغير بجوار القبر.

وقفوا ينظرون فى حيرة إلى بعضـهم بعضـاً وقـد فاجأتهم كلمات الرجل، لقد تحدث بحرارة وغضـب وقـال كلاماً صادقاً فرحوا به وصفقوا له من قلوبهم، ولكـن هـل يصدقون كلامه عن جميلة، لقد راودهم هذا الشك ذات يـوم، كانوا لا يعرفون هدفاً، وظنوا أن حظاً سيئاً يطاردهم ويجلب لهم المتاعب، وبحثوا عن أحد الناس ينسـبون إليـه سـوء طالعهم، رأوا كائناً غريباً فى بهائه وجمالـه مثـل جميلـة فاعتبروا هذا الجمال الذى لا ينتمى إلى دنياهم مسؤولاً عـن نكبتهم، ولكن الآن وقد تحدد أمامهم الهدف وعرفوا المصدر الذى تأتى منه المتاعب هل يرتدون مرةً أخرى لأكلِ بعضهم بعضاً؟، أراد المدرس الذى قرأ العريضة أن يقول شيئاً، كان

غاضباً لأن معنى ذلك أن العريضة التى كتبها لتكون علامة تحول فى تاريخ هذه القرية قد أصبحت الآن ورقة لا فائـدة منها، ولكنه قبل أن يبدأ الكلام سمع صوتاً يرتفع مـن آخـر الصفوف قائلاً:

- لقد رحل اليتيم فجر هذا اليوم عن القرية.

التفتت الرءوس إلى مصدر الصـوت، كـان المـتكلم عمران عامل المخبز، أخبرهم بأنه عندما كان فى طريقه إلى عمله فجر هذا اليوم رأى اليتيم يشحن أمتعته فى سيارة أجرة ويأخذ أسرته ويغادر القرية.

صاح أحد الحاضرين ملتاعاً:

- وهل رحلت جميلة هى الأخرى ؟

بدا السؤال ساذجاً لا معنى له، كان واضحاً أن الرجل الذى ألقى السؤال إنما هو أحد الذين أحبوا جميلة فى صمت وفجعوا الآن بخبر رحيلها، فانطلق لسانه يفضح مـا عـاش يخبئه لسنوات فى قلبه، فتشوا عنه بعيونهم ولكنه دس رأسه وسط الزحام فلم يهتدوا إليه، إنهم يعرفـون الآن أنـه تكلـم بلسانهم جميعاً، فمن منهم لم يطو فى قلبه حباً صامتاً لها ومن منهم لم يحس الآن بالفجيعة لخبر رحيلها.

سمعوا أحد الشيوخ يقول:

- لقد كان سهلاً على اليتيم أن يرحل، فهو لا يملك نخلاً فى هذه القرية.

كأن أشجار النخيل أوتاد كبيرة تشد الإنسان من ثيابه وتبقيه ملتصقاً بالأرض إلى الأبد. تذكروا أن اليتيم عاش بينهم غريباً ويتيماً، سطعت ابنته نجمة وحيدة فى السماء فجاءوا يقذفونها بالحجارة والأوحال، أدركوا الآن أنهم ارتكبوا فى حق الرجل وابنته ظلماً عظيماً، التفتوا بعيون وقلوب أثقلها الإحساس بالذنب يبحثون عن الرجل الذى كان يحرضهم ضد جميلة، فرأوه يتسلل هارباً، جاءت أصوات كثيرة تكشف تآمره وتفضح علاقته بالمتصرف الذى أرسله لإفساد هذا الاجتماع وتحويل ثورة الناس ضده وضد الحكومة إلى غضب ضد جميلة التى نقم عليها لأنها رفضت القبول به زوجاً، قفز عليه بعض رجال القرية يمنعونه من الهروب ويجرونه إلى قلب الزحام لتنهمر الأيدى تكيل له الضربات، سقط فوق الأرض ميتاً دون أن يعبأ أحد بموته، ثم رأوه يعود إلى الحياة ويزحف عاوياً بين القبور.

ارتفعت أصواتهم كالهدير:

- يسقط المتصرف.

- يسقط، يسقط، يسقط.

- تسقط الحكومة.

- تسقط، تسقط، تسقط.

- تعيش »قرن الغزال«.

- تعيش، تعيش، تعيش.

ساروا تحت الشمس الساطعة المحرقة التى تتوسط قلب السماء، العرق يسيل غزيراً من جباههم، والهتـاف ينطلـق مدوياً من حناجرهم، فتتلقفه الهضاب القريبة وتعيد ترجيعـه كأنها قررت الانضمام إلى مسيرتهم.

وبعراجين مثقلة بالثمـار ورؤوس خضـراء يجللهـا الصمت أطلت أشجار النخيل، سامقة تعانق الأفـق، مليئـة بالكبرياء ورحيق الشمس.